حيونة الانسان

ممدوح عدوان

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

حيونة الإنسان
تأليف: ممدوح عدوان

تصميم الغلاف: باسم صباغ
الإخراج: محمد غيث الحاج حسين

الطبعة الأولى: تموز /2007 م/ جميع الحقوق محفوظة لدار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

التوزيع في سورية:
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
دمشق – ص ب: /9838/
هاتف/ فاكس: /6133856/ 11 00963
جوال: /266681/ 944 00963
البريد الالكتروني: addar@mamdouhadwan.net

ممدوح عدوان

حيونة الإنسان

المحتوى

1) تقديم	9
2) التوصيف	15
3) ورطة الإنسان الأعزل	23
4) هل نحن جلادون	39
5) صناعة الوحش ... صناعة الإنسان	49
6) ولادة الوحش ... بين الجلاد والضحية	65
7) القامع والمقموع	81
8) مسؤولية الضحايا	101
9) الجلاد الذي ينتقم من ماضيه	109
10) السلبطة	117
11) السلبطة السلطوية	127
12) الأخلاق المقموعة	139
13) مجتمع المقموعين	147

14) أصل العنف 159
15) الدولة القمعية 163
16) الدين والحكم 181
17) الأنتي – يوتوبيا 191
18) الحاشية 197
19) قلت للطاغية 213
20) الديكتاتور 225
21) الهوامش 245

«التاريخ مليء بالقيود، إنه يولد مكبلاً بالسلاسل»

مالك حداد

«ربمـــا كانت الكتابة لعبًا في عصور أخرى: أيام التوازن والانسجام، لكنها اليوم مهمـــة جسيمة، لم يعد الغرض منها تسلية العقول بالقصص الخرافية أو مساعدة هذه العقـــول عـــلى النســـيان، بل الغرض منها تحقيق حالة من التوحد بين جميع القوى الوضـــاءة التي لا تزال قادرة على الحياة حتى أيامنا الانتقالية هذه، والغرض، أيضا، تحريض الإنسان على بذل قصارى جهوده، لتجاوز الوحش الكامن في أعماقه».

كازانتزاكيس

/1/

تقديم

سأعترف، من دون أن أدّعي التواضع، بأنه تنقصني صفات عديدة يجب أن تتوفر في المرء لكي تنطبق عليه صفة الباحث.

فأنا أتعامل مع الأدب على نحو أساسي، أكتب الشعر والدراما وأعمل في الصحافة. وهذا يعني أن تناولي لأي موضوع، وحتى الموضوع الذي يشبه البحث، مثل موضوعنا هذا، إنما هو تناول بعقلية الأديب ومزاجه وأسلوبه، وليس بعقلية الباحث ومنهجيته. ومن ثم فإنني لم أكن أسعى لطرح نظرية أو تأييد أخرى. كما أنني لم أكن أسعى لنقض نظرية أو تفنيدها. ولهذا أتوقع ممن يتفهمون مزاجي هذا أن يسوغوا لي عدم الإيراد الدقيق لمرجعيات الاستشهادات التي أوردتها في هذا النص.

وربما كان هذا هو السبب الذي دفعني إلى الإكثار من الاعتماد على شهادات الأدباء ومعالجاتهم لهذه المسألة التي أنا بصددها.

والمسألة هي أنني أرى أن عالم القمع، المنظم منه والعشوائي، الذي يعيشه إنسان هذا العصر هو عالم لا يصلح للإنسان ولا لنمو إنسانيته. بل هو عالم يعمل على "حيونة" الإنسان (أي تحويله إلى حيوان). ومن هنا كان العنوان. ولعل الاشتقاق الأفضل للكلمة هو "تحوين الإنسان". ولكنني خشيت ألا تكون الكلمة مفهومة بسهولة.

إن تصورنا للإنسان الذي يجب أن نكونه أمر ليس مستحيل التحقق، حتى وهو صادر عن تصور أدبي أو فني. ولكن هذا التصور يجعلنا، حين نرى واقعنا الذي نعيشه، نتلمس حجم خسائرنا في مسيرتنا الإنسانية. وهي خسائر متراكمة ومستمرة، طالما أن عالم القمع والإذلال والاستغلال قائم ومستمر. وستنتهي بنا إلى أن نصبح مخلوقات من نوع آخر كان اسمه "الإنسان"، أو كان يطمح إلى أن يكون إنسانًا، ومن دون أن يعني هذا، بالضرورة، تغيرًا في شكله. إن التغير الأكثر خطورة هو الذي جرى في بنيته الداخلية العقلية والنفسية.

وإذا كان الفلاسفة والمتصوفون والفنانون والمصلحون والأنبياء يسعون، كل على طريقته، إلى السمو بالإنسان نحو أن يعود جديرًا بالجنة التي فقدها أو الكمال الذي خسره أو اليوتوبيا (أو المدينة الفاضلة) التي يرسمونها، أو يتخيلونها، له؛ فإنني أحاول أن أعرض هنا أي عملية انحطاط وتقزيم وتشويه تعرض لها هذا الإنسان.

ولقد سبق لي في كلمة الغلاف للكتاب النثري الذي أصدرته في طبعة سورية قبل أكثر من عشرين عامًا بعنوان ‹دفاعًا عن الجنون› أن كتبت العبارات التالية: "كان لدى الإنسان حلم جميل حول نفسه. وكان يصبو إلى السمو على شرطه الإنساني. ولكن تتالي الأحوال فتح في هذا الحلم جرحًا. وبدأ الحلم يترف ويضمحل. وراح يتخذ، مع ضموره، أشكالاً وتسميات.

وبـين حين وآخر ينتبه الإنسان إلى خسارته الفاجعة، هذه، فيدرك أنه صار يجهد لمنع نفسه من الانحدار عن مستواه الإنساني إلى مستوى الحيوان. وحين يقاوم تتخذ مقاومته نوعًا من أنواع الجنون.... ".

وهنا أود أن أستشهد بعبارة من كتاب ‹تأصيلاً لكيان› لمحمود المسعدي: «يتردد الإنسان متأرجحًا بين منازل مختلفة. فمن الناس من لا يختلف كثيرًا عـن الحـيوان، ومـنهم من يبقى طوال حياته يتخبط في البهيمية إحساسًا وشـعورًا وتصـورًا وحياة ومسؤولية. ومنهم من يرتفع عن ذلك درجة أو درجـات. ومـنهم من قد يصل في الارتفاع إلى أن يشرف على أفق عالم الملائكة أو عالم الآلهة».

وكان الأمر قد بدأ مع ترجمتي كتاب ‹التعذيب عبر العصور› لبرنهاردت ج. هروود، والذي صدر عن دار الحوار في اللاذقية عام (1984 م)، ثم صدر عـن دار الجندي، بعنوان ‹تاريخ التعذيب›. وكان المفروض أن يصدر أولاً عـن دار أخرى. وقد اقترح عليّ القيّمون على تلك الدار أن أكتب مقدمة للكـتاب. وبعد أن بدأت بكتابة المقدمة، واستنفار أفكاري وذاكرتي حول الموضـوع، حـدث خلاف جعلني أحول الكتاب إلى الصديق نبيل سليمان الـذي قام بنشره في دار الحوار. ولكن ظلت لدي أفكاري المستفزة حول الموضوع، ولم أرض أن أتخلى عنها.

وإذا كنت أريد أن أحقق فائدة ما من العودة إلى إثارة هذا الموضوع فلا أقل من أن أطمح إلى أن أثير في نفس القارئ شيئًا من الأسف والحرقة على حـلمه المفقود (وهل أتجرأ على الطموح إلى إثارة الغضب؟). ويبدو أن ما أسـعى للوصـول إليه مع القارئ هو، مرة أخرى مسعى أدبي انفعالي. وقد يكون أقل بكثير مما هو الهدف من مسعى الباحث المتمكن المتمرس.

ولعـل أول ما أتمنى أن أثيره، إضافة إلى الأسف، هو التخلص من تعوّدنا على وحشية العالم. فلقد سبق لي أن أشرت إلى فكرة حول التعود لا أعرف

أين قرأتها، وقد أوردتها في روايتي ‹أعدائي› على النحو التالي: «نتعود؟ تعرف ماذا تعلمنا يا أبي؟. ذات يوم شرحوا لنا في المدرسة شيئًا عن التعود. حين نشم رائحة تضايقنا فإن جملتنا العصبية كلها تتنبه وتعبر عن ضيقها، بعد حين من البقاء مع الرائحة يخف الضيق. أتعرف معنى ذلك؟ معناه أن هناك شعيرات حساسة في مجرى الشم قد ماتت فلم تعد تتحسس. ومن ثم لم تعد تنبه الجملة العصبية. والأمر ذاته في السمع، حين تمر في سوق النحاسين فإن الضجة تثير أعصابك. لو أقمت هناك لتعودت مثلما يتعود المقيمون والنحاسون أنفسهم. السبب نفسه: الشعيرات الحساسة والأعصاب الحساسة في الأذن قد ماتت. نحن لا نتعود يا أبي إلا إذا مات فينا شيء».

ولكي تعرف المعنى الحقيقي للتعود اقرأ معي هذا المقطع من رواية ‹من وراء القضبان› لكارل تشيسمان:

> **«واكتشف هو وزملاؤه في هذا القطاع آلاف الجثث اليابانية التي كانت ممزقة ومتحللة. وكان النتن الهائل المتصاعد منها يمنع هؤلاء الرجال من الراحة والنوم والأكل. بعد ذلك ألف الرجال ذلك، وصاروا يستخدمون رؤوس اليابانيين بعد معالجتها، بحيث يكشفون الجمجمة الملساء الملتمعة، يستخدمونها زينة لمكاتبهم».**

أتريد تعودًا آخر؟.

في التفاصيل التي نشرت عن الرياضيين الذين تحطمت طائرتهم في جبال الأنديز شيء آخر، فبعد أن انتهى كل ما لدى الناجين من طعام وهم محاصرون في تلك الجبال الجليدية تحت العواصف الثلجية، نصحهم أحد زملائهم، وهو طالب طب، أن عليهم أن يتناولوا البروتين لكي يتمكنوا من مقاومة البرد ومن البقاء على قيد الحياة. وليس هناك أي مصدر لهذا البروتين إلا جثث زملائهم وأهلهم الذين قتلوا في الحادث، كما أن عليهم الإسراع بنبش الجثث لأن تراكم الثلوج وضعفهم المتزايد سيزيدان في صعوبة الوصول إلى هذه الجثث.

وبعد حين ينجح اثنان منهم في جلب نجدة في طائرة هيلوكوبتر، ويقول الطيار (في كتاب ‹أحياء› الذي يروي القصة)، إنه حين أطل على مكان وجود الأحياء الناجين رأى أمامه عظامًا آدمية متناثرة على مدى النظر. «وكأن قطيعًا من الوحوش المفترسة قد داهم تجمعًا بشريًا».

حين استغرب الطيار استغربوا من استغرابه، فقد أكلوا كل جثة استطاعوا إخراجها من الثلوج. وبين الجثث أهلهم وأولادهم وزوجاتهم.

لقد استغربوا من استغرابه لأنه لم يتعود، بينما هم تعودوا على الأمر وتآلفوا معه.

هل تعودنا نحن على أمور غير مقبولة؟.

إن الشخصية في رواية ‹أعدائي› تنهي كلامها بالعبارة التالية: «تصور حجم ما مات فينا حتى تعودنا على كل ما يجري حولنا».

أعني: إذا كان الأمر كذلك، فكم فقدنا من كرامتنا وتضامننا الإنساني وإحساسنا بإنسانيتنا حتى صرنا نتعود الإذلال المحيط بنا، لنا ولغيرنا؟! وحتى صرنا نقبل هذا العنف والتعامل غير الإنساني الذي نُعامل نحن به أو يُعامل به غيرنا على مرأى منا في الحياة أو حين نقرأ عنه أو نراه على شاشات التلفزيون. (وسنتجاهل أننا نحن نعامل غيرنا أحيانًا بهذه الطريقة: أولادنا أو مرؤوسينا أو الذين يقعون بين أيدينا من أعدائنا مثلاً، أو السجناء الذين بين أيدينا، مفترضًا أن بعض من يقومون بهذه المهمات يمكن أن يقرؤوا ما أكتب).

وينعكس تعودنا على هذا الإذلال في أننا صرنا نعد أن تعذيب السجين أمر مفروغ منه. لم نعد نتساءل عن أثر ذلك التعذيب في السجين الضحية، حتى بعد خروجه من السجن، كما إننا لم نعد نتساءل عن أثر التعذيب في منفذه. وهل يستطيع بسهولة أن يعود إلى حياته اليومية العادية بعد خروجه من غرفة التعذيب، كما لو أنه خرج من المرحاض لكي يستأنف حياته.

وهذه هي أول مرة أجمع بها أفكاري حول هذا الموضوع بعد محاولات عديدة ومقالات مبعثرة في أكثر من مكان.

/2/

التوصيف

أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حرًا أن ترده، أنت تشعر به هناك حين يكون عليك فقط أن تتلقاه، ولا حرية لك ولا قدرة لديك على رده، هـنـاك تجرب الإحساس الحقيقي بالضرب، بألم الضرب . . لا مجـرد الألم الموضـعي للضربة... إنما بألم الإهانة. حين تحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة أخرى إلى كيانك كله، إلى إحساسك وكرامتك، ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك مـن الداخـل... الضـرب، ذلك النوع من الضرب، حين يتحول المضـروب إلى أنقـاض إنسان مذعورة، أنقاض تتألم. وبوعي تحس نفسـها وهي تتقوض إلى أسفل. وبإرادتها الخائفة تمنع نفسها من أن تـرد، ويتحول فيها الضارب إلى أنقاض إنسان من نوع آخر، وكأنه إنســان يـتهدم إلى أعـلى، يسعده الألم الذي يحدثه في ابن جنسه،

ويستمتع بإرادة. وبإرادة أيضًا يقتل الاستجابة البشرية للألم في نفسه فــلا يكف إلا ببلوغ ضحيته أبشع درجا التهدم والتقوض، وبلوغه هو أخس مراحل النشوة المجرمة.

يتحدث يوسف إدريس، هنا، كما هو واضح، عن التعذيب في السجون، وذلك في قصته الشهيرة «العسكري الأسود».

يمكننا تصنيف هذه القصة ضمن ما سمي ب(أدب السجون)، وهو نوع مــن الأدب الذي استطاع أن يكتبه أولئك الذين عانوا السجن والتعذيب، خــلال فــترة سجنهم وتعذيبهم أو بعدها، أو كتبه الذين رصدوا تجارب سجناء عرفوهم أو سمعوا عنهم.

والتعذيــب، تعــريفًا، هو ذلك الفعل المؤذي الذي يمارسه الإنسان على الإنســان الآخــر عقوبةً ردعية أو قمعية أو تربوية أو لإجباره على أمر ما، كفعل معين أو البوح بمعلومات في التحقيق، وأحيانًا كطقس ديني أو تجميلي أو لســبب اقتصادي وأحيانًا كممارسة تدريبية أو . . (وهذا هو المخيف) للاستمتاع فقط.

(وهناك تفاصيل وافية عن التعذيب وأنواعه ووسائله في كتاب «التعذيب عبر العصور» الذي ترجمته وأشرت إليه في التقديم).

هذا التعذيب مادي وجسدي، وهناك تعذيب وتنكيل من أنواع أخرى، لكننا سنقول إجمالاً: إنه ممارسة الإيذاء المادي أو المعنوي.

وهــو بوصفه فعلاً قمعيًا أو إيلاميًا أو ضمن تحقيق لانتزاع معلومات هو ما سنحاول دراسته أولاً للبحث عن أسبابه وعن نتائجه على مستوى الفرد والمجتمع والدولة وربما البشرية كلها.

أول مــا يمكن التطرق إليه في هذا المجال هو التعذيب لانتزاع الاعترافات أو المعلومات. وهو أسلوب يلجأ إليه العدو عند السيطرة على الأسرى لمعرفة أكــثر مــا يســتطيع عن الطرف الآخر، يريد معرفة عدد القوات وأنواع

الأسلحة وأسرارها ومناطق التمركز والانتشار وأسماء القادة وكلمات السر وطرق حل الشيفرات.. إلخ.

كما تلجأ إليه السلطات عند اعتقال عناصر شبكة معينة (سياسية أو إجرامية) لمعرفة بقية العناصر وأسلوب العمل والمتعاونين وأماكن الاختباء وأسلوب التواصل.. إلخ.

هذا يعني أن هناك شخصًا لديه معلومات لا يريد الكشف عنها، وهناك طرف يريد انتزاع هذه المعلومات، ولو بالقوة.

و«ولو بالقوة» هذه تشتمل على التعذيب بكافة أنواعه التي ابتكرها الإنسان في مسيرته "الحضارية". إنها معركة بين صمود صاحب المعلومة وقدرته على تحمل الألم، وبين المحقق وجماعته الذين يوقعون بالمعنيّ أصناف الآلام.

الاعترافات المأخوذة بهذه الطريقة ليس لها صفة قانونية، فالتعذيب قد يضطر من يتعرض له إلى الاستجابة لطلبات المشرفين على التعذيب بتحمل مسؤوليات لا علاقة له بها أصلاً، وربما اضطر إلى اختلاق معلومات لكي يخفف التعذيب عن نفسه ولو إلى حين.

لكن السلطات التي تمارس هذا النوع من التعامل لا تهتم بتصنيف تعاملها من الناحية القانونية أو الأخلاقية.

يحدث امتزاج بين طلب المعلومات والرغبة الخالصة في الإيذاء وإيقاع الألم والرعب، ويصل الأمر أحيانًا إلى نسيان سبب التعذيب، فيظل التعذيب هدفًا ووسيلة وغاية مستقلة.

ويحار ضحية التعذيب في وسيلة للخلاص منه، فلا الاعتراف يكفي، ولا الاستسلام حتى مشارفة الموت يكفي.

يصل الضحية إلى درجة الاستعداد لتبني أي جريمة تنسب إليه أو يراد منه تبنيها.

ومن "أجمل" الشهادات على مواقف من هذا النوع ما ورد في رسالة مايرخولد إلى مولوتوف قبل إعدامه. يقول: «وجدت نفسي منفصمًا إلى شخصين: الشخص الأول يحاول أن يعثر على أثر للجرائم التي يتهم بها فلا يجد، والشخص الثاني يخترع الجرائم حين يعجز الشخص الأول عن اختراعها، وفي هذا المجال كان ضابط التحقيق يقدم لي عونًا لا يقدر بثمن حيث رحت، أنا وهو، نخترع معًا في عمل ثنائي ناجح، وهكذا حين كانت مخيلتي تعجز عن اختراع الجرائم كان المحققون يهرعون لنجدتي».

ولكن للمسألة وجهها الآخر غير المتعلق بالقانون، ونحن معنيون بدراسة الآثار المترتبة على التعذيب عند طرفيه، ضحيته وممارسه.

إذا كان بعض الواقعين تحت التعذيب يريدون كتم المعلومات أو الصمود ببطولة، فإن كثيرين آخرين لا يستطيعون الصمود فيقدمون اعترافاهم. ومهما بعدت المسافة بين الصامدين والمستسلمين فإنها لا تكون كبيرة، لأن للجسم البشري حدودًا لاحتمال الألم. وأول دفاع غريزي يقوم به هذا الجسد هو الإغماء، لكي ينعدم الإحساس بالألم، ونهايته الموت طبعًا، وللجلادين أساليبهم في إيقاظ هذا الإحساس، مثلما أن لهم أساليب متقنة لتجنب موت الضحية.

وهناك من يقعون تحت التعذيب وهم أبرياء وجاهلون بما يحقق الجلاد فيه. وهؤلاء يكتمون المعلومة ببساطة، لأنهم لا يعرفونها، مثلما أن هناك من يستمر في التعذيب وهو لم يعد يريد معلومات، يريد أن يذل الطرف الآخر أو أن يتسلى.

وسواء خرج ضحايا التعذيب أصحاء أم مشوهين جسديًا، سنحاول معرفة: ما الذي يحدثه هذا التعذيب فيهم من الداخل؟.

ولا ننسى أيضًا أن الجلاد (الذي يمارس التعذيب) ليس هو، في كثير من الأحوال من يطرح الأسئلة، إنه يقوم بالتعذيب فقط، وعند وصول الضحية

إلى الاستسلام يتم أخذ هذا الضحية إلى حيث تدلي باعترافاتها أمام المسؤول المعني، الذي ربما حضر "حفلات" التعذيب، وربما لم يحضرها.

ولكن كيف يقوم الجلاد بعمله؟ ولماذا؟ وبماذا ينعكس عليه؟.

في محاضرة ر. د. لينغ بعنوان ‹الواضح›، وهي المنشورة في كتاب ‹ديالكتيك التحرر›، بالإنكليزية، يشرح لنا لينغ التجربة التي قام بها الدكتور ستانلي ملغرام في جامعة ييل الأمريكية (وهي ذاتها التجربة التي قدمها فيلم ‹أنا المقصود بإيكاروس/ I For Icarus› من إخراج هنري فرنويل وتمثيل النجم الشهير إيف مونتان).

تجري التجربة على البشر بهدف الوصول إلى جواب عن السؤال التالي: إلى أي مدى يمكن أن يصل الإنسان في إيقاعه الأذى بإنسان آخر، أو تسبيب الألم له، وهو الذي لا تربطه به أي رابطة سلبية أو إيجابية (وحتى معرفة مسبقة أو حب أو حقد أو مصلحة)؟.

ويكون الجواب، في الفيلم، أن أكثر من (60%)من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يصلون إلى أقصى الحدود المفترضة (القتل)، «طالما أن هناك سلطة يحترمونها أو يخافونها، وهي التي توجه إليهم الأمر»؛ ومن ثم تتحمل المسؤولية القانونية أو الأخلاقية.

وقد بلغ المقدار عند الدكتور ملغرام (26) من أصل (40) أي بمقدار (65%). ويعلق بطل الفيلم إيف مونتان قائلاً: «إذاً فإن ثلثي السكان في مجتمعنا المتحضر الذي يدعي الديموقراطية مستعدون لتنفيذ أي أمر مهما كان شنيعًا».

وقبل أن يحاول أحد أن يتخلص من عبء هذه النتيجة المخيفة، بالقول، كما جرت العادة، إن هذه هي أمراض المجتمع الرأسمالي، أسارع إلى القول إن المقدار قد يكون عندنا وعند غيرنا أعلى مما هو عليه في الولايات المتحدة، وسنتحقق من ذلك عند متابعة منطق التجربة.

يسوغ أحد النماذج، ممن أجريت عليهم الاختبارات، عند سؤاله عما إذا كـــان يحق له أن يوقع ذلك الأذى بالطرف الآخر بقوله: "مسألة يجوز أو لا يجـــوز، هذه، متعلقة بالهيئة التي أصدرت الأمر. إن الطيار الذي يتلقى أمرًا بقصـــف قرية لا يسأل عما إذا كان عمله هذا جيدًا أم سيئًا. هذا ليس من شأنه، عليه، فقط، أن ينفذ الأوامر".

ويشرح الدكتور المشرف على التجربة، في الفيلم، كيفية حدوث المجازر الجماعـــية. الســـؤال هو: "كيف يستطيع الديكتاتور توفير العناصر اللازمة لتنفـــيذ مجزرة جماعية"؟، والجواب: بتوزيع المهمات والمسؤوليات، هناك من يقومـــون بعملـــيات الاعتقال، وآخرون بالتجميع، وغيرهم بنقل المعتقلين بالسيارات، وغيرهم أيضًا بحراسة معسكرات الاعتقال. وكل منهم لا يحس أنـــه ينفذ مجزرة، بل إنه ينفذ أمرًا محددًا صدر إليه ويتعلق بتفصيل يمكن عده منفصلاً عن المجزرة، ثم تأتي عمليات القتل النهائية والتي تقتضي وجود بعض العـــتاة الذيـــن لا يصعب العثور عليهم أو تدريبهم وإعدادهم لكي يصيروا ملائمين لهذه المهمة، (وسنرى لاحقًا كيف يتم إعدادهم).

إن توزيـــع المســـؤوليات، هـــذا، والذي يهدف إلى تخفيف نصيب كل شخص أو طرف من العبء الناجم عن مسؤولية عمليات التقتيل الجماعي، لا يلغـــي أن كل طرف قد قرر، بينه وبين نفسه على الأقل، التغاضي عما سيفعله الآخرون لإعفاء النفس من المسؤولية (أمام الذات والآخرين).

وهـــذا الـــتوزيع في المسؤوليات قد رأيناه ينفذ في مجزرة صبرا وشاتيلا المعـــروفة[1] بـــين(16 و 18 أيلـــول/ سبتمبر 1982 م). فمن متابعة الأقوال والتصـــريحات بعد اكتشاف الأمر تبين أن المجزرة التي استفرد فيها مسلحون صهاينة وكتائبيون بأهالي المخيمين العزل طوال (36) ساعة قد تم الإعداد لها وتنفيذها على النحو التالي:

* **إجبار المسلحين الفلسطينيين على الانسحاب من بيروت والمخيمات من أجل أمن إسرائيل (كهدف معلن للغزو الذي تم منذ أول شهر حزيران**

حتى منتصف شهر أيلول من عام (1982 م) وعرف باسم "اجتياح بيروت")، مقابل تعهد دول عظمى، بينها، وعلى رأسها، الولايات المتحدة الأمريكية، بحماية المدنيين العزل في بيروت والمخيمات.

* مقتل بشير الجميل الذي حاولت إسرائيل فرضه رئيسًا للجمهورية اللبنانية في ظل الاحتلال الإسرائيلي.
* الجيش الإسرائيلي يدخل بيروت الغربية "لمنع الكتائب من القيام بعمليات انتقامية" كما أعلن المسؤولون الإسرائيليون. وكان هذا يعني حرفيًا حماية المدنيين الفلسطينيين والمسلمين العزل في بيروت الغربية من انتقام الكتائب.
* تطويق المخيمين (صبرا وشاتيلا) من قبل القوات الإسرائيلية.
* السماح لمسلحي الكتائب بالدخول إلى المخيمين بذريعة "البحث عن الفدائيين الفلسطينيين الذين خلفتهم منظمة التحرير وراءها". ولا ننسى طبعًا أن الكتائب كانت في حينها طرفًا في حرب أهلية ضارية استمرت منذ عام (1975 م) (أي منذ سبع سنوات).
* الجنود الإسرائيليون لم يفعلوا شيئًا، حسب تصريحات قادتهم، إلا منع خروج أحد من المخيمين ومنع دخول أحد إليهما بعد دخول مسلحي الكتائب.
* المساعدة الإضافية الوحيدة التي قدمتها القوات الإسرائيلية، كما صرح قادتها، هي إلقاء القنابل المضيئة ليلاً على المخيمين.

وهكذا استفرد مسلحون حاقدون ومطلقو الصلاحية مدة ست وثلاثين ساعة بآلاف الناس العزل.

وسنكتفي بشهادة لطبيبة فرنسية أدلت بأقوالها لصحيفة "صدى المعركة" ونشرت في العدد (161) تاريخ (26 أكتوبر/تشرين الأول 1982 م). تقول الطبيبة: "كانوا يدفنوهم أحياء، كانوا يربطون الفتى بسيارتين تسيران في اتجاهين مختلفين، كانوا يقتطعون من اللحم البشري بالسكين، ويضعون اللحم المدمى في فم صاحبه، اغتصبوا وهتكوا، قطعوا الأيدي، خنقوا وشنقوا، أحرقوا

بشرًا أحياء، تراهنوا على من يقتل أكثر في دقائق محددة، والخاسر كان يجرب حظه في مباريات جديدة".

وقد استطاعت التحقيقات أن توضح دورًا أكبر للإسرائيليين، ولقائدهم شارون، في تلك المجزرة، وهذا ما دعا إلى إقامة الدعوى على شارون في بلجيكا. وحين أحس الإسرائيليون أن إيلي حبيقة (قائد القوات التي اقتحمت المخيمين) يستعد للإدلاء بالمعلومات التي لديه، قاموا بقتله.

بين الضرب في الزنزانة واللهو بالتقتيل سيكون مجال بحثنا في هذا اللون من العنف البشري وتأثيراته على الطرفين: من يمارس التعذيب والتقتيل ومن يُمارَس عليه.

/3/

ورطة الإنسان الأعزل

النتيجة التي يصل إليها الدكتور ملغرام في دراسته لاستعدادات الإنسان "لإيقاع الأذى بأخيه الإنسان" هي أنه يعتمد على تجيير المسؤولية نحو "السلطة التي تعطي الأوامر". ولكن تحديد هذه المسألة بمجرد "بإطاعة الأوامر لأنها صادرة عن سلطة مرهوبة أو محترمة" لا يكفي لتغطية مسوغات الأفعال التي حدثت في مجزرة مثل صبرا وشاتيلا (أو غيرها من المجازر المعروفة في التاريخين القديم والمعاصر).

من جهة الدوافع (بشأن مجزرة صبرا وشاتيلا التي ندرسها مثلاً) هناك الكثير: انتقام نابع من الحقد المتراكم بعد سلسلة المجازر المتبادلة خلال سنوات الحرب الأهلية، ورغبة الكتائبيين بترويع الفلسطينيين لكي يهاجروا من لبنان (بالأسلوب ذاته الذي تم ترويعهم فيه قبل وفي أثناء حرب الثمانية

وأربعين من أجل إجلائهم عن أرضهم في فلسطين)، وانتقام الجيش الإسرائيلي لأكثر من سبب معروف من الفلسطينيين الذين قاوموه ثلاثة أشهر، وحتى من الأطفال الذين فاجؤوه في معارك الدبابات (فتيان الآر بي جي)، ورغبة قوى لبنانية أخرى بإخراج "الغرباء" جميعًا من بلادهم بعدما "دمروها"، واقتناع أطراف لبنانية بأنها ليست عربية؛ إضافة إلى رغبة الصهاينة في إبادة الفلسطينيين.. إلخ.

إذا قبلنا الصيغة الأولى للرواية التي عممت عن مجزرة صبرا وشاتيلا، فقد يكفي الاعتماد على أوامر السلطة "المحترمة أو المرهوبة" وعلى فكرة توزيع المسؤوليات لتسويغ أعمال الجندي الذي سمح بدخول المسلحين إلى المخيمين، ثم منعَ أحدًا من الدخول وراءهم . وقد يكفي لتبرير أعمال الجندي الذي كان يلقي بالقنابل المضيئة لتسهيل أعمال القتلة. ولكن هذا لا يكفي لتسويغ أو تفسير السلوكيات الفردية لكلٍ من الذين مارسوا أعمال التقتيل أو صاروا يلهون بالتقتيل (ممن ذكرتهم الطبيبة الفرنسية في شهادتها).

المجازر الجماعية هي المثال الأكثر شمولية لـ "الأذى الذي يوقعه إنسان بإنسان آخر". وهي أكثر ما يخافه الإنسان في الحروب. وبخاصة بعد استسلام المقاتلين لأعدائهم، أو دخول الجيوش إلى المناطق المدنية المعادية.

ولنذكر بعض الإحصائيات السريعة: في الحرب العالمية الأولى قتلت الأطراف المتحاربة أكثر من ستة ملايين أسير بعد استسلامهم لأعدائهم، ويكفي التذكير بالمجازر التي ارتكبت بحق المدنيين الأرمن في هذه الحرب، وفي الحرب العالمية الثانية هناك المجازر التي ارتكبها النازيون ضد الغجر والبولونيين واليهود والسوفييت وغيرهم.

وقد أدت الفظائع التي ارتكبت في هاتين الحربين بحق الأسرى والمدنيين، وفي الحرب العالمية الثانية على نحو خاص، إلى انعقاد مؤتمر جنيف بدعوة من هيئة الصليب الأحمر الدولية تحت رعاية الحكومة السويسرية. ونجمت منه

أربــع اتفاقيات رئيسة هي: اتفاقية معاملة الجرحى في الحرب البرية، واتفاقية معاملـــة الجرحى والغرقى في الحرب البحرية، واتفاقية معاملة أسرى الحرب، واتفاقية معاملة المدنيين.

الجــرحى والأســرى والغرقى والمدنيون العزل هم الذين يحاول القانون الدولي حمايتهم في الحروب.

أي أن الإنســـان، بذاتـــه، ومـــن خلال الممارسات الشنيعة عبر تاريخ الحروب، لم يكن ميالاً إلى الحفاظ على حياة هؤلاء، فالحروب تقوم لأهداف يراها القادة والزعماء وتجعلهم يعلنوها ويشنوها، ولكن هذه الأهداف تصل إلى الأفراد بطريقة خاصة تجعلهم مؤهلين للقتل من أجلها في الميدان، غير أن تأهيـــلهم لهـــذا القتل لا ينتهي عند استعدائهم على الخصم المحارب لقتله أو إيقاع الهزيمة فيه، بل يمتد إلى قتل الجريح والأعزل والمستسلم ثم المدني المسالم؛ ما يمكن تلخيصه بالرغبة في إبادة الطرف الآخر إبادة نهائية.

والهيئات الدولية، بصفتها التعبير الأسمى عن الضمير العام المشترك، تحاول حمايـــة هـــؤلاء الضعفاء، أو الذين انتهت فاعليتهم القتالية، من أخصامهم الأقويـــاء. وتتوسع الدائرة التي يطالب الضمير الإنساني العام المشترك نفسه فـــيها بالتدخل لتشمل (نظريًا) حماية الأقليات داخل الدول، ثم حماية الأفراد أنفسهم من الحكومات التي تحكمهم، وقد يصل الأمر إلى حماية التلاميذ من أساتذهم والأبناء من أهلهم والزوجات من أزواجهن.

ولقـــد أفـــردت ندوات وأبحاث خاصة لدراسة العنف الموجه إلى المرأة، ســـواء خلال تربيتها المترلية عند أهلها أو عند زوجها بعد الزواج، وحتى في العمل وفي الحياة العامة وفي الشارع، ومن خلال القيم المتوارثة.

وثمـــة من قال إن السائر في الليل في شارع خال قد يحس بالخوف حين يشعر بأن هناك خطوات تتبعه. وأسباب هذا الخوف عديدة، وهي مشتركة بـــين الرجال والنساء، ولكن يضاف إلى هذه الأسباب سببان متعلقان بالمرأة

وحدها: الأول هو الخوف من خطر التعرض للاغتصاب. والثاني لمجرد كونها امرأة.

ولنلخص الحالة على نحو مجرد:إنسان قوي بسلطته أو بسلاحه أو بماله أو بعضلاته، وبين يديه، أو أمامه، إنسان آخر ضعيف لأنه أعزل أو جريح أو مهزوم أو معتقل أو ضعيف أو لأنه صغير أو لأنه امرأة.

هناك رغبة "إنسانية" في حماية الضعيف في هذه الحالة حتى لو كان هذا الضعيف قد قرر المواجهة باختياره، كما يحدث في مباريات الملاكمة والمصارعة، حيث توقف المباريات "لعدم التكافؤ" و"لأسباب إنسانية"؛ وذلك لأن هناك إمكانية "إنسانية"، أيضًا، لأن لا يتوقف الخصم حتى عند استسلام المهزوم قبل القضاء عليه قضاء تامًا[1].

ما الذي يدفع الإنسان الأول إلى إيقاع الأذى أو التشويه في الإنسان الثاني بعد تحقيق النصر وإيقاع الهزيمة؟.

حين يرى الإنسان السوي جثة حيوان فإنه يبعدها لكي يبعد رائحتها و"منظرها"، وحين يرى الإنسان السوي جثة إنسان آخر ينفعل، ثم يسارع إلى دفنها، ليس فقط لأنه يريد تجنب رائحتها؛ بل هو لا يريد أن يرى تفسخها ونهش الكلاب لها وتفجر الدود منها، لماذا؟ لأن الجثة لإنسان مثله، وهناك احترام ضمني للرابطة المشتركة بين الإنسان والإنسان، ولعل الإنسان لا يريد أن يرى مصيره القادم في مثال هذه الجثة، ولذلك فإن أبشع أنواع المجرمين هم الذين يحفرون المقابر ويعبثون بالجثث.

فماذا نقول إذًا حين يكون العبث والتشويه بالجسد الإنساني الحي؟، وحين يكون الجسد لإنسان ضعيف وأعزل ومسالم؟، وماذا نسمي من يضع إنسانًا مقيدًا أو عاجزًا أمامه ثم ينهال عليه ضربًا وتجريحًا وتقطيعًا، ليس في مباراة للفوز، بل في زنزانة، حين يكون معتقلاً وبين يدي من نسميه الجلاد أو خبير التعذيب؟.

في كتاب ‹العسف›، عن الثورة الجزائرية، عرض لتجارب أناس تعرضوا للتعذيـــب، وفيه استنتاجات: "نميز بين صنفين مرتبيين من الجلادين: هناك الذيـــن قـــبلوا أن يجعلوا من هذه المهنة القذرة وسيلة للحصول على خبزهم الـــيومي، وهـــناك الذين يدافعون، بشعور منهم أو غير شعور، عن المواقف الاجتماعية والامتيازات التي تخصهم بها سلطة مثل هذه الأجهزة.. وكما في كـــل مكان، الأوائل يعتصمون خلف أدوارهم كمنفذين. والآخرون يجدون مسوغات لأعمالهم في الترسانة الإيديولوجية".

ها نحن نعثر على سبب آخر غير إطاعة الأوامر، أو أننا نضع أيدينا على الخطوة الأولى في إعداد القتلة وتدريبهم وتأهيلهم.

إن مـــنفذ التعذيـــب، بعد شحنه بفكر معين وعواطف وأحقاد خاصة، يشـــعر بأنه يؤدي خدمة خاصة "للسلطة التي يحترمها أو يخافها أو يهابها" أو للإيديولوجيا التي يؤمن بها. وهذه السلطة، هنا، هي الحكومة أو الشعب أو الحزب أو الطائفة أو الجماعة (الإثنية). (الخصم "الحر" يجب أن يصنف على أنـــه «لا إنســـاني»، كما يقول دافيد كوبر في ‹ديالكتيك التحرر›، «وغير الإنســـاني يصبح غير إنسان... وهذا يمكن تدميره تدميرًا تامًا من دون أي احتمال لشعور بالذنب».

ويقول سارتر في تقديمه لكتاب فرانز فانون ‹معذبو الأرض›: «لما كان لا يســـتطيع أحد أن يسلب رزق أخيه الإنسان أو أن يستعبده أو أن يقتله إلا ويكـــون قد اقترف جريمة فقد أقروا [يقصد المستعمرين] هذا المبدأ: وهو أن المســـتعمَر لـــيس شبيه الإنسان. وعُهد إلى قواتنا [يقصد القوة الاستعمارية الأوربية] بمهمة تحويل هذا اليقين المجرد إلى واقع. صدر الأمر بخفض سكان الـــبلاد المـــلحقة إلى مســـتوى القرود الراقية من أجل تسويغ أن يعاملهم المســـتوطن معاملـــته للدواب. إن العنف الاستعماري لا يريد المحافظة على إخضاع هؤلاء البشر المستعبَدين؛ وإنما يحاول أن يجردهم من إنسانيتهم».

كما ينبهنا سارتر إلى اللغة التي يتكلم بها المستعمِر عن المستعمَر، فهي ذاتها اللغة المستخدمة في وصف الحيوانات، «إنهم يستخدمون تعابير: زحف العرق الأصفر، أرواث المدينة الأصلية، قطعان الأهالي، تفريخ السكان... إلخ».

والجلاد إذًا يرى في (الضحية-الخصم) أذى للبشر لأنه عدو للبشر أو أنه من غير البشر. و لم تكن النظرة العرقية، في البدء، تجعل الجلادين يحسون بأنهم يؤذون بشرًا، بل هم يخلّصون البشرية من أنصاف البشر الضارّين (فالنصف الآخـــر في كـــل مـــنهم شرير وحقير وغير إنساني ومؤذ للإنسانية) أو هم يروّضون أنصاف البشر، هؤلاء، كما يروضون الجياد والبغال والحمير، لكي يصبحوا صالحين لخدمة " البشر الأسوياء ".

وتزداد هذه النظرة إلى الخصم عمقًا واتساعًا، فلا يكتفي الجلاد، والجلاد هنا ليس فقط ذلك الذي يمارس التعذيب؛ بل هو الذي يقوده ويوجهه، بأن يـــرى الخصـــم حيوانًا؛ بل يرى الطرف الآخر كله (القبيلة الأخرى كلها، الحزب الآخر، الشعب الآخر، القومية الأخرى) حيوانات. ومن هذه النظرة الفوقـــية الاحتقارية للآخرين تتولد نظرية الامتياز العرقي (الامتياز القومي، وشعب الله المختار).

ويجـــب أن نلاحـــظ أن الأقلـــيات المنكمشـــة هي أقليات عانت من الاضطهاد، واضطرارها للعيش داخل دائرة الاضطهاد يدفعها إلى نسج نوع مـــن الشرنقة حول نفسها لتؤمن الحد الأدنى من الحماية الذاتية مع الحفاظ على ملامح الهوية أو التشبث بها، والقدرة على الحفاظ على هذه الملامح، مع قسوة الحياة أو استحالتها، هي التي تجعل أبناء الأقلية المضطهَدة يحسون بنوع من الامتياز. كما أن الميادين الاستثنائية المتاحة والتي يسمح لهم بأن ينشطوا ويصرفوا طاقاتهم فيها تجعلهم يتميزون ويبرزون فيها؛ ما يعزز هذا الإحساس بالامتياز. وبحيث إن النظرة المجملة من قبل أبناء الأقلية لتاريخها يوصلهم إلى نتيجة تتلخص في القدرة الاستثنائية لهذه الفئة، وإلى تصور أن فئة أخرى ما

كانـــت لتستطيع الصمود أو البقاء أو التماسك لو واجهت الأحوال ذاتها. وحين تتاح الفرصة لهذه الفئة المستضعفة أن تتنفس وتخرج إلى النور، أو أن تســـود وتتسلط، فإنها تريد أن تؤكد هذا الامتياز بحس انتقامي من الآخرين هو نوع من الانتقام من الماضي.

ولكن الإحساس بالاصطفاء والاختيار الإلهي أو التميز العرقي ليس وقفًا عـــلى الأقلـــيات المضـــطهدة، فالنازية قامت على الشعور بالتفوق العرقي، وســـعت إلى تنقية العرق الآري، وكان من بين إجراءاتها، إضافة إلى الإبادة، محاولة تعقيم الأجناس الأخرى لضمان إنهاء وجودها، وهتلر هو الذي كان يتحدث عن «حيوات غير جديرة بالحياة».

وكـــلمة (تحسين النسل/ Eugenics) مشتقة من كلمة يونانية تعني «الجيد بالولادة» أو «النبيل بالوراثة». وتقول النظرية إن الإنسان يمكن أن يتحسن بالتربية والتوليد مثل النبات، وكان داروين من الداعين إلى ذلك، ومثله كان برنارد شو، وكانت النظرة إلى الموضوع على أنه نظرية تقدمية، أو متقدمة، وعلاجية للتطور، ولكن الأمر لا يقف عند النازية.

فقد نشرت الغارديان البريطانية تحقيقًا فضائحيًا عن هذا الموضوع جاء فيه:

«يخطر لنا أن التجارب العلمية التي تجري على البشر قد توقفت مع انتهاء الحـــرب العالمية الثانية، ولكن هناك الكثير مما لم يتوقف ومما لم يتم الإعلان عنه بعد. وقد تم مؤخرًا اكتشاف أن السويد مثلاً، ويضيف التقرير أن الأمر ذاته يحدث في جميع الدول المتقدمة، قد ظلت إلى ما قبل عشرين سنة تجري تجارب تحسين النسل على مواطنيها. ومنذ (1935 م) وحتى (1976 م) هناك أكـــثر مـــن (600) ألـــف مواطن سويدي جرى تعقيمهم (إصابتهم بالعقم المتعمد) من دون إرادتهم، أو من دون أن يعرفوا بما كان يجري لهم، وهؤلاء، موضوع التعقيم، هم المعوقون جسديًا أو عقليًا، وغير المرغوب بهم اجتماعيًا، والنساء اللواتي لديهن عدد كبير من الأولاد ويعشن حياة «سيئة»، والنساء

اللــواتي يحسبن غير قادرات على تربية الأولاد، أو غير قادرات على اختيار طريقهن في الحياة بطريقة «صحيحة». وبين المعقمين غجر ومشردون والذين هم «ليسوا من العرق السويدي الأصيل». ويتساءل الكاتب في ‹الغارديان›: «بماذا يذكرنا هذا؟» وهو يقصد أن هذا يذكر بما فعله النازيون.

ويضــيف ويليم بلاف في ‹ملحق نيويورك تايمز› الخاص بالكتب أن هذه الإجراءات الهادفة إلى تنقية العرق والتخلص من «الدم الفاسد» ليست وقفًا عــلى الســويد بــل هي شائعة في الدول الإسكندينافية كلها وفي سويسرا والــيابان وفرنســا، التي تقول إحدى المجلات إن ما يزيد على (15) ألفًا تم تعقيمهم فيها.

وفي بريطانــيا كانــت مسألة تحسين النسل إشكالية مطروحة أيام حرب الــبوير. وحــتى عام (1950 م) ظلت بعض الجمعيات البريطانية الخيرية ترسل الأطفــال الفقــراء وغير الشرعيين إلى أوستراليا لكي يصبحوا خدمًا من دون عقــود أو أجور. (وحسب نظريات تحسين النسل فإن أوستراليا، التي كانت مأهولــة بالأولاد غير الشرعيين وبالمجرمين، يجب ألا تكون إحدى أكثر الدول الــتزامًا بالقــانون، وخلال الحرب كان تشرشل يرسل الجنود الأوستراليين، وليس البريطانيين، إلى سنغافورة حيث الخطورة أكبر، إن من الممكن التضحية بهم لأنهم ذوو «دم فاسد»).

وفي الولايــات المتحدة وخلال عام (1972 م) وحده تم تعقيم (16) ألف رجــل وثمانية آلاف امرأة بالقوة. وتصر جمعيات التعقيم الأمريكية على أنه يجب تعقيم (10 %) من السكان لكي يتم إنقاذ العرق الأبيض من الاندثار. ولم يُلغَ قانون التعقيم إلا عام (1973 م).

ويجــادل البروفســور توربجورن تانسجو في جامعة ستوكهولم قائلاً إن التعقيم قد اكتسب السمعة السيئة من تصرفات النازيين، وإنه علينا أن نتحرر مــن كــابوس التجربة النازية والنظر إلى التعقيم بمنظار آخر، فالتعقيم يتم

لأسباب عديدة، هناك أسباب عرقية كما يعترف، ولكن هناك أيضًا أسباب نسـلية «لمنع انتقال الأمراض القابلة للتوريث» وديموغرافية «لوقف التضخم السـكاني» وإنسانية «لضمان أن الأطفال سيولدون عند آباء قادرين على العناية بهم».

وفي الـبلدان المـتقدمة، وبعد فضيحة استمرار عمليات التعقيم البشرية والكشـف عنها، كُشف أيضًا عن أمور أخرى تقوم على التعامل مع بعض الـناس مثلما يتم التعامل مع فئران المخابر وحيوانات التجارب. ومن ذلك إجبار المئات من الأطفال المعاقين عقليًا على أكل أطعمة تحتوي على مقدار كـبير مـن السـكريات لدراسة تأثيرها في الأسنان. وقد دافع الأطباء عن أنفسهم بالقول إن هذا من أجل الصحة السنية للبلاد.

وربمـا كـان لدى كل شعب من شعوب العالم نوع من الاعتزاز الذي يـنطوي على إحساس بالتميز عن شعوب الأرض الأخرى، وهو ما يسميه إيـريك فـروم بـ «النرجسية الجماعية»، ولكن هذه النظرة لا تتجلى في شـكلها المـؤذي إلا حين يتفوق هذا الشعب فعليًا في ميدان من الميادين؛ وخاصة في الميدان العسكري.

وبعيدًا عن هذه النظرة العرقية يندرج البشر كلهم في إطار تشويه الخصم. والدكـتور شموئيلي موريه (الإسرائيلي)، المحاضر في (جامعة القدس – قسم اللغـة العربـية)، أكـثر وضوحًا ودقة في طرح المسألة وتحليلها. في كتابه ‹الصـراع العربي – الإسرائيلي في مرآة الأدب العربي› يقول: «في حالات الصراع بين شعبين يحاول كل طرف أن يشوه شخصية الطرف الآخر.. وأن يدقق في سلبياته بواسطة عدسة مكبرة. ويؤدي التوتر الناجم من هذا الصراع إلى تصـعيد الاتجـاه نفسـه، لـدى كل طرف من الطرفين، صوب إبراز التناقضـات الاجتماعية والثقافية والدينية وتشويهها إلى درجة التأكيد على التمايزات في المظهر الخارجي، مثل اللباس وبنية الجسم وتقاطيع الوجه ولون

الشعر والجلد وما إلى ذلك ... ويستهدف الطرح لدى كل من الطرفين التأكيد على اختلاف أبناء الشعب العدو وغرابتهم وتسويغ علاقات العداء والرفض لهم. إضافة إلى ذلك هناك هدف مزدوج كامن في الأمر: تسويغ الدعوة لإبادة العدو على الصعيد الخارجي؛ ورفع المعنويات وتحويل الصراع إلى أسطورة قومية على الصعيد الداخلي». مجلة «أوراق»، العدد (8 شباط/ فبراير 1984 م).

ولقد جاء في محكمة الشعب الدولية في اليابان (1983 م) للتحقيق في جرائم الغزو الإسرائيلي للبنان ما يلي: «كما أننا شاهدنا صورة جندي إسرائيلي شاب يقف على ناصية شارع في بيروت، هذا الجندي قال للمصور الذي قدم لنا شهادته إن أسلوبه [أي أسلوب الجندي] في التغلب على الخوف الذي كان يحس به من هول ما يجري هو أن يعد الناس الذين حوله غير بشر».

ولعل ما جاء في مسرحية «الشلال» لطاغور يلخص هذه النظرة المتبادلة بين الخصمين، فالخصومة قائمة بين أهل أوتاراكوت وأهل شيفتاري. ولنقرأ ما يقوله كل طرف منهما عن الآخر:

أهل أوتاراكوت:

المعلم: مولاي. اليوم ستكرمون مهندسنا الملكي بيبهوتي، لذا جئت بتلاميذي للمشاركة..

راناجيت: أظن أنهم يعرفون جميعًا ما فعله بيبهوتي، أليس كذلك؟

الصبية: "وهم يتواثبون ويصفقون بأيديهم" نعم، نعم، لقد حجز مياه الشرب عن شيفتاري.

راناجيت: ولم فعل ذلك؟.

الصبية: لتعذيبهم.

راناجيت: ولم يعذبهم؟.

الصبية: لأنهم أشرار.

راناجيت: أشرار كيف؟.

الصبية: الكل يعرف ذلك، إنهم أشرار جدًا، أشرار للغاية.

راناجيت: ولكنكم لا تعرفون لم هم أشرار.

المعلم: بالطبع يعرفون يا مولاي المهراجا، هيا، ألم تقرؤوا؟ ألم تقرؤوا في كتابكم؟ "هامسًا" ديانتهم ديانة بشعة.

الصبية: نعم، نعم، ديانتهم بشعة جدًا.

أما أهل شيفتاري فيتحدثون على النحو التالي:

1 – أي وجوه هي وجوه أهل أوتاراكوت ! كأني بالخالق قد بدأ يشكل كتلة من اللحم، ولم يسعفه الوقت لإكمالها.

2 – وما أضيق ملابسهم ! شيء مضحك، أرأيت مثلهم؟

3 – لقد عبؤوا أنفسهم في عبوات خشية ضياع قطعة صغيرة منهم.

1 – لقد ولدوا، كما ترى، للبؤس والعبودية، ولكنهم لا يفعلون شيئًا سوى التسكع في الأسواق والحوم حول القوارب والمراكب.

3 – إنهم جهلة لا ثقافة لهم، خذ مثلاً كتبهم التي يسمونها مقدسة، ماذا فيها؟

1 – لا شيء، لا شيء إطلاقًا، لقد رأيت حروف كتابتهم كطابور زاحف من نمل أبيض.

2 – أصبت. إنهم كالنمل يقضمون ويدمرون كل شيء بثقافتهم.

3 – ثم يدفنونه تحت جحورهم.

1 – نعم، يقتلون أجسادنا بأسلحتهم، وعقولنا بكتبهم.

2 – إنهم غارقون في الخطيئة، يقول مرشدنا إن مجرد ظلهم في الطريق نجاسة.

ولكننا يجب أن ننتبه إلى أن التربية على العنف، بذريعة توجيه العنف ضد الأعداء، تتسبب في ارتداد العنف على المجتمع نفسه. فقد تبين من إحصائية نشرها مجلس حماية الأولاد الإسرائيليين أن إسرائيل تتصدر سلم العنف بين تلاميذ المدارس عالميًا. إذ إن مقدار (24 %) من تلاميذها تعرضوا للعنف خلال عام (1999 م) (أوستراليا في الدرجة الثانية 14 %، والولايات المتحدة 10 %).

ويعقب البروفسور يوسي يونا، المحاضر في كلية التربية في جامعة النقب: «إن مجتمعًا يخضع للقوة ويقرر أنه بواسطتها يمكن أن يحمي وجوده هو مجتمع تطبع مع العنف. إنه يحول العنف إلى جزء طبيعي، لا بل إلى جزء لا يتجزأ من الواقع الاجتماعي، وأكثر من ذلك أنه يعلمه بأن القوة هي السبيل الوحيد لحل المشكلات... نحن نريد أن يكون أولادنا عنيفين فقط تجاه الأعداء، ولكننا لن نستطيع منع ذلك المسار الطبيعي بأن ترتد القوة إلى داخل المجتمع الإسرائيلي نفسه».

ونختم هذا المقطع بالتصنيف المتبادل بين العرب واليهود: ففي كتاب دان أرويان ‹شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي› يورد مقابلات حول مسرحية ‹مدينة واحدة›. وفيها يبدو العربي شخصية سلبية في الأساس: قديم جدًا وقبيح ومنتن وبطيء وأناني وشرير وسكير.. وفي مقابل ذلك تجد اليهودي الإسرائيلي شخصية إيجابية بطولي جدًا ومتفائل ومعترف بالجميل ومنكر لذاته ووسيم ومباشر ومتعال وسريع.. ويقول أحد العرب عن نفسه في المسرحية: «أنا عربي. لي شارب. أرتدي كوفية، وأنا قذر عفن همجي جبان منافق ماكر. لدي عقلية عبد. لذا أنا مخادع من دون ثقافة. أنا خائن لا يمكن الاعتماد علي..»

إن المجزرة، بوصف محايد، هي عملية تقتيل جماعية لأناس غير مسلحين، أو مستسلمين، يقوم بها أناس أقوياء ومسلحون نميت لديهم أحقاد واستعدادات وحشية من خلال الإلغاء الذهني للآخر إلى حد عده من غير البشر.

بعد متابعة المجازر التي ارتكبها الأمريكيون في فيتنام يقول فيليب سلاتر في كتاب ‹السعي نحو العزلة›: «هناك نوعان من الإبادة البشرية تتم ممارستها في فيتنام، وربما كانا يحتاجان إلى نوعين من التفسيرات. أولاً هناك الإبادة من النوع الذي قام به جنود "هوي"، إبادة في منطقة محددة حيث يستطيع القاتل أن يرى الدم الذي يسفكه ويستمتع به كما هو واضح [ومجزرة صبرا

وشاتيلا من هذا النوع]. والثاني، وهو الأكثر شيوعًا، ولا سيما بعد التطور الهائل في الأسلحة، الإبادة عن بعد، ويكون فيه القتل أكثر شمولاً، وبحيث إن القاتل يفكر على أساس المناطق على الخارطة أكثر مما يفكر بالأفراد [قصف هانوي أو قصف هيروشيما أو قصف بيروت أو أسلوب ما يسمى بسياسة الأرض المحروقة. وقد اعترف أحد الضباط الأمريكيين الذي أعطى الأوامر بتقتيل لواء من جنود عراقيين منسحبين في حرب الخليج (1992 م)، وشارك هو بنفسه في التنفيذ، بأنه شعر بأن الأمر شبيه بلعبة الغيم (GAME)، التي يمارسها الأولاد على الكومبيوتر أو الأتاري]. وفي الحالتين لا تُرى الضحايا بشرًا... ولكن في الحالة الأولى يرى القاتل، على الأقل، النتائج المباشرة لعمله؛ بينما لا يرى ذلك في الحالة الثانية».

وفي مقال للبروفسور رالف روزنتال في «المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع» يقول: «لكي تنجح الإبادة يجب أن تتوفر لها أربعة عناصر، أولاً أن يكون منفذو الإبادة على اقتناع تام بصحة عملهم، وبأنهم يتصفون بالامتياز العنصري والإنساني من غيرهم. ثانيًا: أن يكون أمام المنفذين مجموعة تستحق الإبادة [من وجهة نظرهم]. ثالثًا: أن تتوفر الأسلحة القادرة على التنفيذ بالسرعة المطلوبة. رابعًا أن تتم العملية وسط جو سياسي ومعنوي خاص لا يكترث لعملية الإبادة، وإنما يقابل هذه العملية بالتفرج عليها».

هل اقتربنا من فهم المجزرة؟.

إذا دققنا في الآداب الأوروبية نرى هذه الفوقية العرقية التي يتعامل بها الإنسان الأبيض مع ملوني الأرض: (لكي يطرح ألبير كامي أزمة بطله في «الغريب» ابتدأ بالقتل، ولكي لا ينشغل القارئ بشخصية القتيل فإنه يختار لبطله أن يقتل عربيًا جزائريًا «لأن الشمس كانت ساطعة»، ثم يتابع مشكلة البطل)، ثم كيف يصوّر الياباني أو الفيتنامي أو الصيني أو الأفريقي أو العربي أو المكسيكي أو الهندي الأحمر في قصص وأفلام الوسترن والحروب

والعصابات؟، وأي مقدار من الشر موجود لدى هؤلاء، وغيرهم، بحيث إنهم يشكلون ذلك الخطر الهائل على البشرية إذا تمكنوا من التقدم علميًا وتمكنوا من امتلاك سلاح مدمر؟، (الإنسان الأبيض الأوربي أو اليهودي في كثير من الأحـيان هو المنقذ من هذا الشر ابتداء بطرزان ربيب القرود وانتهاء بجيمس بوند التكنولوجي).

مـا هـي صـورة الهندي الأحمر في التراث الغربي (الأمريكي على نحو خـاص)؟، مـا هي صورة العربي في الأدب الأوربي، حتى ما ليس صهيونيًا منه؟، وأخيرًا ما هي صورة الإنسان الأسود؟، «وإن كتب التاريخ تقول إنه مـا من شيء ذي قيمة يحدث ما لم يصل إنسان أبيض»، كما يقول الزعيم الـزنجي ستوكلي كارمايكل، «وأعتقد أن الشاب الأبيض الذي في سني في الغرب اليوم لا يدرك عنصريته غير الواعية، وذلك لأنه يتقبل كتابات الغرب التي دمرت التاريخ وشوهته وكذبت فيه حتى جعلت هذا الشاب ينطلق من افـتراض أسـاس لـتفوقه غير المدرك». ويقول فيليب سلاتر: «لدينا [أي الأمريكيين] ميل مزعج لرؤية غير البيض، والشرقيون بخاصة، على أنهم غير بشـر. وأن نتعامل معهم على هذا الأساس. وفي السنوات الأخيرة توسعت هـذه النظرة لتشمل شعوب الدول الاشتراكية عامة. وبحيث أنه في الوقت الحاضر تصبح أغلبية سكان الأرض مرشحة للإبادة لسبب أو لآخر».

تجـربة الإنسـان الأسـود والسـكان الأصليين في القارة الأمريكية أو الأسترالية وحدها تكفي للقول إن "إطاعة الأوامر من سلطة عليا" محترمة أو مرهوبة ليست مسوغًا كافيًا لتفسير قدرة الإنسان على إيقاع الأذى المتعمد (والذي يصل إلى حد الإبادة) بالإنسان الآخر المستضعف.

هل نتحدث عن "فروات رؤوس" الهنود الحمر التي كانت تؤخذ للذكرى وتعلق في بيوت الأرستقراطية الأوربية، والأمريكية، الراقية و"الديموقراطية"، بينما كانت نساؤها يغمى عليهن عند رؤيتهن الفأر؟، أم نتحدث عن سفن

الرقيق التي كانت تنقل الأفارقة المسروقين بالملايين من غاباتهم وقبائلهم إلى العالم الجديد لبيعهم رقيقًا من أجل خدمة الأرض؟، وهل هناك حاجة للتذكير بأنه حتى ثورة أبراهام لنكولن، المعروفة بثورة تحرير العبيد، لم تكن إلا تحريضًا من الشمال الصناعي لعبيد الأرض الزراعيين كي يهجروا الجنوب ويتجهوا شمالاً (وهم "أحرار") حيث الحاجة ملحة إلى هذه اليد العاملة الرخيصة؟.

إن سجل الأدب الذي يسجل هذه المعاناة سجل ضخم. ولا حاجة لسرد المراجع والكتب حول هذه المسألة. ويكفي التذكير بكتابات جيمس بالدوين وريتشارد رايت وستوكلي كارمايكل ولوروا جونز.. ولا بأس من التنويه بكتاب ألكس هالي «الجذور» الذي تحول إلى مسلسل تلفزيوني شهير يحمل العنوان ذاته. وقد شاهده معظم أبناء منطقتنا.

هناك سبب اقتصادي يبدأ من "حاجة" الجلاد إلى راتبه وينتهي إلى "حاجة" شعب إلى نهب شعب آخر. ولا يتم سد هذه "الحاجة" إلا بالقضاء على قدرة هذا الشعب الآخر على المقاومة، أو الرغبة فيها، وإيصاله إلى حد السكوت المستكين وهو يرى السرقة تتم أمام عينيه، بل والانتقال إلى جعل الشعب يرى، نفسه لا يستحق هذه الثروات التي في بلده، وأن من يستحقها هو ذلك الآخر القوي المتجبر، وهذا لا يتم إلا بإذلال هذا الشعب، أو الشخص، وتسخيره والاستمرار في تجهيله (الأمر الذي لا يمكن أن يتم إلا بناء على عدّ هذا الشعب المنهوب أقل من البشر أو بإيصاله إلى مستوى يصبح فيه أقل من البشر فعلاً).

ولكن هذا السبب أيضًا غير كاف، ولا يحيط بالمسألة كلها.

يريد المضطهِد أن يقمع شيئًا محددًا في المضطهَد هو جوهر حياته، أو أحد أهم المستلزمات لحياته، لأنه يريده نصف حي. النصف الآخر "الزائد" هو الإرادة أو الحرية والكرامة. وهذه فوائض في المضطهَد لا يريدها المضطهِد.

وهـــذا النصـــف إن لم يمت فإن الاضطهاد والاستغلال لا يمكن أن يستمرا. النصف الثاني هو التلبية الطوعية لعمل السخرة (الذي يمتد من العمل اليدوي إلى تحويله إلى جندي مسلح لحماية عدوه أو خوض الحروب التي يدفعه إليها هذا العدو، وكثيرًا ما تكون ضد أبناء قومه أو ضد من يشبهونهم. ولنتذكر أن الجـــيش الفرنسي الذي كان يحتل سورية، مثلاً، كان يحتوي على عدد كبير من السنغاليين والجنود المغاربة، وهم أبناء الشمال الإفريقي العربي).

ونعود إلى سارتر، يقول: «ومع ذلك لم يتحقق الهدف في أي مكان، لم يـــتحقق في الكونغو حيث كانوا يقطعون أيدي الزنوج، ولا تحقق في أنغولا حيـــث كانوا يثقبون شفاه المتذمرين ليقفلوها بأقفال. ولست أدعي أن من المستحيل أن تبدل إنسانًا فتجعله بهيمة، وإنما أقول: إنك لاتصل إلى ذلك إلا بإضـــعافه إضـــعافًا كـــبيرًا. واللطمـــات لا تكفي أبدًا. لابد من المبالغة في التجويع».

ويتابع سارتر: «وهذه هي المشكلة المزعجة: إنك حين تجعل فردًا من أفراد نوعـــنا البشري أشبه بالدابة فإنك تقلل إنتاجه، والإنسان الذي يصبح حيوانًا أهلـــيًا يكلـــف من النفقات أكثر مما يعطي من الأرباح، ولهذا السبب يضطر المســـتوطنون إلى وقـــف الترويض في منتصف الطريق، وتكون النتيجة أن لا يكون هذا المستعمَر إنسانًا ولا بهيمة؛ وإنما يكون من نوع السكان المحليين».

ولكن لا يزال هناك جانب يحتاج إلى تغطية.

/4/

هل نحن جلادون

يشــير كــتاب ‹التعذيب عبر العصور› بحذر إلى استمتاعنا جميعًا برؤية مشاهد العنف والقسوة في السينما والتلفزيون والأدب. وهناك الجلاد الذي يعذب ضحاياه وهو لم يعد يريد معلومات أو اعترافات، يعذب ليستمتع.

وهناك تجارة "فنية" واسعة تقوم على تسويق أفلام تحتوي على نحو أساس على التعذيب. وسنكتفي هنا بالإشارة إلى آخر ما توصلت إليه هذه التجارة التي تقوم أصلاً لإرضاء أذواق مستهلكيها، وهي تجارة الأفلام المهربة، وهذه أفلام لا يمكن لأي سلطة مهما كانت بدائية أو متحضرة أن تسمح بعرضها عـــلى جمهورها، أي لا يمكن لها أن تتحمل مسؤولية الاعتراف بأن الناس، لديها، يستمتعون بهذه الوحشية. ولكن بالمقدار ذاته لم تستطع أي سلطة منع

تهريبها، ولهذا تظل التجارة قائمة، وتُرصد لها الملايين لكي تجنى منها الأرباح بالمليارات. ما يعني استمرار وجود من "يستهلكونها"، أي يستمتعون بها.

آخـــر ما توصلت إليه هذه التجارة، وتقوم صناعتها في الولايات المتحدة وكـــندا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا، وتسوّق إلى كل مكان في العالم وحتى في البلدان التي تصنّعها، وقيام عصابات بسرقة أطفال وبالغين من الجنسين، من أمـــريكا اللاتينية تحديدًا (حيث الجوع والمرض والفقر تجعل الأهل راغبين في التخلص من أبنائهم لكي لا يموتوا جوعًا بين أيديهم[1] فيبيعونهم أو يطردونهم أو لا يســألون عـــنهم حـــين يختفون)، والتعاقد مع فتيات فقيرات بأعمار مختلفة،كبغايا وفنانات، ثم يجلب هؤلاء الأطفال والفتيات إلى الإستوديوهات لتصـــوير أفلام الجنس والشذوذ والعنف والتعذيب. وفي هذه الأفلام خاصية تجعـــلها تختلف عن غيرها من الأفلام المعروفة. وهي أنه ليس فيها أي خدعة ســينمائية. في هـــذه الأفلام يمارس الجنس فعلاً مع الأطفال الرضع وتعلق الفتـــيات من أثدائهن فعلاً ويتم جلدهن بالسياط وتقطيعهن بالبلطات أمام الكاميرات.. ثم تختفي الجثث. وتسوّق الأفلام.

مـــا الـــذي يطـــيعه فاعل هذه الأفعال؟، الجشع وحب المال؟، ربما، ولكن مـــا الشـــيء الذي يشبعه الطرف الآخر (المستهلك) الذي قامت هذه التجارة الشـــنيعة على تلبية رغباته؟، وإلى أي مدى نجرؤ على الاعتراف بأننا نحن أيضًا صرنا نشاهد هذه الأفلام أو ما يشبهها ونستمتع بها، ولو تحت قناع الفضول؟.

ولنعد قليلاً إلى الوراء.

في كتاب «التعذيب عبر العصور» يأتي هذا التلخيص:

«مع أن الإنسان المعاصر قد فاق الرومان في ما يتعلق بالقسوة المجردة إلا أنـــه حـــتى رجال السينما في هوليوود وشينيشتيا لم يستطيعوا الاقتراب من عظمة الحفلات الخيالية التي أغرقت الإمبراطورية الرومانية ذات يوم بالدماء. وكمـــا بـــدأت أفلامنا الصامتة بدأت الألعاب الرومانية ببساطة... كانت

الألعاب في البدايات تحتوي على مباريات رياضية وسباقات بالعربات على شرف الآلهة، ومع تزايد شعبية هذه السباقات صار التنافس فيها أشد وصارت خطورتها أكبر. ولم يمر وقت طويل حتى كان الناس قد بلؤوا يستمتعون بمشاهدة حوادث الموت العنيفة بمقدار ما يستمتعون بالسباقات ذاتها... ثم بدأت مبارزات المصارعين، وهذه أيضًا بدأت على مستوى بسيط ومصغر، ولكنها، مثل السباقات، ازدادت شعبيتها "كرياضة ووسيلة ترفيه". ومع الأيام تحولت إلى تجارة رابحة. فبما أن المصارعين كانوا عبيدًا ليس إلا فإن استبدالهم كان سهلاً. وفي كل مرة ينتهي فيها العرض إلى مقتل المشاركين الذين هم أقل مهارة، كان المتفرجون المتعطشون للدماء يحصلون على متعة لا تعوض. وفي النهاية بدأ السياسيون يُخضعون هذه الألعاب لتكاليف باهظة من أجل كسب ود المواطنين. ومع الأيام لم يعد التنافس الفعلي في الميدان أو في الحلبة؛ بل بين مقدمي العروض أنفسهم. وصارت المعركة حول من يستطيع تقديم المشاهد الأكثر وحشية والأكثر دموية ". وعند تنفيذ عقوبات الإعدام " كلما كان التنفيذ أكثر دموية وكان الموت أكثر إبطاء ازدادت متعة المتفرجين». ويخلص الكتاب إلى القول: «إن هذه المشاهد كانت تعني للمتفرج في حينها ما يعنيه التلفزيون لمتفرجنا المعاصر. ويكفي أن نتذكر هنا أن أبشع تعذيب أوقعته روما في تاريخها كان ضد المسيحيين الأوائل. كانت النتيجة بعد ذلك التعذيب كله أن روما أصبحت عاصمة المسيحيين في العالم. ولكن روح روما لم تتبدد؛ بل تسرب شيء منها إلى عقلية المسيحيين أنفسهم. وباسم الدفاع عن الدين المسيحي الداعي إلى المحبة والتسامح مارس رجال الدين المسيحي عمليات تعذيب لا تقل قسوة ووحشية أيام محاكم التفتيش». ونضيف تذكيرًا بالدور الذي لعبته البعثات التبشيرية في تغطية مجازر الأوربيين في العالم الثالث (المستكشَف).

وعلينا، عند دراسة هذه المسألة، أن نتجنب التبسيطية العقائدية كأن نقول إن الأمريكيين يحبون العنف لأنهم يعيشون في مجتمع رأسمالي، فهذا وحده لا

يقـــدم تفســـيرًا كافيًا، ونحن نعرف أن التعذيب قد مورس أيام ستالين كما مورس أيام هتلر، وأن شعوب الأرض كلها مارست تجارة الرقيق والاستعباد.

عليـــنا أن نبحث في أنفسنا أكثر، وعلى أحدنا أن ينتبه إلى احتشاد أبناء مجـــتمعه لـــرؤية فيلم سينمائي من تلك الأفلام القاسية والقائمة على العنف والـــدم والوحشية. وعبارة "للبالغين فقط"، أو "للكبار فقط" تعني أن الفيلم يحتوي على مشاهد جنسية أو مشاهد دموية. إن كلاً من هؤلاء الموجودين في الحشـــد المقبل للفرجة يتجاهل السبب الذي يدفعه للدخول. ثم يتغاضى عـــن أنه يعرف السبب الذي يدفع الآخرين ضمن تواطؤ اجتماعي عام، إنه شـــيء نفعلـــه جميعًا، ونرى أنه ممتع مع قذارته. ولذا لا داعي للبحث فيه، شـــيء شبيه بالعلاقة الجنسية بين الأزواج. نتجاهلها جميعًا لأنها أمر طبيعي. ولكننا نعرف أن استمتاعنا بالعنف شيء مخجل وقذر. مع أننا نفعله جميعًا. واحتشـــادنا لرؤية هذه الأفلام شبيه بوقوفنا للدخول إلى المراحيض العامة، وفي ظلام دور السينما نسترخي من دون رقابة لنمارس هذه السادية السرية بارتـــياح. ويزيد من هذا الارتياح وجود الآخرين، فهم يجعلوننا نحس بأننا لســـنا شـــواذ. نحـــن مثل الآخرين. ووجودنا مع الآخرين يلغي إحساسنا بالمسؤولية الشخصية.

والنتـــيجة التي يصل إليها كتاب ‹التعذيب عبر العصور› هي أن الشعبية الـــتي يتمـــتع بها أي كتاب (ومن ثم أي فن) إنما تعكس ذوق المجتمع الذي يروج فيه. «ومن هنا نستطيع أن نفهم سر شيوع موجة الكتابات والأفلام العنـــيفة». ثم يقـــول: «إن الذين لا يستطيعون، لسبب أو لآخر، أن يخلقوا الجحـــيم الذي يتوقون إليه؛ يشبعون رغباتهم في العالم الخيالي للكتب وأفلام السينما والتلفزيون».

لقد أصبحت لدينا إذًا رغبات خفية (أو معلنة) في ممارسة العنف المؤذي أو مشـــاهدته. وبمعزل عن السياسة المباشرة فإن السلطات التي تهتم بمواطنيها

وبـــتطويرهم روحـــيًا وأخلاقيًا (إضافة إلى ما لابد منه من تحسين أحوالهم المعيشـــية) هـــي التي تحسب حساب الثقافة المساعدة وتحارب ثقافة الغرائز الحيوانـــية التي نراها تملأ دور السينما والكتب والمسلسلات والمجلات. وكما يحارب المرض بالتلقيح المضاد قبل وقوعه وبالحمية بعد وقوعه فإن من الممكن الـــتفكير بـــتطوير الإنسان وتخليصه من أمراض هذا العصر الحيواني الذي لا يـــريد إلا حـــيوانات ضـــارية حاكمـــة تستمتع بقمع حيوانات مذعورة، وحـــيوانات تستمتع بقتل حيوانات أخرى، أو بالفرجة على قتل الحيوانات الأخرى وتعذيبها.

وهـــذا العنف غير المشبع، كما يقول أنتوني ستور في ‹العدوان البشري›، يبحـــث دومًـــا عن ضحية بديلة. ويجدها دومًا فيحلها فجاءة محل المخلوق الذي أثار الغضب. وهو مخلوق آخر ليست له أي صفة خاصة لاستجلاب صـــواعق العـــنف سوى أنه مستباح للاعتداء عليه. ومن هنا جاءت فكرة الأضحية.

ويعتقد رينيه جيرار في ‹العنف والقداسة› أن فكرة «كبش المحرقة» تخفي عـــن الـــناس حقيقة عنفهم التي لم يستطيعوا التعايش معها فيتحد العنف مع المقدس ومع القوى التي تضغط عليهم من الخارج كالموت والمرض والظواهر الطبيعية.

وإذا عكسنا الفكرة وجدنا أن الإنسان يستعين بالمقدس لكي يجد تسويغًا لممارسة العنف. فالعقاب فكرة تسويغية سواء كانت عقابًا تربويًا أم مسلكيًا أم قانونـــيًا. وهـــي تنطلق من فكرة الثأر أصلاً. ومن الشرائع الأولى شريعة تالـــيون، وهـــي تقول بإيقاع الأذى بالمجرم يشابه الأذى الذي أوقعه المجرم بالضـــحية. والمـــبدأ العـــام هو «العين بالعين، والسن بالسن» (من شريعة حامورابي إلى أن تبنتها التوراة). وفي شريعة الياكوتوس البدائية فكرة أن دم الرجل المقتول يستصرخ الثأر. وهذا يذكرنا بفكرة «طائر الصدى» في تراثنا

العـــربي. وهي التي تقول إن طائرًا خرافيًا يخرج من قبر القتيل، أو من هامته، ويصرخ طالبًا الثأر إلى أن يتحقق.

ويقول ألبرتو مورافيا في مقابلة سنصل إلى تفاصيلها لاحقًا: «الإيطالي لا يؤمن بعدالة الدولة: فحين يجد نفسه مغبونًا ينتقم وحده».

ويـــرى إيريك فروم أن رغبة الإنسان في الثأر تصعيد لوضعه الشخصي، بحيـــث يعد نفسه فارض القانون ومحق الحق... أي أنه يضع نفسه في مكانة شبيهة بمكانة الخالق.

وعلى المستوى الجماعي يتحول «ثأر الدماء»، التسمية لإيريك فروم، إلى واجـــب ديـــني له رموزه الدينية مثل صلب المسيح ومقتل الحسين. كما أن الإيذاء، وحتى إيذاء النفس، يرتدي صبغة دينية. إن الرقص في حمى الاحتفال يدفـــع إلى تجريب الإيذاء الذاتي. وهذا ما نراه في حفلات الزار أو حفلات عاشـــوراء أو في حفـــلات الرقص لدى أهل بالي. وفي الحالات كلها يريد الراقص أن يوحي بقداسته التي تعني عدم التأثر بالأذى عند التعرض له. ولا يـــنجح دومًا في ذلك ولكن الجمهور يستمتع دومًا وتأخذه الحمية الدينية. وقد تصل هذه الحمية الدينية إلى درجة إيقاع الأذى المتعمد في الذات، تعبيرًا عن التفاني في المعبود أو المحتفى به أو الحالة كلها.

وإذا توقفنا قليلاً عند مسألة الأضحية والقربان كان لا بد من أن نتذكر أن القربان في الأصل كان قربانًا بشريًا. ومثلما كان الفراعنة يضحون بالبشر بإلقائهم في النيل، كان اليونانيون يضحون بفتياهم قبل الخروج إلى الحرب. في الـــتراث اليوناني هناك قصة أغاممنون الذي يضحي بابنته قبل الذهاب إلى حـــرب طـــروادة. ولدينا أيضًا قصة إبراهيم الخليل الذي رأى أنه يقدم ابنه قربانًا، وإن مبادرة الأب لتنفيذ رؤياه، واستعداد الابن للطاعة في أمر كهذا، دلـــيل على أن الأمر كان مألوفًا ومصبوغًا بالقدسية. وإن الله، كما جاء في الرواية التوراتية أو القرآنية، هو الذي أرسل من يستبدل الكبش بالابن، وهذا هو الاستبدال الأول: أضحية مقابل إنسان.

ولا ننسى أن "المذبح" لا يزال، ولو رمزيًا، جزءًا من أجزاء الكنيسة.

وتبقى الأضحية، حتى وهي رمزية في كبش أوطائر، ذبيحة يتم إسقاط المعنى على دمها. ولهذا فإن العامة لا يزالون يغطون أيديهم في دماء الذبيحة لمباركة ما ذبحت من أجله. (البيت أو السيارة) بتلطيخه بالدم أو بجعل من ذبحت تكريمًا له يمشي فوق الدم.

وهنا ننوه بأن الذبيحة - القربان كانت مطلوبة بذاتها، ثم بعد ذلك جاء التحول نحو الاستفادة من لحمها لإطعام الفقراء.

هناك من يجتهدون لإيجاد تعريف موجز ومختصر للإنسان، فيقولون إنه حيوان ضاحك أو حيوان ناطق أو حيوان مالي أو حيوان يتمتع بالذاكرة أو حيوان سياسي أو حيوان طوره العمل... إلى آخر الصفات. ولكن هذه التعريفات كلها تتفق على منطلق واحد هو أن الإنسان حيوان.

وحتى محاولات العودة إلى أصول الإنسان في الأبحاث الأنثروبولوجية وفي التنقيب بين الأقوام والقبائل البدائية والبحث عن الحلقة المفقودة بين الإنسان والمخلوق الذي سبقه هي محاولات للكشف عن الحيوان الأول جد السلالة الإنسانية، ومعظمها يريد أن يعرف كم ترك هذا الحيوان المفقود من طباعه وعاداته وأمزجته داخل نفوس أحفاده من أجل فهم أمور أخرى كثيرة وخطيرة يقوم بها هذا الحفيد (نحن طبعًا) أو تفسيرها أو تسويغها.

ولكن الحيوان المشار إليه في داخل النفس يسرب دلائل فردية أو جماعية على الفشل النسبي أو المتعاظم لهذا التراكم الثقافي التاريخي في إبعاد الإنسان عن ذلك الوحش. إننا نعود إلى استخدام ألفاظ "وحش" و "متوحش" و "وحشية". وفي تدريباتنا العسكرية نُعلّم ونتعلم إطلاق صرخات تجعلنا نتشبه بالوحوش، فالتدريب العسكري تعليم على القتل الذي لا يتمنى الإنسان، نظريًا، أن يقوم به. ولا بد من استنفار "الوحش القابع في الأعماق" أو استنفار مواصفاته الوحشية لكي يسهل تنفيذ القتل. وهنا

يؤكدون على أن هذا ما ورثناه عن جدنا البدائي الذي كان أكثر صراحة منا إذ يلبس أقنعة الحيوانات ويقلد حركاتها لكي يتقمصها وهو ذاهب لقتلها أو قتل غيرها.

ونحن ما نزال نبحث عن حيوانات تصلح للتشبيه: قوي كالثور أو كالحصان، غادر كالذئب، ماكر كالثعلب، أمين كالكلب، أليف كالهرة، صبور كالحمار، عنيد كالبغل، قبيح كالقرد،كبير كالفيل... إلخ.

ولكن ظل الحيوان الآخر آكل اللحوم المتلذذ بالتعذيب والقتل والتقتيل والتمثيل بالجثث من دون اسم.

لقد بذل الجانب "البشري" الاستغلالي المسيطر جهودًا كبيرة لإخفاء توحشه. ولبست جهود كثيرة منها لبوس العلم أو الدين. وعلم الأقوام (إتنولوجي) نشأ أصلاً كفرع من فروع حركة الاستعمار. فقبل أن تتوجه الجيوش أو الشركات إلى مكان ما من العالم يذهب "علماء" و "خبراء" لدراسة الأهالي في ذلك المكان ومعرفة العادات والتقاليد والديانات واللغات... ثم توضع هذه المعلومات كلها تحت تصرف الرؤوس الكبيرة التي تقرر على ضوئها خير السبل للتعامل مع هذه الشعوب وإخضاعها ونهب ثرواتها.

وبعد ذلك، حين تظهر بوادر إخفاق هذا الأسلوب أو ذاك وتحدث احتجاجات أو حوادث تمرد أو رفض، فإنها تقمع بعنف شديد، وتضطر الرؤوس الكبيرة إلى قتل هؤلاء الذين يرفضون البعثات التبشيرية أو "التحضيرية"[2]. وهنا تتقدم العلوم مرة أخرى، فتظهر أبحاث "علمية" متخصصة لتثبت أن في هذا الزنجي أو الأصفر أو الجزائري أو العربي مواصفات بيولوجية تجعله مختلفًا عن الإنسان (الأبيض) السوي وأقل منه مرتبة، أي أنه أقرب إلى الحيوان بحجم دماغه أو حجم أعضائه التناسلية أو طول قامته أو ميله للعنف – لكي تقدم، على نحو مباشر أو غير مباشر، تفسيرات إتنولوجية وسيكولوجية لسلوكه الاحتجاجي الرافض تخفي حقيقة كونه محتجًا على

سرقة ثرواته أو على استعباده. وهنا يصبح من المسوغ أن يعامل معاملة الحيوان من تعذيب وترويض أو أعمال سخرة وحتى تقتيله جماعيًا.

ومهما كبرت هذه الأبحاث "العلمية" العنصرية الاستغلالية فإنها لا تشكل إلا فصلاً واحدًا في ذلك السجل التاريخي الحافل من الأبحاث والفلسفات والنظريات التي تقرر دونية المرأة ونجاستها وصغر حجم دماغها ونقص دينها وعقلها وحيوانيتها لتسويغ قمعها واضطهادها واستغلالها طوال ذلك التاريخ.

يتجاهل المستغِل، دومًا، أسباب ما يسميه "غرائز العنف" لدى المستغَل [3]. ولا يرى فيها، كما يقول سارتر في تقديم ‹معذبو الأرض› قسوته هو (أي قسوة المستغِل) «وقد ارتدت وانقلبت عليه». ولا يرى في «وحشية هؤلاء الفلاحين المضطهَدين وحشيته هو وقد امتصوها بجميع المسام وأصبحوا لا يستطيعون أن يبرؤوا منها».

قلنا إن القناع الذي يحاول المضطهد إخفاء توحشه وراءه هو أن الطرف الآخر (الضحية) ليس إنسانًا، أو ليس إنسانًا سويًا. ومع أن "إنسانية" الإنسان "السوي" قد وصلت إلى درجة تشكيل جمعيات للرفق بالحيوان فقد ظلت "حيوانية" الضحايا سببًا كافيًا لكل أنواع التعذيب والتنكيل والتشريد والقتل والإبادة.

ومن الأمثلة العديدة على هذه الأبحاث نختار فصل ‹الإنسان واقفًا› من كتاب ‹العنف› لكونراد لورانزو.. إنه يستعين بالمحلل النفسي سيدني مارغولين، الذي قام بدراسات وصفها بأنها شديدة الدقة في التحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي حول الهنود الحمر. وقد اختار منهم قبيلة ‹الأوت› من هنود المراعي.

ويقرر هذا العالم النفسي أن هؤلاء يشكون على نحو خطير من «فرط غرائز عدوانية». إنه ينظر إليهم كعينات مخبرية مفصولة عن تاريخها وأحوالها. يتجاهل أنهم مغزوون ومطاردون ومهددون بالإبادة، وأنهم مسلوبو الأرض،

وأن غزاهم يفرضون عليهم القوانين والعادات الغريبة عنهم وعن تقاليدهم، ويفرضـــون علـــيهم أمكنة الرعي والإقامة أيضًا. ولهذا يستغرب كيف أن غرائزهم العدوانية هذه «يستحيل تقليصها ضمن شروط الحياة في الولايات المتحدة». ويعدهم مرضى يحملون «عدوانية لم يتم تفريغها».

والسبب الحقيقي الذي يتجاهله مارغولين هو أن هؤلاء، خلال عدد من القـــرون، كـــانوا يعيشون حياهم على طريقتهم. وكانوا يغنون ويرقصون ويعشـــقون ويحـــبون أولادهم وجيراهم وقطعاهم. ثم جاء المستعمر. وحين جـــابهوه ودافعـــوا عن مراعيهم وقطعاهم بدت مجابهتهم للباحث على أها عدوانـــية ووحشـــية. ولكن التعبيرات تفلت لتدل على النظرة الحقيقية التي يـــراهم مـــن خلالها. فيشبه مسألة التعامل معهم بمسألة تدجين الحيوانات. فحـــياهم الأولى المعـــتمدة على الحملات الحربية والصيد قد أدت إلى تنمية عدوانـــية قويـــة لديهم. والسعي الأمريكي (الإنساني الأبيض) المتحضر هو لـــتدجين هذه المخلوقات وتخليصها من غرائزها العدوانية. ولا يخفي طبيعة نظـــرته إلى هـــؤلاء البشر حين يقول إن عملية التدجين هذه ممكنة. «ومن الممكن بواسطة انتخاب عميق تحويل الحيوانات الأهلية بالسرعة ذاها».

ولكننا لا نعرف ماذا نسمي غرائز المستعمرين والمستوطنين البيض الذين اقتحموا عالمهم وأبادوهم، ثم فرضوا على من تبقى منهم نمطًا محددًا من الحياة إما أن يقبلوه "كحيوانات أليفة" وإما أن يرفضوه لأهم "وحوش ذوات غرائز عدوانية ضارية" ولذلك تجب إبادهم.

/5/

صناعة الوحش ... صناعة الإنسان

إن اللغـــة، هـــنا، تبدو فقيرة، وحين نضطر لاستخدام كلمات "وحش" و"وحشي" و "متوحش"؛ فإننا نتواطأ مع جنسنا البشري لكي نظلم الوحوش. فقـــد دلت الأبحاث والتجارب على أن ما نصفه بالوحشية هو سلوك خاص بالإنسان. وإيريك فروم يقول إن الإنسان يختلف عن الحيوان في حقيقة كونه قـــاتلاً، لأنـــه الحيوان الوحيد الذي يقتل أفرادًا من بني جنسه ويعذبهم، دونما ســـبب بيولوجي أو اقتصادي، ويحس بالرضى التام من فعل ذلك. وفي كتاب ‹التعذيب عبر العصور› ترد هذه الفقرة الهامة في التمييز بين الإنسان والحيوان: «فـــالوحوش لا تقـــتل المخلوقات الأخرى من أجل الابتهاج والرضى فقط، والوحوش لا تبني معسكرات اعتقال أو غرف غاز، ولا تعذب الوحوش أبناء

جنسها إلى أن تهلكهم ألمًا، ولا تستنبط الوحوش متعة جنسية منحرفة من معاناة أقرانها وآلامهم». ويقول ريمون آرون: «قد يحدث للذئاب أن تقتتل في ما بينها، ولكن رادعًا غريزيًا يحول من دون اقتتالها حتى الموت، فالحيوان المقهور الذي يسلم عنقه لأنياب خصمه لا يجهز عليه خصمه».

إن لدينا الكثير من الآراء الخاطئة حول الحيوانات. فالحيوانات المسلحة بأنياب ومخالب والقادرة على القتل هي الأقل فتكًا بأبناء جنسها. إذ مع وجود السلاح الطبيعي القوي يوجد الكابح. وينبه كونراد لورانزو في كتاب «العنف» فصل «الإنسان واقفًا» أن الكابح ضد القتل يضمحل كلما كان الحيوان أكثر ضعفًا وأقل سلاحًا. ويقول: «ينتبه مربي الحيوانات إلى غياب هذه الكوابح، ضد القتل، إذا لم يأخذ على محمل الجد المعارك بين حيوانات مسالمة تمامًا... وإذا لم يستطع المهزوم الإفلات من المنتصر بهروب سريع يقوم هذا الأخير بقتله على نحو مؤلم ودؤوب. ثم يبين كيف أن الحمامة لا تتوقف عند أي كابح لدى قيامها بتعذيب حمامة أخرى حتى الموت. بينما يكتفي الصقر أو النسر بتحقيق الهزيمة بخصمه فلا يسترسل حتى القتل».

إن وجود الأسلحة يولد الخوف من استخدامها، ولذلك فإن الأسلحة تطورت بحيث تقتل من دون أن تثير هذا الخوف أو الكابح (القتل عن بعد). ويفسر لورانزو المسألة: «المسافة التي بلغتها الأسلحة النارية قد أضحت كبيرة بما فيه الكفاية لتسمح للمصوب أن يبقى بمنأى عن المواقف المثيرة التي كانت، في حال وجوده فيها، ستنشّط كوابحه ضد القتل. إن الطبقات العاطفية العميقة في شخصنا لا تسجل بكل بساطة أن حركة الضغط على الزناد تفجر أحشاء إنسان آخر. ولم يكن أي إنسان طبيعي ليذهب إلى صيد الأرانب مستمتعًا لو وجب عليه أن يقتل طرائده بأسنانه وأظافره، وأن يصل بذلك إلى درجة التحقيق العاطفي الكامل لما يفعله في الواقع».

ولكن هناك جانبًا آخر غير الصيد هو قتل الإنسان للإنسان الآخر، فالصيد يهدف إلى القتل من أجل الأكل، بينما الإنسان، كما يقول ميشيل

غوستار، هو الكائن الوحيد بين جميع الكائنات الحية الذي يستطيع أن يهدم، وأن يهدم حتى ذاته، ولكنه يستطيع أن يشن هجومًا لم يستفز من أجله، كما تعنيه كلمة استفزاز، بل لأنه تستهويه لذة التدمير. ويقول ميشيل كورناتون إن القتالية الحيوانية ترتبط بالحاجات، وترتبط أيضًا بالمحرضات الخارجية، بينما يرى الإثنولوجيون أن العدوانية سمة إنسانية خالصة. وفي كتاب آخر عن العلاقات الجنسية عنوانه ‹سرير العرس› لجوزيف برادوك يقول: «ولكن على عكس ما يعتقده البعض فإن الحياة الجنسية للحيوانات أقل وحشية وأكثر انضباطية وتنظيمًا. وهي، بالطبع، متحررة من العنف المؤسف الذي ينبع من الكبت البشري كالاغتصاب مثلاً، وذلك لأنه من الناحية الفيزيولوجية يستحيل على الحيوان الذكر أن يأخذ أنثاه ضد إرادتها»، ومن البدهي أنه يستحيل على الإنسان أن يغتصب امرأة ضد إرادتها، ولذا، ومن أجل تحقيق فعل الاغتصاب، لابد من قهر مقاومة المرأة إما بإثارتها في آخر لحظة بحيث "تمنح" نفسها. أو أن يشل مقاومتها الفيزيولوجية تمامًا. وكما طور الإنسان قدراته أمام الطبيعة وكل ما هو طبيعي طور قدرته على الاغتصاب . وبالمقارنة صار يمكن القول إن الحيوان لا يجلب حيوانات أخرى تمسك له أنثاه لكي يغتصبها، كما أنه لا يقيدها بالحبال أو يخدرها لكي يفعل ذلك. ومن البدهي أن الحيوان لا يمارس الجنس مع الجثث أو مع حيوانات من غير جنسه.

ومادمنا في هذا الجانب الجنسي من العنف فقد تبين في دراسة عن الاغتصاب، نشرت في مجلة ‹التايم› العدد (5 أيلول/ سبتمبر 1983 م)، ومن خلال بحث بين مرتكبي جرائم الاغتصاب أن الجنس ليس وحده ما يحرك المغتصب، بل «الاغتصاب هو التعبير الجنسي عن العدوانية»، وتبين أن معظم هؤلاء المغتصبين ينظرون إلى الفعل الجنسي ليس فقط على أنه مفرج عن الكبت؛ بل على أنه يحط من قدر الطرف الآخر. وهم بهذا نتاج لثقافة تؤكد على هذا الرأي. ومن ثم فإن المغتصب يستخدم الجنس كسلاح للحط من

قدر المرأة (أو قومها)، أو كما يقول أحدهم: «الطريقة الوحيدة التي تجعلني أحس بأنني أفضل منها هي أن أجعلها تحس هي بأنها أسوأ مني».

وقد نشرت الصحف قصة ذلك الشاب الجزائري الذي كان يبحث عن أصله، بعد أن تربى في ميتم، ثم يكتشف أن الجنود الفرنسيين قد اعتقلوا أمه وهي صبية صغيرة. وبعد التحقيق معها وتعذيبها للكشف عن مواقع الثوار، التي لم تكن تعرفها، بدؤوا باغتصابها. وظلت فترة طويلة من الزمن مرمية في براكة والجنود يتناوبون اغتصابها يوميًا بالعشرات، ثم فوجئوا بأنها قد حملت، و لم يستطيعوا إجهاضها فأبقيت عندهم إلى أن ولدت، حيث انتزع الطفل منها ووضع في ميتم، وطردوا الفتاة التي أصيبت بالجنون.

وعند مناقشة هذه القصة في أحد الصفوف، التي كنت أعلمها مادة الكتابة المسرحية، وصلنا إلى سؤال: إذا كان الاغتصاب تعبيرًا عن رغبة جنسية، أو رغبة في الإذلال أو نوعًا من التعذيب لانتزاع المعلومات، فكيف نفسر قدرة شاب من هؤلاء الجنود على ممارسة ذلك الفعل مع امرأة هي شبه جثة، وقد سبقه إليها في الوقت ذاته عشرات غيره؟، وما الذي كان فيها يثير غرائزه؟، وكيف استثيرت هذه الغرائز حتى استطاع ممارسة الجنس؟.

هذا كله لا يفعله الحيوان طبعًا، ولكننا لا نجد إلا التعابير المشتقة من كلمة "وحش" و "حيوان" لوصف هذه الحالات "الإنسانية".

ويورد كتاب «التاريخ الطبيعي للاغتصاب» تأليف روندي ثورنهيل و كريغ ت. بالمير نظريتين عن الاغتصاب:

1) **الميل الطبيعي للإنجاب فالمغتصب برأيهما على تماس فعلي مع "رجل الكهف الكامن في الأعماق" فكل جنس مرتبط بعنف، وحتى القذف عمل عنفي. وما هو طبيعي ليس جميلاً دومًا. ولذلك على النساء أن لا يرتدين ما يثير الرجل، ولكن الاغتصاب في البوسنة مثلاً حدث لآلاف النساء، ولم يكنّ يرتدين ملابس فاضحة.**

2) **ليس الاغتصاب فعلاً جنسيًا أو متعلقًا بالجنس، بل هو مرتبط بالعنف والسيطرة، فهو دومًا يتضمن العنف أو التهديد به وإلا فهو ليس اغتصابًا، وهناك العنف المطلوب للإخضاع والعنف السادي.**

ويمكن أن نضيف سببًا دينيًا قدمته لنا الحرب العراقية الإيرانية، إذ اغتصب الجنود الإيرانيون آلاف العذراوات "لكي لا يدخلن الجنة"، فهم يعتقدون أن الفتاة إذا ماتت وهي عذراء تذهب إلى الجنة فورًا.

وإذا نظرنا إلى الجانب الأفضل من الإنسان وتاريخه نستطيع أن نستنتج أن تاريخ "تطور" البشرية هو تاريخ محاولات الإنسان للابتعاد عن هذا الوحش الكامن في أعماقه، أو عدم السماح له بالنمو على أمل التوصل إلى التخلص منه نهائيًا. وهذا الوحش الذي صار قابعًا في الأعماق مشكلة أساسية من المشكلات التي حاول رجال الفكر والأدب معالجتها، والتي حاولت الأديان ترويضها بالدعوة إلى التسامح والمحبة والإخاء.

وسنكتفي بالقول الآن إنه قد تولد في أعماق الإنسان، بفعل هذه الأحوال كلها، "شيء"؛ أو أن هذا الإنسان لم يستطع، وبسبب هذه الأوضاع ذاتها، التخلص نهائيًا من "ذلك الشيء" الذي كان فيه، والذي سنقبل الآن بتسميته "الوحش".

في أقدم الملاحم التي عرفتها البشرية،ملحمة جلجامش، تقوم أرورو، إلهة الخلق، بخلق أنكيدو: «كان جسده خشنًا.. وكان شعره طويلاً كشعر المرأة، يتطاير كشعر نيسابا إلهة القمح، وكان جسده مغطى بشعر ملبد مثل ساموقان، إله القطعان. **كان بريئًا من البشرية**، ولم يكن يعرف شيئًا عن الأرض المزروعة، كان أنكيدو يأكل العشب في التلال مع الغزلان، ويتدافع (ويتزاحم) مع وحوش البرية على موارد المياه».

هذا هو أنكيدو الوحش، ويراه صياد فيحكي عنه لأبيه، ويقول الأب إن على الصياد أن يجلب امرأة ليضعها في طريق أنكيدو: «دع قوة أنوثتها تقهر

هـــذا الـــرجل، فإذا هبط ثانية ليشرب من الآبار سوف يحتضنها (يعانقها)، وعندئذ تنبذه الحيوانات البرية».

ويذهـــب الصـــياد إلى أوروك، ويروي لجلجامش قصة أنكيدو، فيقترح جـــلجامش الاقـــتراح ذاته، بوضع المرأة في طريق أنكيدو،«سيحتضنها عند مورد المياه، وإذ ذاك سوف تنبذه الحيوانات البرية».

ويعـــود الصـــياد بالمـــرأة، ويوصيها: «علّمي ذلك الرجل المتوحش فن أنوثـــتك، حتى إذا انجذب إليك نبذته الوحوش البرية التي شاركته حياته في التلال».

وتـــنفذ المـــرأة الوصية، ويبقى "المتوحش" معها "ستة أيام وسبع ليال".. ولكـــنه حين شبع رجع إلى الوحوش البرية، «عندئذ انطلقت الغزلان هاربة حالما رأته، وفرت المخلوقات البرية عندما رأته».

بالمـــرأة، أي بالحب والجنس، أو بالحياة الاجتماعية والعاطفية في صيغتها الأولى، يتحول أنكيدو المتوحش إلى إنسان.

«مزقت ثوبها نصفين، بنصف كسته، وبالنصف الآخر اكتست... هكذا أكل حتى امتلأ، وشرب الخمرة القوية، شرب سبعة كؤوس، عندئذ ابتهج، طـــرب قلـــبه، ولمـــع وجهه، فرك الشعر المجعد على جسده، وضمخ نفسه بالزيت، أصبح أنكيدو إنسانًا».

أين راح الحيوان-الوحش؟، هل فَنِي؟، أم اختبأ في الأعماق؟.

لنســـتمع إلى كازانتزاكيس وهو يصف تجربته في هذا الميدان كما وردت في سيرته الذاتية ‹تقرير إلى غريكو› التي قمت بترجمتها.

يقول: «كلما توغلت أكثر في بحثي عن أول سلف رهيب في أعماقي، وأنا أتغلغـــل في ركام روحي، قهرني رعب قدسي، ما إن أتعمق نحو الجذور حتى يـــبرز بين جنبي سلف كثيف الشعر كبير الفكين، يجوع ويظمأ ويخور، وعيناه مليئـــتان بالدم، هذا السلف هو الوحش الضخم الأشعث الذي أعطي لي لكي

أحوله إلى إنسان، ولكي أرفعه إلى ما يسمو على الإنسان إن استطعت في الوقت المخصص لي - ويقصد عمره - فأي صعود مخيف من قرد إلى إنسان، ومن إنسان إلى إله !».

ويضيف في مكان آخر ليقرر مسؤولية الإنسان في هذا الميدان وفي ضرورة عدم التسليم بفكرة أن هناك قوى غير مرئية تصنعنا: «الكون كله يتبع هذا الأسلوب وهو لا يدري، وكل كائن حي مشغل يقوم فيه الإله سرًا بعمله وتحويله للطين. والآن للمرة الأولى منذ أن خُلق العالم تمكن الإنسان من دخول المشغل الإلهي والعمل إلى جانب الله. وكلما استطاع أن يحول اللحم إلى حب وبسالة وحرية أصبح بحق ابنًا لله».

ولكن هل يستطيع؟.

يبدو أن الأمر ليس سهلاً، بل إن هذه المحاولة تبدو مستحيلة من وجهة نظر بعض المفكرين، ولنستمع إلى كازانتزاكيس مرة أخرى:

كان عقلي يلفه دوار غريب، تعثرت كسكران، وبدا لي، وأنا أمشي، كأني أمشي على القمر أو أنني، قبل مجيء الإنسان، موجود على أرض مغرقة في القدم وغير مأهولة - ولكنها مألوفة جدًا. وبغتة وعند أحد المنعطفات تحت أضواء خافتة تشع بشحوب من بعيد قرب قاع المسيل، لابد أنها قرية صغيرة ما يزال أهلها مستيقظين، عندها حدث لي شيء غريب ما أزال أرتعد حين أتذكره.

توقفت وأشرت بقبضتي المشدودة إلى القرية وصرخت غاضبًا: سأذبحكم جميعًا!.

صوت أجش ليس صوتي!.

بدأ جسدي كله يرتعش خوفًا حالما سمعت هذا الصوت، وركض صديقي إلي وقبض على ذراعي بقلق، سألني: ما بك؟ ومن ستذبح؟، تراخت ركبتاي وأحسست بتعب لا يوصف، ولكنني استعدت وعيي حين رأيت صديقي أمامي. ليس أنا، لم يكن أنا، كان شخصًا آخر، قلت له هامسًا.

كـــان فعلاً شخصًا آخر، ولكن من؟، لم يسبق لأعضائي الحيوية أن تفتحت بهذا العمق وهذا الكشف. فمنذ تلك الليلة صرت متأكدًا مما تكهنـــت بـــه منذ سنوات: في أعماقنا طبقة فوق طبقة من الظلمة: أصوات خشنة ووحوش جائعة كثيفة الشعر.

ألا يمـــوت أي شيء إذًا؟. ألا يستطيع شيء أن يموت في هذا العالم؟. الجـــوع والعطش والبلاء البدائي وكل الليالي والأقمار، ما قبل مجيء الإنسان ستستمر في الحياة والجوع في أعماقنا، ستظمأ معنا طالما نحن نعـــيش، لقد جعلني الرعب وأنا أسمع الحَمَل المخيف الذي أحمله في أعماقي، وقد ابتدأ يجأر، ألن أتخلص أبدًا؟ ألن تنظف أعماقي أبدًا؟.

وولـــيام غولدينغ، الذي أخذ جائزة نوبل لعام (1983 م)، يطلق حكمه النهائي على الإنسان في هذا الشأن، فهو في رواية «الورثة» يحّمل إرث إنسان الكهف (نصف الوحش – نصف الإنسان)، وفي رواية «ملك الذباب» يقرر أنـــه حتى لو أخذنا أطفالاً وعزلناهم عن مجتمعاتنا لسبب من الأسباب لكي نـــبعدهم عـــن تأثيرنـــا السيئ فإنهم سيعيدون سيرة الإنسان الوحشية ذاتها وسيرتكبون من الجرائم الشنيعة ما ارتكب.

ولنـــتذكر أن المخيلة البشرية والرؤية الدينية استطاعتا أن تقدما أكثر من صـــورة رهيبة ومخيفة للعذاب في جهنم، ولكنهما لم تقدما صورًا مغرية عن سعادة الجنة.

ولكننا، نحن الذين لا معرفة لدينا بالمكان «الذي لم يعد من وراء حدوده أحـــد»، كمـــا يصف هملت عالم ما بعد الموت، ليس لدينا من دليل عما سيجري هناك إلا من خلال ما جاء في القرآن الكريم.

وإذا كـــان الله ســـبحانه وتعـــالى، في القرآن الكريم، يريد أن يثير مخيلة الإنسان لكي يغريه بالثواب ويخيفه من العقاب، فإن تنشيط هذه المخيلة كان أقوى عند تصوير المخاوف مما هو عند تصوير المغريات. فالجنة حور وولدان وأنهـــار خمـــر وعسل وفراش وثير وزينة من المعادن الثمينة. ﴿والذين آمنوا

وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾.

بينما يتم تخيل التعذيب بالنار على أنه الحد الأقصى من العذاب، ولذلك كـــان اسم جهنم النار، ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارًا، كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب﴾.

ولعل الصورة المشتركة الواردة في سورة الحج تتيح المقارنة على نحو أفضل بين تخيل العذاب وتخيل النعيم: ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ۞ يصهر ما في بطونهم والجلود ۞ولهم فيها مقامع مـــن حديد ۞كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحـــريق ۞إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا ولباسهم فيها حرير﴾.

ولكن الإنسان يسعى بالقوانين والأخلاق والفلسفات والأديان والفنون لأن يخلـــق بيئات طبيعية واجتماعية وسياسية وأخلاقية لا تلائم هذا الوحش ولا تســـاعده عـــلى البقاء بأمل الوصول به إلى الانقراض، أي أن الإنسان يهرب من الوحش الذي اختبأ في داخله. وإن جانبًا هامًا من تطوير الأدوات هـــو ســـعي نحـــو تقليل اعتماد الإنسان على قواه العضلية، في المواصلات والتخاطب والعمل والنظر وجني المحاصيل... إلخ، وذلك من أجل إبعاده عن جســـده بحيث لا تظل قيمته مرتبطة بجسده وعضلاته كالحيوان (بينما هناك إصرار "تاريخي" على تكريس قيمة المرأة في جسدها)، ومن أجل توفير رقيه بصرف اهتمامه إلى موضوعات أخرى. (ولنتذكر هنا السعي الصوفي القديم لقهر الجسد).

ومصـــيبة الإنسان القاتلة في هذا المجال هي أن البشر ليسوا أسرة واحدة، ولا يســـتفيدون جميعًا من الإنجازات على مستوى واحد. إن توفير حاجات الـــرفاه والابـــتعاد عن الجهد العضلي واستنباط متع جديدة (غير حسية) في

الأدب والموسيقى والفنون الأخرى، وتربية النشء الجديد تربية حضارية تساعد، كلها على الابتعاد عن الوحش وعلى تقليص دوره تدريجيًا حتى إفنائه.

ولكن بالمقابل حين يقوم هذا الإنسان، ذاته، بفرض حياة أقرب إلى حياة الحيوان على بشر آخرين، وبمعاملتهم معاملة الحيوان فإنه يعمل على الإبقاء على الحيوان في أعماقهم (وبالتدقيق في أعماقه هو أيضًا) بل وتغذيته وتنميته وخلق الشروط الملائمة له كي يستفحل، وحين تبدر منهم بوادر احتجاج "حيوانية" لا بد من استنفار حيوانه هو لقمع الحيوان الآخر. ومن المنطقي أن تتولد لدى المقموع قناعة مفادها أن هذه الوحشية التي يعامَل بها لا يمكن الرد عليها إلا بوحشية مشابهة أو أشد ضراوة. ومن ثم تخسر البشرية دومًا محاولتها للتطور. وفي المثال الذي أوردناه في ما سبق عن المجتمع الإسرائيلي واعتماده على العنف ما يؤكد هذه المقولة.

العذر الذي يختبئ خلفه الإنسان الأول، الحضاري، هو أن "الحيوان" الآخر مسخر لخدمته فقط وأنه ليس حيوانًا مؤذيًا، وحتى حين تكون تنمية هذا الحيوان في أحد جوانبها باتجاه العنف والدم.

ما نسميه، نحن، بالوحشية يسميه إيريك فروم "العدوانية" أو "السلوك العدواني".

وهو يقسم العنف إلى ثلاثة أنواع: عنف للدفاع عن النفس، وعنف لإكمال جريمة أخرى (كالسرقة أو الاغتصاب)، وعنف للاستمتاع بالعنف، وهذا الأخير هو العنف المرَضي الذي نحن بصدده.

ويقسم فرويد الغرائز إلى غريزتين: غريزة البقاء وغريزة الموت، ولكن نظرة فروم في هذا المجال أوسع، فهو يرى أن الإنسان قد تميز بحساسية تجعله ينفر من الرتابة في الحياة، ولا يقبل التحول إلى آلة للأكل والتكاثر. «إن لديه عواطف وانفعالات، وهو يريد لها أن تظل يقظة»، وهذه الانفعالات

والعواطف هي جوهر اهتمام الإنسان في الحياة، وهي ليست مادة أحلام الإنسان فقط، بل هي أيضًا مادة الدين والفن والشعر والأسطورة والدراما.

والإنسان لا يطالب بالغذاء الجسدي فقط، بل يطالب أيضًا بالغذاء العقلي والنفسي، وهو يريد أن يتأكد من كونه مؤثرًا وفعالاً، وهذا ما يميز بعض سلوكياته عن سلوكيات الحيوانات، وفي كل مرحلة من مراحل تطور الإنسان تكفيه مؤثرات معينة، كما يجد ميادين محددة لإثبات تأثيره وفاعليته.

فالرجل الأمي الجاهل المشبع بالمفاهيم المَرَضية عن الرجولة يمارس الجنس بطريقة تقنع الآخرين، وشريكته المرأة كما يتوهم، برجولته وفحولته حسب القيم السائدة بينهم عن الرجولة والفحولة، وهو ينظر إلى المرأة على أنها وسيلة لإشباع رغباته، وليست شريكًا له في هذه الرغبات، بل إن إهانة المرأة تكمن في التذكير بوظيفتها الجنسية أو دورها الجنسي. وإذا ما انتبهنا إلى شتائمنا البذيئة نجد أنها في معظمها تنطلق من المفهوم ذاته المنطوي على الرغبة في تحقير المرأة عبر الفعل الجنسي معها، أو عبر الذّكر المجرد لأعضائها.

ومن هذه العقلية تنطلق توجهات تعويضية أو انتقامية مرتبطة بالجنس، فالمرأة هي شرف الرجل. ومن ثم فإن الانتقام منه قد يكون بالتعرض لأخته أو أمه أو زوجته تعرضًا فعليًا أو كلاميًا، وقد يتراح هذا التعويض إلى الأحلام، الأحلام الفعلية أو أحلام اليقظة. وقد أشار فرانز فانون إلى هذا الموضوع بالقول إن المسحوق قد يبحث عن تعويض عن حقده على ظالميه بالحلم بممارسة الجنس مع امرأة تخصه، وفي هذه الحالات كلها تعتبر المرأة طرفًا مفعولاً فيه (أو به أو معه) لا دور له ولا رغبة ولا فعل.

وفي أوساط أكثر رقيًا وتطورًا يمارس الرجل الجنس بطريقة ترضي شريكته. والراحة التي يمنحها لشريكته تجعله يحس بالارتياح "لرجولته وفحولته" أيضًا؛ إما لأنه كان فحلاً استطاع أن يثير الشريكة، وإما لأنه،

وهـــذا أكـــثر رقـــيًا، كان ودودًا وإنسانيًا وغير أناني بحيث أنه استمتع مع شريكته في تلك اللحظة.

فالاتصـــال الجنسي مشاركة وليس فعلاً من طرف نحو طرف آخر، أو خدمة، بالسخرة أحيانًا أو بالمال أو بالقمع، يقدمها طرف لطرف آخر.

وهذا يعني أن الإنسان لم يعد يكتفي بالفعل الجنسي ذاته. بل إنه يبحث (وكان يبحث) عن شيء مواكب للجنس يعطيه قيمة أو يزيد قيمته في كل حالة من هذه الحالات.

وهذا يعني أيضًا أن الإنسان لا يكتفي بأنه يحيا. بل إنه يريد لمسة تضاف إلى الحياة. فالطفل يسعى لأن يكون محط إعجاب أو مثار اهتمام، والعاشق يسعى إلى النظرة أو الابتسامة، وفي الجنس يريد الاستجابة الجنسية للشريك، وفي الحديث يريد اهتمام المستمع.

ويكبر السعي لهذه اللمسة حتى يصبح سعيًا للإثارة، يريد الإنسان أن ينبه جملته العصبية كلها من خلال حدث يخرج به عن رتابة الحياة العادية، ومن أجل تحقيق ذلك هناك من يسعى للاستمتاع بإبداع الفنون والاختراعات، أو يسعى للاستمتاع بالقراءة عنها أو متابعة أخبارها سمعيًا وبصريًا، ولكن هناك مـــن يبحث عن هذه الإثارة في كرة القدم أو المباريات العنيفة كالملاكمة أو المصارعة، أو في ممارسات أخرى تقوده إلى الاستمتاع كبث الذعر في حياة الناس أو الاستمتاع "بالهيبة" الناجمة من التخويف أو في رؤية مشاهد كهذه، وفي ســياق مرَضـــي يصل إلى ممارسة القتل أو الاستمتاع بمشاهدته. (ومن المؤكـــد أن التوجه العام للإثارة في الخبر والفيلم كما هما في المادة الإعلامية والفنية السائدة يريد أن يصنع إنسانًا، لا يستمتع بذلك فقط، بل ولا يستمتع إلا بذلك).

وباختصار، يقول فروم، إن الإنسان يبحث عن الدراما والإثارة في الحياة، وحـــين لا يحقق الاكتفاء بهما من مستويات سامية فإنه يخلقهما لنفسه من

خلال دراما التدمير، وبهذه الدراما يحقق الإثارة لنفسه، ويحققها للآخرين الذين يستمتعون بمراقبتها أو المشاركة فيها.

وهذا الرأي ينسجم مع حوارية وردت في ‹جوستين، بلية الفضيلة، جولييت، نعمة الرذيلة› للمركيز دو ساد، فبعد أن ترى جولييت صنوفًا من وحشية أحدهم تكتشف أنه، إضافة إلى ذلك كله، هو الذي قتل أسرتها. فتقول له:

- **أيها الوحش. إنك تجعلني أرتعد، ولكنني مع ذلك أحبك.**
تحبينني أنا؟ قاتل أسرتك؟.
- **ولم لا؟ إنني أحكم على كل أمر من خلال الإحساس الذي يثيره فيَّ. إن مراقبة ضحاياك وهي تتألم لم تثرني، ولكن سماعي لك وأنت تعترف بأنك قاتل يثير أعظم المشاعر في نفسي.**

أليس عجيبًا أن يلتقي هذا الرأي مع رأي الشاعر عبد اللطيف اللعبي، الذي تعرض إلى تجربة في السجن وسجلها؟

يقول اللعبي: «عرف تاريخ البشرية عشرات الملايين من الناس الذين دخلوا السجن وعشرات الآلاف منهم الذين كتبوا ارتساماتهم عن هذه التجربة، لكن هذا كله لم يكن كافيًا لإطفاء عطش الإنسانية، ولم يقلص من الاهتمام البالغ والمستمر الذي يثيره موضوع الأَسر، ذلك أن الإنسان، منذ أقدم العصور، تعود على اعتبار الموت والجنون والسجن من أشد المظاهر هولاً، إننا نهوى ما يرعبنا وننجذب له».

وقد جاء في كتاب ‹تاريخ الشيطان› لوليام وودز،من ترجمتي: «وفي كل مرحلة من مراحل التاريخ كان الرجل الشرير يجذب النساء أكثر بكثير مما يجذبهن الرجل الطيب، والفسق كان أكثر غواية من الفضيلة، والمجرم الموشك على تنفيذ الإعدام به أقدر على استجلاب أكبر قدر من العروض من الصبايا».

لم يتحدث إلا القلة عن ارتباط التعذيب بالمتعة أو بالجنس، والذين تحدثوا توقفوا عند الظواهر المرضية المتمثلة بالسادية والمازوشية.

السادي يعذب غيره لكي يتهيج جنسيًا، والمازوشي يعرض نفسه للتعذيب، أو يمارسه على نفسه، لكي يصل إلى هذا التهيج، ولكن هناك تهيجًا آخر يتم بمشاهدة التعذيب.

سأقتطف فقرتين من كتاب «التعذيب عبر العصور» تاركًا التعليق عليهما للقارئ.

يقول الكاتب: «ومن المؤكد أن هناك دليلاً واضحًا لإثبات أن الجماهير التي تنظر إلى مشاهد سفك الدماء كثيرًا ما يثور فيها تشهي الدم الذي يؤدي في النهاية إلى عربدات جنسية عفوية، وكان هذا حدثًا شائعًا في الحلبة الرومانية».

وفي مكان آخر يقول وهو يصف حرق إنسان: ويقول الدوق دوريشلو في مذكراته إن رائحة اللحم المشوي كانت شديدة حتى «ملأت جو المحكمة كله» وأثير الجمهور بالعرض الوحشي الذي يجري أمامهم، إلى درجة أنه في الوقت الذي كان فيه بعضهم يتساءلون إلى متى سيصمد هذا التعيس البائس، كان آخرون قد انتشوا إلى درجة أنهم بدأوا يتضاجعون على الأرصفة.

ولقد ورد وصف تفصيلي دقيق لما كان يجري بين الناس بقلم جاك كازانوفا الذي كان يرى المشهد الشنيع من مركبته. كان قد جاء إلى بلاس دوغريف بصحبة رجل آخر وثلاث سيدات. وبما أن الإعدام ذاته كان أكثر دموية من أن يحتمله، فقد صرف كازانوفا اهتمامه كله لمراقبة الذين كانوا مأخوذين بما يجري إلى درجة أنهم نسوا وجوده تمامًا، إلا أنه كان منتبهًا جدًا لهم. ركز رفيق كازانوفا نفسه في وضع ملائم ورفع ثوب إحدى السيدات متظاهرًا بأنه يريد أن يتحاشى الدوس عليه، ثم وبتماديه إلى ما هو أكثر من الحرص العادي تابع الرجل تصرفاته وكأنه في خلوة غرفة النوم، ولأن

كازانوفا كان يدرك تمامًا ما يقوم به صديقه فقد حول عينيه عنه، ويقول بأنه «خـــلال ساعتين كاملتين بعدها كنت أسمع حفيفًا متواصلاً، ولاستمتاعي بالدعابة ظللت محتفظًا بهدوئي طوال الوقت».

/6/

ولادة الوحش ... بين الجلاد والضحية

سنستفيد في هذا الفصل ما أمكننا من التجارب المباشرة والموثقة، وسنعتمد على نحو خاص على التجارب التي سجلها أدباء ومفكرون عن تجاربهم الشخصية أو من خلال رصدهم للتجربة الاجتماعية والسياسية في الحياة من حولهم.

إن لدينا شهادة هامة يقدمها الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي الذي قضى في السجن ثماني سنوات، وسنقتطف هنا ما يقوله عن السجن في تقديمه لديوان ‹قصائد تحت الكمّامة›. يقول:

بدءاً بمعمارية الفضاء السجني، الموقع الجغرافي لقلاع النفي، الأسوار، الزنازين، الإضاءة، التهوية، الألوان، ومرورًا بكل الإجراءات التي تستهدف تجريد الأسير من هويته وقطع صِلاته بالعالم الخارجي

وحـــركة التغـــيير وقـــواه، ونسف الأرضية التي تنبني على أساسها علاقاتـــه الإنسانية، وصولاً إلى تقسيم الزمان إلى وحدات ميكانيكية لا تسمح إلا لقضاء الحاجيات التي تضمن استمرار الوظيفة الحيوية، أكل، نوم، فسحة قصيرة، نظافة، وزيارات متباعدة ومحروسة بإتقان، فـــإن الـــنظام السجني يعمل على تخريب مقومات الرغبة في العيش والعـــزيمة والفعـــل. إن مجمـــوع هذه الإجراءات تستهدف خلخلة وتعطـــيل كل حواس وقدرات "النزيل". إنها، مثلاً، بإحداثها للزمن الدائري تحاول إلغاء إمكانية، بل حتى فكرة، الانتقال والتطور. ومن ثم إمكانـــية المقارنة والتحليل... والهدف من ذلك هو إرجاع النزيل إلى طـــور الطفولـــة والعقلية البشرية، ما قبل المنطق، حيث الغرائز والمصـــالح المباشرة تطغى على المشاعر الاجتماعية والقيم التي تسمح بالتصعيد وتوظيف الطاقات الحيوية في خدمة أهداف تتجاوز الذات.

وعـــن السجن يقول يوسف إدريس في ‹مسحوق الهمس›: «من قال إن السـجن هـــو، فقط، مصادرة حرية الإنسان؟ إن فقدان الحرية ليس سوى الإحســـاس الســـطحي الأول، فالإنســـان يظل يفقد أشياء كثيرة جدًا (في السـجن)،كل ما يملكه أو باستطاعته امتلاكه، كل قدراته ومكتسباته، كل صـــلاته وقـــراباته وأحلامه وطموحه، كل ما ينفرد به كشخص، وكل ما يتســاوى بـــه مع المجموع؛ كلها، بعد معارك استماتة طاحنة، لا يلبث أن يجدها، رغمًا عنه وأمام ناظريه وبقوة الحبس والعزل القاهرة، تتسرب واحدة وراء الأخـــرى وهو لا يملك لها ردًا ولا منعًا.. ثم يصحو الإنسان ذات يوم وهو يحس بالراحة الكبرى وقد انتهت الأزمة ومات الأمل تمامًا وحل اليأس الكامل، حينذاك فقط تبدأ حياة السجن الحقيقية،حياة أخرى مختلفة عن حياة الناس، حياة لا أساس لها ولا غد، وإنما طولها يوم واحد هو، بالتحديد، ذلك اليوم الذي تحياه.. إن مد فترة الذهاب إلى دورة المياه من عشر دقائق إلى ربع ساعة تعادل في الفرحة بها قرارًا يصدر بمنحه إجازة ثلاثة أشهر يقضيها على حساب المصلحة في أجمل مصايف أوربا.. بعدما تنتهي من إعادة تذكر كل قصـــص الحب والعلاقات بالنساء في حياتك وتجترها مرارًا، بعدما ترتوي ما

شئت من أحلام يقظتك ومن تصورك لكل ما استحال عليك بلوغه ممكنًا.. بعدما تستميت دفاعًا عن كنوز ذكرياتك، تلك، ضد العدو الأوحد، السجن وعمله في النفوس، تبدأ تحس بأنها، رغم استماتتك، تتسرب من قبضتك المطبقة عليها وتتركك وقد بدأت تنسى أنك رجل، إذ قد تلاشى من وعيك كل ما كان يذكرك برجولتك..».

ولكن يوسف إدريس يكتب أدبًا، فلنستمع إلى شهادة حقيقية كتبها سجين فعلي عن تجربته الحقيقية. ولنسمه (ر. ح.):

أنت في السجن تفقد خصوصيتك، فرديتك تضمحل، تصبح همًا وعصبيًا، ليست اللوائح النظامية الدائمة ما تحدد حقوقك وواجباتك، بل أنت خاضع خضوعًا مطلقًا لمزاج وأهواء، ليس مدير السجن وحسب، بل لمزاج أصغر عنصر أمن من حراس جناحنا أو قسمنا، في مختلف السجون التي تنقلنا فيها. معظم ضباط الأمن كانوا يقولون لنا: 'حقوق؟، عن أية حقوق تتحدثون؟، "بسخرية وهزء" ليس لكم حقوق، رغبتنا فقط، وما نريده نحن هو الحق الوحيد'. حتى أن أحد الزملاء اغتاظ يومًا وقال: 'إذا كان لا يوجد لنا حقوق لماذا تكون علينا واجبات؟ حتى قوانين الأنظمة للسجون تتكلم عن حقوق السجين، وأنتم لا تتقيدون بشيء'، صرخ الضابط في وجهه: 'هذا القانون الذي تتحدث عنه أصبح في قفاي وحذائي'.

.. التعبئة المنظمة من قبل مسؤولي الجهاز الأمني للعناصر كانت تجعلهم في بعض الأحيان شرسين جدًا ولؤماء في التعامل معنا كسجناء سياسيين، بعضهم بسبب انتمائهم لمناطق معينة، أو لمذهب معين، والبعض الآخر خوفًا من السلطة والعقاب. كأن يفتعل العقاب لسجين ما ليثبت ولاءه للجهاز الذي يعمل فيه.

.. سرت إشاعات لعدة أسابيع حول إفراجات محتملة، ثم تمر الأيام الموعودة المحملة بالأمل من دون حصول أية إفراجات، تشعر حينها أن ثقلاً ما يحوم في أجواء السجن. إن كلام السجناء مع بعضهم يتضاءل وشرودهم وذهولهم قد كبر. وأصبحوا يتصادمون صدامات صغيرة لأتفه الأسباب وأحقرها، إن قدرة الناس على الاحتمال

مختلفة ومخاوفهم مختلفة وشروطهم مختلفة، لذلك تولّد ضغوط السجن الطويل أحياناً ظواهر مدمرة مثل هوس الريبة والشك، وحدثت حالات كثيرة من الفصام الشخصية، كما تولّد أمراض بسيطة قابلة للعلاج مع الزمن، مثل تركيز سجين لوساوسه ومشاعره المكبوتة ومخاوفه على شخص آخر، غالبًا ما يكون أحد زملائه في غرفته، ونادرًا ما يكون أحد السجانين، فيبدأ الإحساس بمشاعر الكراهية نحوه وبانتقاده سرًا وعلنًا وتحميله كل الرذائل والآفات الممكنة... وأعتقد أنها نوع من التفريغ لطاقة العدوان المتولدة عن القهر والكبت.

وحين سمح للسجناء بقراءة الصحف الرسمية ومراجعة الطبيب «كانت فرحتنا عظيمة بذلك، كدنا ننسى أننا آدميون، وأن من حقنا الطبيعي أن نحصل على أكثر بكثير من هذه الأشياء الصغيرة، أن نحصل على حريتنا وأن نسترد كرامتنا بالاعتراف بحقوقنا كبشر».

عندما يسحق الإنسان إلى درجة حرمانه من أشيائه الصغيرة والعادية في حياته اليومية، عندما يوضع في أمكنة لا تنتمي إليها روح الإنسان ويجرد من كل شيء حتى من اسمه ويتحول إلى رقم، في ما بعد يشعر لحظة استعادته لأبسط الأشياء أن الأقدار عادت لتبتسم له وتدب في خلاياه دماء الحياة.

العديد من الزملاء الذين تعرضوا للضغط والضرب والإذلال والشتيمة خلال فترة السجن كانوا يصابون بأعراض كابوسية أثناء نومهم، وبعضهم كان يستيقظ هلعًا وهو يصرخ وينفجر بالبكاء وتستولي عليه نوبة من الهستيريا لعدة دقائق فيصاب بتشنج وتصلب في جسده، ويبدأ جسده بالاهتزاز كأن تيارًا كهربائيًا قويًا يسري فيه.

هذه هي صورة السجن وتأثيره في الإنسان من حيث هو سجن فقط، ولكننا نعرف جيدًا أن السجن ليس احتجازًا فقط، ومن ثم فإن تأثيره، مع هذه الصورة المفزعة، ليس وقفًا على تقليص الذكريات أو العلاقة بالزمن وما إلى ذلك.

هنـاك التعذيب والإذلال في السجون، وموضوعنا يبدأ من هنا، ومن دون أن يتناسى التأثيرات التي ذكرها ببراعة كل من اللعبي وإدريس والشاهد الآخر.

والمسألة التي نكتب من أجلها هي تلك العلاقة الغريبة بين كل من الجلاد والضـحية، وعلاقـة كل منهما بنفسه، وأحدهما بالآخر وأحدهما بالوضع الخاص (النظام)، وأحدهما بالحياة كلها وبالنظام القمعي كله.

وحـتى لو بدا تكرارًا لابد هنا من العودة إلى الفقرة التي أوردها يوسف إدريس عن التعذيب والتي أوردناها في البداية:

أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حرًا أن ترده، أنت تشعر به هناك حين يكون عليك فقط أن تتلقاه، ولا حرية لك ولا قدرة لديك على رده. هـناك تجرب الإحساس الحقيقي بالضرب، بألم الضرب.... لا مجـرد الألم الموضـعي للضربة... إنما بألم الإهانة. حين تحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة أخرى إلى كيانك كله، إلى إحساسك وكرامتك، ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك مـن الداخـل... الضـرب، ذلك النوع من الضرب، حين يتحول المضـروب إلى أنقـاض إنسان مذعورة، أنقاض تتألم، وبوعي تحس نفسـها وهي تتقوض إلى أسفل، وبإرادتها الخائفة تمنع نفسها من أن تـرد، ويتحول فيها الضارب إلى أنقاض إنسان من نوع آخر، وكأنه إنسـان يـتهدم إلى أعـلى، يسعده الألم الذي يحدثه في ابن جنسه، ويستمتع بإرادة، وبإرادة أيضًا يقتل الاستجابة البشرية للألم في نفسه فلا يكف إلا ببلوغ ضحيته أبشع درجات التهدم والتقوض وبلوغه هو أخس مراحل النشوة المجرمة.

هذا هو ما نحن بصدده.

ولنبدأ بوصف الجلاد.

الجلاد

يقـول تومـاس ديزانتي في فصل منشور في مجلة «الفكر العربي المعاصر، العـدد 27 — 28»: «لم يسـبق لي أن التقيت إنسانًا تقوم مهنته على تنفيذ

حكم الموت بإنسان ما وفق القواعد المتبعة وباسم القانون، لم ألتق مثل هذا الجلاد بلحمه وعظمه، لكنني رأيت صورة، رأيت واحدًا منهم بوجه خاص، وكانت الصورة موجودة في ‹مطول علم النفس› القديم لجورج دوما في الفصل الذي يتحدث عن الألم، وهي تمثل العقوبة، الصينية حسب العادة، المسماة «القطعات المائة». والقصة معروفة جيدًا، فهناك شاب قام بعملية اغتيال ضد أسرة الإمبراطور، ويقضي القانون بأن يتم إحراقه حيًا على نار هادئة. غير أن الإمبراطور كان، في لحظة حلم، قد اتخذ قرارًا: «لما كانت عقوبة النار شديدة العذاب فإن على المحكوم أن يخضع لعقوبة القطعات المائة. والمجد لهذا القرار».

وينطوي مطول دوما على مجموعة من الصور تمثل كل واحدة منها طورًا في العقاب. ولا يمكننا، في مثل هذه القضية، أن نتجاهل الجلاد، إذ إننا نتميزه جيدًا في منتصف العقوبة: وجهًا لوجه، منحنيًا قليلاً، وهو يقوم بنشر الساق بين القدم والركبة، ولا نرى على وجهه أي أثر للقسوة، وإنما نرى ملامح الانتباه ونوعًا من الرفق، ملامح إنسان يقوم بعمل الخبير كما يجب القيام به»».

«وهكذا فربما كان الشاب قد **ارتكب العنف** بغضب، غير أن كل شيء يعود الآن إلى وضعه الطبيعي من دون اضطراب ولا غضب، كما أن وجه الجلاد يحمل علامة هذا الانفراج، لقد كان جلادًا طيبًا وماهرًا ورؤوفًا. كان يقطع هذا الجسد الحي بمهارة ورحمة، "رحمة"، هو ذا اسم خنجر كان يستخدم قديمًا في ذبح بعض الجرحى».

من غضب المتمرد إلى عطف الجلاد: نهايتان تحدان مكانًا ما، نوعًا من منصة مسرح، وعلى هذه المنصة يتم تمثيل مسرحية بدأت منذ وقت طويل، ولا أحد يعرف نهايتها، وهي تحولات العنف.

يهدف التعذيب دومًا، سيان كان يريد الانتقام أم انتزاع الاعتراف والمعلومات أم العقوبة، إلى تغيير في هوية المعذَّب من متمرد إلى خاضع على

الأقـــل. والـــنموذج الأوضـــح هو جلد كونتا كونتي لقبول اسمه الجديد في «الجذور» ثم بتر قدمه لكي لا يفكر في الهرب من حالة العبودية والاسترقاق التي يحياها.

ولكـــن التعذيب، بالتدريج، يتسبب في حدوث تغييرات في المعذِّب ذاته إضافة إلى التغييرات التي تحدث للمعذَّب، فقد كان القضاء على الخصم يتم بالقتل، ولكن من خلال التعذيب، ومن خلال التخويف، بمعنى تحذير الناس من أن يفعلوا ما يعرضهم للتعذيب، يتم قتل الخصم، والآخرين، من الداخل من دون قتله، أو قتلهم، جسديًا.

فالـــبعد الاجتماعي للتعذيب هو "العبرة". إن المسألة تبدأ بفرض الإرادة وممارســـة السلطة على المعذِّب م على الآخرين من خلاله، ومن أجل ذلك كانـــت مشاهد التعذيب تتم أمام جمهور. يجب أن يصبح المعذب »عبرة لمن يعتـــبر«. أي أن المطلوب هو إرهاب الناس كلهم وإجبارهم على أن يقوموا بأنفســـهم باخـــتزال حياتهم ونواياهم وتطلعاتهم غير المرغوب فيها، لكي لا يواجهوا المصير ذاته. ولقد جاء في كتاب ‹تاريخ الشيطان› ما يلي:

> **قـــد يكـــون إغراق أضحية عملاً فعالاً، ولكن ليس المطلوب إرضاء الله وحـــده، بل لابد من أن يرضى الجمهور أيضًا. وبالطريقة ذاتها يجب أن يتم إعدام المذنبين في احتفال علني ملائم... وحين توقفنا عن الإعدامات العلنية كان من الممكن التنبؤ بأننا سنتوقف عن الإعدام كله.**

العلنـــية، والتي تهدف إلى الدرس- العبرة إذًا، هي المقصودة من العقوبة ولـــيس فقط الانتقام من الضحية ذاتها. ولتأكيد هذه العبرة يتم إعلان سبب التعذيب من قبل الجلاد ذاته أو العلماء أو أي طرف آخر يمثل السلطة (ربما وســـائل الإعـــلام). فنســـيمي الشاعر الحروفي، مثلاً، هو سيد عماد الدين نســـيمي الذي أعدم في حلب عام (1418 م) بسبب اتهامه بالزندقة، يواجه العقوبـــة، وهي السلخ حيًا، أمام جمهور حاشد، وفي الوقت الذي يقف فيه مجموعـــة من العلماء لتفنيد آرائه ومجادلته. «كانت براعة الجلاد عالية تمامًا

بحيث إن نسيمي لم يمت أثناء تنفيذ عملةالسلخ. ولذلك أطلق "حيًا" وهو يحمل جلده على كتفه. وظل يسير وينزف....». ومن أجل هذه العبرة كان المصلوبون (ثم المشنوقون) يعلقون في أمكنة واضحة لكي يراها العامة.

وفي رواية ‹جسر على الدرينا› لإيفو أندريتش مشهد من أفظع مشاهد التعذيب في الأدب، إذ يتم القبض على الفلاح راديسلاف بتهمة التخريب لمنع قيام الجسر، وبعد تعذيبه يؤخذ ليوضع على الخازوق فوق الجسر. ولننوه قبل القراءة إلى أن الخوزقة لا تعني إدخال الخازوق في مؤخرة الضحية، لأن هذا يعني دخوله إلى الجهاز الهضمي والأحشاء الأخرى وتمزيقها، وهذا يعني الموت، بل يتم إدخال الخازوق بين العظم والجلد فوق العصعص، ثم يتم دفعه تدريجيًا فوق العمود الفقري إلى أن يخرج من الكتف أو القذال.

خفض راديسلاف رأسه بينما تقدم الغجر منه ونزعوا عنه قميصه فبانت الحروق واللحم المهترئ على صدره... ربط الغجر يديه خلف ظهره، ثم ربطوا كل رجل من رجليه بحبل شده كل إلى صوبه، في هذا الوقت كان مرجان قد وضع الخازوق على قطعتين من الخشب... ثم بدأ يضرب الخازوق ضربات بطيئة محكمة، وبين الضربة والأخرى يتوقف قليلاً ليتفحص الجسد الذي يخترقه رأس الخازوق المحدد، ثم ينادي على مساعديه كي لا يشدوا بقوة رجلي المحكوم فيموت بسرعة...

وساد على الضفتين صمت رهيب بحيث كان بالإمكان سماع كل ضربة بل وحتى صداها المخنوق، واستطاع أولئك الذين كانوا أقرب إلى المنصة أن يسمعوا فلاحًا يضرب جبينه بالخشب، وأكثر من ذلك استطاعوا أن يسمعوا صوتًا غريبًا آخر ليس تأوهًا أو نحيبًا ولا حتى غرغرة الموت، صوتًا يعجز أي تعبير إنساني عن ترجمته. (وسنذكّر بهذا الصوت الغريب حين نعود إلى العسكري الأسود عند يوسف إدريس). هذا الجسد المعذب كله كان يصيء ويطقطق كحجر يتحطم ويداس، أو كشجرة تهشم ... وبعد كل ضربة كان الغجري يتقدم من الجسد المشوه وينحني فوقه متفحصًا ليرى إذا كان

الخازوق يتقدم في الاتجاه الصحيح، وحين كان يتأكد أنه لم يجرح ولم يـؤذ أي عضـو أساس مميت يعود إلى مكانه ويتابع عمله. هذا كله كـان يُسمع بضعف ولا يُرى بوضوح، إلا أن أرجل الحضور كانت ترتجف ووجوههم تصفر والدماء تتجمد في أيديهم.

... في تلـك الليلة نام سكان المنطقة والرعب يحوم فوق رؤوسهم، والأصح القول إن الرعب خيم على أولئك الذين ناموا، إذ إن عددًا كـبيرًا مـنهم لم يغمض لهم جفن... لكن الكابوس امتد إلى اليقظة وسـيطر بـين العمـال صمت الأمس نفسه، صمت مليء بالمرارة والندم... وصعد مرجان في الصباح إلى المنصة... ومن الطريقة التي نـزل بها استطاع المجتمعون هناك أن يفهموا أن الفلاح قد مات، فـأحس الجميع بانفراج كأنهم قد ربحوا معركة غير منظورة، وأخذوا الآن يـتطلعون بجرأة إلى الجسد المعلق شاعرين أن الميزان يميل الآن صـوبهم في المعـركة التي يخوضونها ضد الأتراك، فالموت أكبر رأس مال، وهو الآن ملكهم.

بـراعة إيفـو أندريتش، التي تبدو براعة باردة محايدة مثل براعة الجلاد، تسـاعدنا على فهم جوانب عديدة من مسألة التعذيب. فالمشاهدون يتألمون معنويًا من رؤية مشهد التعذيب، يتألمون نفسيًا ووجدانيًا مثلما يتألم الضحية جسـديًا، يـتألمون و "يعتبرون"، إن رؤية العملية التعذيبية بتفاصيلها درس واضح: إياكم أن تصلوا إلى هذا المصير أو أن تفعلوا ما يجعلكم تواجهونه.

ويمكـن الحكم على مشاعر المشاهد من خلال تضخيم مشاعر القارئ وتقززه من قراءة الوصيف فقط.

إن اختناق الناس لوجود الرجل المعلق على الخازوق هو تشبث بالكرامة الإنسانية، فمشهد الألم المستمر إذلال إنساني، أما الموت فهو الراحة له، ومن ثم لهم. الموت إذًا يساعدهم على اصطفاء بطلهم. وهو الذي يساويهم بالبطل فالـناس كلهم متساوون أمام الموت ومعرضون له بالمقدار ذاته، ولكن الألم والـتوجع يظهران ضعف الإنسان من جهة، ويمنحان الخصم فرصة للتشفي

وللتمـــتع بانتصاره وتفوقه من جهة أخرى. إن تعذيب الضحية فصل أخير وحقـــير مـــن فصول المواجهة بين الخصمين حيث يتحكم الطرف الأقوى بالوضـــع. ويستعرض أمام الآخرين، الذين قد يكونون أعداء أو أصدقاء أو رعـــية محـــايدة، ما يستطيع أن يفعله حين يتحكم: «لا تظنوا أنه يمكن أن تأخذني بأحد شفقة».

الذين يفرضون التعذيب يريدون أن يحققوا ما هو أكثر من ذلك، يريدون أن يوصلوا الضحية إلى أقصى حالات الضعف والألم ومن ثم التذلل، وحين يفشـــلون يخيب أملهم، وهذا الفشل إما أن ينجم عن الضربة القاتلة الخاطئة الـــتي يضربها الجلاد (ولنتذكر حرص مرجان على التأكد من أن الفلاح لم يمـــت)؛ وإما أن ينجم عن قرار الضحية واختياره للموت.. الموت بلا توجع وتذلـــل. ولعل "الطريف" في مسألة التعذيب، إن كان في هذا الأمر ما يمكن وصـــفه بالطرافة، هو أن من أصول لعبة التعذيب أن يتقن الجلاد عمله فلا يتسبب في موت الضحية، الموت الداخلي هو المطلوب وليس الموت الخارجي والجسدي.

ونعـــود إلى الشهادة الموثقة: «وكان يلازم في غرفة التعذيب تلك طبيب متخصـــص كما يبدو، سرعان ما اقترب مني فجس نبضي وطلب منهم أن يُترلوني، و لم يلبث أن حقنني بإبرة..».

وفي مرة أخرى مماثلة وبعد أن كاد التعذيب يقتلني بحق حضر الطبيب ثانـــية إلى زنزانتي فنظف لي جروحي المتقيحة، وقدم لي كأس حليب لأســـتمر عـــلى قـــيد الحـــياة، وأجدد قدرتي على تلقي المزيد من التعذيب.. ومضى !.

هـــناك حـــرص على ألا يموت السجين، ليس فقط خوفًا من المسؤولية، فكـــثيرًا ما يتم التواطؤ لإخفاء الجريمة إن حدثت بطرق متعددة، نذكر منها تذويـــب الجثة بالأسيد ونكران وجود السجين أصلاً، عدا عن الإشاعة بأنه انتحر أو قتل في محاولة للهروب.

المطلــوب هو الإذلال حتى الدرجة القصوى، وإيصال السجين إلى حالة مزرية خالية من الكبرياء والقيمة والاحترام.

ونحن نعرف أن المنتحر في طقوس الهاراكيري اليابانية يصطحب معه أعز أصــدقائه، وبعــد أن يقوم المنتحر بفعلته، الانتحار، يتقدم الصديق بسيفه ويقطــع رأســه بضربة واحدة، والسبب هو عدم تعريض المنتحر لسكرات المــوت الأخــيرة التي قد تظهره في حالة مزرية، ولأن سكرات الموت مذلة ومضنية فإنه حتى المحكوم بالإعدام إذا لم يمت بعد إطلاق النار عليه يأتي من يــريحه مــن عذابــه ويطلق عليه الرصاصة الأخيرة التي اتفق على تسميتها "رصاصة الرحمة".

وكتابات جاك لندن كلها حافلة بهذا الاختيار الحر للموت، وأفضل مثال متعلق بموضوعنا هو قصة ‹الوجه المفقود›. فسوينكو، الواقع في الأسر، يكرر لنفسه: «ليست هناك فرصة للنجاة». وبعد رؤيته للتعذيب الذي تعرض له زملاؤه «لم يكن خائفًا من الموت... لكنه اعترض على التعذيب، لقد آذى التعذيــب روحــه، وهــذه الأذية، بدورها، لم تكن ناجمة عن الألم الذي سيقاسيه؛ بل عن المنظر البائس الذي سيضفيه الألم عليه، أدرك أنه سيتوسل ويتضــرع كمــا فعل حتى إيفان العظيم والآخرون الذين مروا من قبل، لن يكــون هذا حسنًا، أن تموت شجاعًا نظيفًا بابتسامة فرح، آه تلك ستكون الطــريقة، أما أن يفقد السيطرة، أن تشوِّشَ الروحَ آلامُ الجسد، أن يزعق ألمًا ويهذي كقرد، أن يصبح الحيوان ذاته – آه ذلك كان مخيفًا ».

وأمــام مــا يراه سوينكو من عذاب زملائه يلجأ إلى حيلة: يوحي لــ "ماكاموك" أن لديه طريقة لصنع دواء من الأعشاب يجعل الجلد أقسى من أن يقطعــه السـيف، ويُســمح له بصنع ذلك الدواء العجيب، ثم يقرر أنهم يســتطيعون تجربــته فــيه، يدهن الدواء على رقبته ويتمدد طالبًا أن يجربوا ويضــربوه عــلى عنقه ببلطة حادة، وفعلوا. ولكن ما إن هوت البلطة حتى

فصل الرأس. «كانت هناك حيرة كبيرة وصمت، في حين أخذ يتضح في أذهانهم أن لاوجود لأي دواء، لقد تفوق عليهم لص الفراء بدهائه، وحده بين سجنائهم من نجا من التعذيب ... وأحنى ماكاموك رأسه مخزيًا، لقد خدعه لص الفراء».

الخديعة هنا هي اختيار الموت، ولابد من أن لدى كل منا أمثلة عن اختيار الموت لتجنب التعذيب أو حياة الذل، وخير مثال على ذلك القصة المعروفة عن محاولة شكري القوتلي الانتحار حين كان سجينًا في خان أسعد باشا في دمشق أيام حكم جمال باشا السفاح (آخر حاكم عثماني لسورية وبلاد الشام)، وذلك بعد أن رأى التعذيب الذي تعرض له زملاؤه من المناضلين، وجهاء الشام والعرب، في السجن، لقد قرر الانتحار لكي لا يذلوه بالتعذيب.

وقبل أن نبتعد كثيرًا عن إيفو أندريتش والمثال المأخوذ منه لا بد من إيراد مقطع صغير آخر عن قائد الحرس الذي كان يشرف على تنفيذ عملية الخازوق.

> **ووقف القائد حائرًا وقد فرغت الضفة فجاءة... الآن فقط تذكر تهديد أبيداجا له بالخازوق إذا لم ينجح في إلقاء القبض على المخرب... عند هذه الفكرة شعر بشيء يلدغه في صدره ورجليه وذراعيه ويدفعه للحياة والقفز والكلام كي يثبت لنفسه وللآخرين أنه مازال حيًا...ونظر الجنود إلى قائدهم يفتح ذراعيه راقصًا مغنيًا ضاحكًا حتى الاختناق، بينما علا زبد أبيض شفتيه وحول فمه، حتى جواده المرقش راح يتطلع إليه بفزع.**

رد الفعل الإنساني الفظيع هذا، لدى الجلاد والمتفرجين، أشد خطورة من المشهد ذاته، بل هو الغاية من تنفيذه أمام الناس، القائد كان مهددًا بالخازوق، والآن عرف ما هو الخازوق، وعرف ما هو الشيء الذي نجا منه، وما هو الشيء الذي سيظل طوال حياته يتجنب الوصول إليه.

وإذا كـــان هـــذا أثر المشهد في فريق الجلادين فكيف سيكون أثره على الناس؟، مرة أخرى هذا هو المطلوب، " و اعتبروا يا أولي الألباب".

إن تـــاريخ النضـــال البشري يقدم نماذج عديدة تثير الاعتزاز لصمودها وقوتها الروحية، ولكن تاريخ الإنسان المقموع مختلف تمامًا.

تاريخ الإنسان المقموع، وهو الغالبية العظمى من البشر، هو تاريخ الإنسان المتحول إلى شيء آخر غير الإنسان. هو تاريخ تشويه الإنسان وتزويره.

في قصة ‹الرجل والنملة› ليوسف إدريس رجل حريص على كرامته، ابن ريـــف معتقل وصامد أمام التعذيب، لا يعترف بشيء لأن صموده جزء من رجولـــته التي تعني لابن الريف هذا إنسانيته كلها، وفي المعتقل بضعة أطفال تكشف الشفقة التي يحسها الفلاح عليهم جانبًا آخر من جوانب إنسانيته.

ذات يـــوم يطلب الجلاد منه أن يذهب إلى أقرب صخرة مجاورة حيث يوجد نمل لكي يجلب له نملة، وبعد أن يفعل الريفي ذلك ويعود يأمره الجلاد أن يضـــاجع النملة، ويرد الريفي، بحس النكتة الذي لديه، على عدم معقولية الأمـــر، بأن النملة التي لديه ذكر، فيأمره الجلاد أن يذهب للبحث عن نملة أنـــثى، ويفعل، فيأمره مجددًا بمضاجعة النملة الأنثى، وأمام التهديد بتعذيب الأطفـــال إن هو لم يفعل كما يأمره الجلاد، وأمام صرخات الأطفال الفزعة ونظـــراتهم المذعورة الراجية، يكشف الريفي عن عورته أمام الجميع ويتظاهر بأنه يقوم بعملية المضاجعة غير المعقولة.

بمـــاذا يحس من يسمع أصوات التعذيب؟ وما الذي أراد هذا الرجل أن يتجنبه؟

نعود إلى ما كتبه (ر. ح.):

.. المرعب والشيء الذي يضغط على أعصابك ويجعل كل حواسك ومخـــاوفك وهواجسك المتبقية والمترسبة في أعماقك تستيقظ مجددًا.. حـــتى إنـــك تلهث أحيانًا لدرجة الشعور بالاختناق وتشعر بالغيظ

> والقهر.. عندما تتناهى إلى مسامعنا خاصة في ساعات الليل أصوات التعذيب في غرفة التحقيق، أصوات العصي والكابلات وهي ترتطم باللحم الآدمي.. تتلوها صرخات وحشية، شيء ما يتحطم في داخلك، أحيانًا كثيرة كنت لا أستطيع احتمال وتيرة الصوت المشحون بالألم والعذاب فأرتجف وتنهمر دموعي قهرًا وذلاً... وأكثر ما كان يشقّ علي أن تكون المعذبة امرأة، كنا جميعًا نصمت عدة ساعات، ننظر في وجوه بعضنا صامتين، وأحيانًا نتحاشى النظر إلى وجوه بعضنا، فكل منا يريد أن يجنب صاحبه في تلك اللحظة إحراج قراءة الألم والخوف وتعابير الذل والقهر المرتسمة على وجهه.

يقول بطل قصة يوسف إدريس: «أنا فعلاً رجل ضخم، وهذه نملة، وبكل كياني كان علي أن أصغر نفسي وأستحيل من إنسان إلى حشرة، إلى نملة، إلى ذكر نمل تستثيرني أنثاي النملة». ثم «وأنا وسط هذا العذاب، في منتصف المسافة بين كوني رجلاً وكوني ذكر نمل انكسرت إرادتي، و لم أعد أحتمل، وقلت كل ما عندي بأمل أن يتوقف أمر يونس بحري (الجلاد) وأن يكف العذاب (عن الأولاد). ومع الاعتراف لم يوقف (الجلاد) الأمر (بمضاجعة النملة). وحتى لو كان أوقفه فأنا نفسي كنت غير قادر لحظتها أن أوقف عذاب التحول. إرادة أن أكون بشرًا أفلتت مني وصارت لدي إرادة نملة لا تقوى على الكتمان».

الأثر الساحق الذي تحدثه هذه العملية هو أن هذا الرجل الشهم يحس بأن فيه شيئًا قد تقلص وصغر وتحول إلى نملة، شيء في شخصيته الداخلية العميقة قد مسخ، حتى إنه استمتع بمضاجعة النملة، لم يعد الرجل الشهم في الأعماق، حلت محله النملة، والنملة مخلوق تافه لا علاقة له بالإنسان ولا كرامة له ولا كبرياء ولا قدرة على المقاومة، ولذلك فإن الرجل – النملة (الرجل الذي أصبح نملة) ينهار ويعترف.

/7/

القامع والمقموع

لقد استعرضنا حتى الآن نماذج عديدة من الأدبيات التي عالجت موضوعة التشوه الذي يصيب الإنسان بفعل القمع والتعذيب، ولكن أفضل عمل يمكن الوقوف عنده بشأن مسألة التحولات التشويهية هذه هو «العسكري الأسود» ليوسف إدريس.

فبطل إيفو أدريتش، في «جسر على الدرينا»، مع قسوة مشهد الخازوق، يتعرض لتعذيب عقابي يقصد منه في النهاية قتله، «بعد أن يكون قد تحول إلى عبرة». وقد رأينا أنه صار عبرة للفلاحين بقدر ما صار عبرة للجلادين أنفسهم، ولكن التعذيب في «العسكري الأسود» يهدف إلى أغراض أخرى ويحققها، إنه ليس تعذيبًا بهدف القتل، ولا حتى بقصد العبرة، فهو لا يحدث

أمام الآخرين، الآخرون يرون النتائج وحدها، إنه تعذيب لانتزاع الاعتراف، ثم لكسر النفس من الداخل، ثم لمتعة الجلاد نفسه.

في القصة بطلان: شوقي وعباس، والراوي هو الذي يروي قصتهما، شوقي طالب طب، زعيم طلابي، شاب متألق ومتحمس يحمّل نفسه مسؤوليات وطنية وسياسية كبيرة، وهو القدوة الدراسية والأخلاقية لزملائه.

يُعتقل شوقي ذات يوم، وبعد فترة من التعذيب في السجن على يدي عباس يخرج، و«كان أول ما لاحظته أن نظرته اكتسبت طابعًا آخر لم يكن لها... ذلك البريق كان قد اختفى وكأنما اجتث من جذوره، ولم يبق لعينيه حتى اللمعة التي تميز عيني كل كائن حي... ثم بدأت أعي أن صوت شوقي نفسه قد تغير، فأصبح لا يتحدث إلا همسًا... كمن يتوقع دومًا أن ترفض طلبه، ثم هاتان النظارتان... أقصد تلك التي تركب للخيل كي لا ترى إلا في اتجاه واحد...».

لا أستطيع إلا أن أورد هنا مقطعًا لأليس ووكر من روايتها «امتلاك سر المتعة» عن فتاة صغيرة (تاشي) تعرضت لعملية ختان قسرية: «كان مما يقطع القلب أن يروا، عند عودتهم، كم صارت تاشي سريعة التأثر، لم تعد مرحة أو عفوية، وحركاتها، التي كانت دومًا هيّة وسريعة على نحو ينسجم مع حيوية شخصيتها، صارت الآن وقورة فقط، بطيئة، مدروسة، وينطبق هذا حتى على ابتساماتها التي لم تكن تمنحك إياها قبل التفكير أولاً، وصار من الواضح لكل من كان يجرؤ على النظر إلى عينيها أن روحها قد تعرضت لضربة قاتلة».

بعد هذا نتابع مع يوسف إدريس: «شوقي لم يتغير فقط، ولكنه أصبح بالتأكيد إنسانًا آخر... كم من مرة ضبطته وهو يتآمر مؤامرات صغيرة في القسم... كثيرًا ما سمعته ينافق النائب... ويكذب، يكذب باستمرار، وبلا سبب. وبطريقة ساذجة مكشوفة تدفع للاشمئزاز، حتى أُطلقت حكمة تقول: إذا حياك شوقي باليمين فتحسس محفظتك باليسار».

الطـــرف الثاني هو الجلاد عباس «العسكري الأسود»، شاب قوي ابن ريـــف، مـــثار اعـــتزاز قريـــته وأقـــرانه وعائلته وابنة عمه التي تزوجها، «يكتشفونه»، فيعينه الباشا جلادًا، ولكي يرضي الباشا أتقن الضرب، وأتقن اضطهاد الناس في الحياة العامة (خارج دائرة العمل الوظيفي).

نقف أولاً عند الضرب:

> **كـــان عمـــل عباس محمود الزنغلي أن يضربهم، يضرب بعضهم لكي يعـــترف – وآخـــرين لمجرد الضرب وهدّ الكيان... الضرب بمختلف أشـــكال الضرب: بالعصي، بالكرابيج، بالحذاء، بالنبوت، باليد العارية المجردة... وحين يضرب كان من يراه لا يظن أبدًا أنه يمتُّ إلى الإنسان أو الحـــيوان بصـــلة، بل ولا حتى إلى الآلة. فالآلة لا تبدو على وجهها المـــتعة المتوحشة وهي تضرب... وكانوا يقولون إنه حين يضرب يفقد وعـــيه وصوابه، ويصبح كالسكران أو المجنون، وإلى درجة لم يكونوا يجـــرؤون عـــلى تركه وحيدًا مع الضحايا، فيلازمه في عملية الضرب رقيـــبان، عمـــلهما التدخل في الوقت المناسب لانتزاع المتهم حتى لا يفـــتك بـــه عباس، وكانوا لا يستطيعون استخلاصه إلا بصعوبة وإلا رغمًا عن أنف عباس، وأحيانًا بالتكاثر عليه وشل حركته وتكتيفه.**

هنا لا بأس من إيراد شهادة من كتاب «العسف» الذي كتب عن الثورة الجزائرية، إنها شهادة واقعية عن أحد الجلادين: «كانوا يطلقونه على السجين ثم يرصدون اللحظة التي يصل فيها هيجانه إلى الحالة النفسية للقاتل ليوقفوه، فهو آلة لطحن البشر تعمل تحت الرقابة»، وفي مكان آخر من الكتاب ذاته: «رجـــل شرير لا يرفض عملاً، جاء مباشرة من عصور ما قبل التاريخ، لا تنقصـــه إلا اللحية الشعراء وجلد الحيوان والدبوس الذي تحدثت عنه كتب التاريخ، إنه يصرخ ويسخر ويبصق ولا يتكلم، إنه ينبح».

ونعـــود إلى «العسكري الأسود»: شوقي يصبح طبيبًا، وعباس يسرح من عمله بعد أن أصبح مدمنًا عليه، فيتقوض مركزه، ويُحدث لديه هذا التقوض انهيارًا عصبيًا ونفسيًا.

ويكلّف شوقي نفسه بالذهاب لمعاينة عباس في بيته من دون أن يعرفه طبعًا، فيذهب مع الراوي ومساعد آخر، وقبل رؤية عباس المريض تحكي زوجته قصتها معه، فنعرف ماهية الطينة التي استلمتها الحكومة القمعية لتفعل منها ما رأيناه وما سنراه بعد قليل.

كان من الممكن لعباس، لو أنه ظل في الأرض، أن يكون بطل إنتاج، أو أن يكون فلاحًا طليعيًا، فهو قوي ومحبوب، وهو دؤوب على عمله ومحب لهذا العمل، ولكنه لا يستمر في القرية، بل يأتي إلى المدينة حيث «يكتشفونه»، فيعين في عمله هذا، ويبدأ تحوله وتغيره، وبغتة، وبينما الزوجة تتكلم...

«... فوجئنا بشيء روعنا حقًا، بلغ رعبي حدًا كاد يدفعني لترك المكان والجري بكل قواي، ما فوجئنا به كان صرخة، أو هكذا ظننا أول مرة، ولكنها لم تلبث أن طالت وتغير نوعها، وتحولت إلى ما يشبه العواء». ويدخل الجميع إليه، ويعرفه شوقي، هذا جلاده، وتلوح أمامه بادرة للتشفي والانتقام النفسي، فيصرخ مذكرًا إياه بما كان يفعله بالناس وبه، شوقي، تحديدًا. ثم يعري شوقي جسده ليعرضه بتشوهاته الرهيبة، التي ورثها من السجن ومن تعذيب عباس نفسه، وهو يتقدم باتجاه عباس، وعباس يتراجع صامتًا مذعورًا.

لاشك أن يوسف إدريس يقدم لحظة حلم اليقظة التي يحلم بها أي ضحية مع جلاده: أن يكون الضحية في موقع القوة والمعافاة، والجلاد في موقع الضعف الذي يتيح إطلاعه على ما اقترفته يداه.

«وروعت لما حدث، للطريقة التي كان شوقي يصرخ بها، للصوت العالي المزعج، للهدير، للصراخ، وكيف ظل يعلو، وللكلمات المفهومة وقد بدأت تصبح غير مفهومة أو متبينة: ثم كيف، لعلوها، بدأت تفقد شكل الكلمات ويصبح ما يصدر عنه آخر الأمر مجرد خيط متصل طويل مكون من أشياء لا

نـدري إن كانت حقدًا أو أنينًا أو تألمًا أو بكاء. وكيف بدأ خيطها يلتوي ويستحيل إلى شيء يشبه العواء، بل إلى عواء حقيقي، عواء مرتجف مستغيث لا يستطيع الكائن الحي أن يطلقه إلا وهو يعاني أقصى وأحدّ درجات الألم، والألم الذي لا يتحمله بشر». وعباس ما زال يتراجع ويتكور ويتقلص «... ولم يكـف شوقي عن تقدمه وعوائه إلا حين، فجأة، فتحت الكرة البشرية الملتصقة بالحائط، والتي لم يعد لها مجال للتراجع، فتحت فمها وأطلقت ذلك العـواء المزعج الذي أخافنا ونحن في الصالة، عواء اختلط بعواء شوقي وعلا حـتى أسـكته... عواء مرعب، أول الأمر، يستغيث، ثم باك ثم عال مجنون مـرتفع... ثم... فوجئـنا بـالعواء ينطلق إلى هبهبة الكلب... وأطبق الفم المفـتوح على يد الزوجة القريبة منه وبدأ يلوكها بين أسنانه ويضغط كمن يهم بالتهامها... ولم ينقذها إلا عودة الفم للهبهبة».

ووقفـوا جميعًا يرقبون عباس «وقد بدأ يضرب الفراش ويهبهب ويعوي ويغـرس أظافره وأنيابه في قماش المرتبة ويمزقه ويمضغ القطن ويزداد هياجه ويبدأ يضرب وجهه كمن يلطم، ويعمل أظافره في جلده تجريحًا وتمزيقًا.... وأهوى عباس بفمه على لحم ذراعه النحيل، وظل يضغط وينظر إلينا بعيون ملتهبة تحترق ويضغط ولعابه قد غطى الذراع العارية ومن كثرته بدأ يتساقط ويسيل، وهو لا يكف عن النهش والضغط... ووجدنا وجهه قد ارتفع عن الذراع حقيقة، ولكن الدم كان يتساقط من فمه ويختلط بلعابه، إذ بين أسنان الفم التي كانت قد انفرجت عنها الشفاه كانت هناك قطعة لحم مدماة.... وكـان لا يزال رغم وجود قطعة اللحم بين أسنانه يعوي ويهبهب بصوت مكتوم وكأنه ينزف من صوته، والدم قد بلل عواءه وخنقه...».

حين يقول يوسف إدريس إن الراوي قد انتبه في تلك اللحظة إلى شهادة ثـناء معلقة على جدار البيت، بيت عباس، «تقديرًا لتفانيه في خدمة مصالح الوطن العليا»، فإنه يريد أن ينبهنا إلى المسؤولية الخطيرة التي تتحملها السلطة لـيس فقط تجاه شوقي النموذج الحي الذي تحول إلى انتهازي متملق كذاب

وسارق، ثم إلى حيوان؛ بل وإلى مسؤوليتها الخطيرة أيضًا عن تحويل ابن الريف الطيب القوي الشهم إلى هذا الوحش المروع الذي نراه أمامنا. إن الأوضاع غير الطبيعية التي وضع فيها كل منهما في مواجهة الآخر (وهما اللذان كانا مثقفًا متألقًا وفلاحًا قويًا منتجًا) هي التي أنتجت هذين النمطين من الحيوانات، وهذا ما تعنيه عبارة الجلاد في كتاب ‹العسف›: «قال الجلاد التافه يومًا: لو تعمل معنا شهرًا تصبح متوحشًا مثلنا».

مشهد المواجهة الذي يعوي فيه شوقي ويقابله عباس بالعواء مشهد يثير الأعصاب فعلاً، النظام القمعي هو الذي قدم لنا هذين النوعين من الركام البشري.

هل كان الجلاد يطيع أمرًا صادرًا إليه؟، أم كان يطيع شيئًا آخر موجودًا في أعماقه؟.

إنها الطاعة.

طاعة شيء في داخله هو.

ولكن مع ذلك لابد من دراسة ظاهرة الطاعة هذه، ومسألة تنفيذ الأوامر، دراسة مستفيضة قدر الإمكان. وسيساعدنا في ذلك الدكتور ستانلي ملغرام الذي استشهدنا به وبتجربته في بداية هذه الدراسة.

تتردد كلمة الطاعة كثيرًا في الأدبيات الاجتماعية والدينية والتدريبية. وقد نستطيع المرور ببعض مظاهر الطاعة المطلوبة دينيًا لنجد المفتاح لمسألة الطاعة:

* **طاعة أولي الأمر: وأطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم.**
* **طاعة الابن لأبيه وأمه: ﴿إما يبلغان عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا واخفض لهما جناح الذل من الرحمة. وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا﴾.**
* **طاعة المرأة لزوجها: جاء في سنن ابن ماجد: «حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّاب بْنُ الضَّحَّاكِ حَدَّثَنَا.... قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تُؤْذِي**

امْرَأَةٌ زَوْجَهَا إلا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ لا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللَّهُ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ أَوْشَكَ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا».

وعند أحمد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ... قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ.

* طاعة المريد لسيده في الدين، وطاعة التلميذ لأستاذه في المدرسة: «من علمني حرفًا كنت له عبدًا».

ولكن أوامر الطاعة هذه كلها تتجاهل القول الفصل: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

إن الطاعة تؤدي إلى إلغاء الذات والإرادة وانتظار كل شيء من الآمر، الآمر يأمر وهو المسؤول عن أمره «فالسلطة التي تصدرها مسؤولة عنها»، كما تقول أسس النظام العسكري،

يقول ميشيل فوكو في ‹التهذيب والطاعة›: «الطاغية الغبي قد يضطهد العبيد ويقهرهم مستخدمًا في ذلك السلاسل الحديدية، ولكن السياسي الحقيقي الماهر يستطيع أن يقيدهم بسلاسل أقوى من سلاسل الحديد عن طريق أفكارهم هم أنفسهم، وهو قد يستمد قوته من أننا لا نعرف المادة التي صنع منها».

ونعود مرة أخرى إلى التجربة التي جاءت في فيلم ‹أنا المقصود بإيكاروس / I for Icarus› وفي محاضرة ر. د. لينغ بعنوان ‹الواضح›، وهي المنشورة في كتاب ‹ديالكتيك التحرر› بالإنكليزية. يشرح لنا لينغ التجربة التي قام بها الدكتور ستانلي ملغرام في جامعة ييل الأمريكية. وهي كما يلي:

تستقدم الجامعة متطوعين للتجربة بأجور واضحة ومعلن عنها، وحين يدخل الشخص-"التجربة" يوهَم بأن التجربة هي لدراسة المؤثرات على الذاكرة، وهل العقوبة تساعد على تيقظ الذاكرة وتنشيطها أم لا؟ ومن ثم فإن قرعة تجري بينه وبين شخص آخر حول من سيتذكر ومن سيعاقِب، ولكن

القرعة وهمية، فالورقتان اللتان سيتم الاختيار منهما تحملان الكلمة ذاتها، ومن ثم فالشخص - التجربة سيكون دومًا هو المعاقِب. بينما الشخص الآخر هو من الطاقم الجامعي وسيمثل دور الشخص الذي سيتذكر ويتلقى العقوبة.

يجلس الشخص الذي سيتذكر على كرسي موصول بأسلاك كهربائية تربط بيديه (هي غير موصولة فعليًا. ولكن الذي يجلس سيمثل تلقي الشحنات، والآخر - "التجربة" لا يعرف إلا أنها موصولة وأن الشحنات ترسل إلى جسد الآخر بالفعل، وكل ما يفعله الآخر هو تمثيل وصول الشحنات إليه والتظاهر بالألم)، ويجلس الشخص التجربة أمام جهاز إرسال للشحنات مزود بأزرار، كل زر منها يزيد الشحنة التي سترسل كعقوبة إلى يدي الذي سيتذكر بمقدار (15) فولت.

تقال للشخص الأول مجموعة من الكلمات ومع كل كلمة قرينة لفظية (سماء / زرقاء، خبز / طري، ريح / عاتية... إلخ). ثم تبدأ التجربة، يقول "التجربة" كلمة "سماء" ويجب أن يقول الآخر "زرقاء"، إلى أن يخفق في تذكر الكلمة القرينة، كأن يقال له "ريح" ولا يتذكر كلمة "عاتية"، وهنا يجب أن يقوم التجربة بإرسال شحنة كهربائية إلى جسد الآخر عقوبة، على افتراض أن التجربة هي حول إمكانية تنشيط الذاكرة بالعقوبة، ومع كل غلطة تزيد الشحنة حتى تصل إلى أرقام مخيفة وقاتلة للطرف الآخر (الذي يمثل تلقيها).

ويتبين أن التجربة ليست حول ذاكرة من تطرح عليه الأسئلة، بل هي حول هذا الشخص الذي يطرح الأسئلة ويرسل الشحنات الكهربائية.

والتجربة هي حول السؤال التالي: إلى أي مدى يمكن أن يتمادى إنسان في إيقاع الأذى بإنسان آخر لا يمت له بأية صلة، سلبية أم إيجابية؟ والجواب، حسب هذه التجربة، هي أن (65%) من أبناء المجتمع الأمريكي يصلون إلى أي درجة تفرضها التجربة ولمجرد أنه يتلقى الأوامر بذلك من سلطة يحترمها.

طاعة الأوامر من السلطة التي نخاف أو نحترم أو ننتفع منها، وهذه السلطة هي التي يمكن أن تتحمل المسؤولية عنا أو معنا.

الطاعــة هي المسؤولة إذاً، فالطاعة هي التي تقوم بالتربية المترلية والعائلية والمدرسية والأمنية والسياسية، وهي التي ساعدتنا على ترويض الحيوانات منذ القــدم. وقــد ابــتكرنا، نحن وأسلافنا، ابتكارات مذهلة في مجالي الطاعة والــتطويع. إن الطاعة (أو الإخضاع) اكتشاف مثل الاكتشافات الأخرى، وقد تحولت من سلوك عفوي وتجريبي إلى علم مستقل قائم بذاته، وهي التي ساعدت على تقدم الحضارة، ولكنها في الوقت ذاته هي التي يمكن أن تساهم في تدمير الحضارة أو تدمير إنسانية الإنسان إذا ما أسيء استخدامها مثل أي اختراع توصل إليه البشر أو التقدم العلمي.

أعــني أنــنا بالطاعة نعلّم الأولاد علمًا ونصنع إنسانًا اجتماعيًا ونروض الطبيعة وموجوداتها وحيواناتها لخدمتنا.

ولكــن هذا التقدم واكبه تغيير في النوع والمواصفات، فالحصان المروض غير الحصان الذي كان في البرية، والفيل الذي في السيرك غير الفيل الذي في الغابة، والقرد الذي يسرق الدراجة غير القرد الذي يقفز بين أشجار الغابة، والإنسان المروض غير الإنسان.

عملــية التحويل تمت بفعل الطاعة، بفرضها تدريجيًا عن طريق تدريبات وعقوبــات ومــا إلى ذلك. لقد أسهمت الطاعة في صنع الحضارة، ولكنها غيرت الإنسان.

في «ذئــب السهوب» يقول هيرمن هسّه: «العالم الذي تبحثون عنه هو عــالم أرواحكــم ذاتها» فالشخصيات «هي السجن الذي وضعتم فيه» و «الــروح الذئبية الشيطانية التي تتبقى حتى في نفوسنا المتحضرة هي ضمان الإذعان الاجتماعي».

وهــذا يعني أن الطاعة لم تغير المخلوقات الأخرى لتجعلها تحت سيطرة الإنسان واستخدامه، بل إنها غيرت في الإنسان نفسه. وابتداء بقواعد السلوك والتهذيــب والــبروتوكول إلى الطاعــة في القطعــات العسكرية، إلى تملق

المسؤولين وأولي الأمر؛ هذا كله من مظاهر تغير الإنسان بفعل الطاعة، وهي طاعة أوامر مباشرة أو غير مباشرة، أوامر مرئية أو نتفق عليها.

تهدف عملية الترويض إلى إحداث تغيير في البنية الداخلية لنظام المخلوق بحيث يصبح مطيعًا لأمور غير غرائزه، وبعملية الترويض يتم إدخال تشويشات على نظام رغبات المخلوق، وهذا التحول الداخلي لا يحدث تلقائيًا طبعًا، بل يحدث بفعل القوة القامعة.

وهذه القوة ليست دومًا عنيفة عنفًا ظاهريًا، فتجربة كلب بافلوف هي إثارة ردود أفعال غريزية وحركية عند الطرف الآخر (الكلب) عند حدوث فعل معين.

ولكن هناك قوة أخرى تأتي من طرفين مرتبطين بيد السلطة الأقوى: التخويف والتجويع، فبمنع الطعام وبالضرب والإيلام تتحقق عملية الترويض بمعناها الكامل، يتحقق التغيير في البنية الداخلية، وهو تغيير يتعمق حتى ليبدو وكأنه قد تحول إلى غريزة أو حل محل الغريزة.

وزكريا تامر، الذي لا تكاد تخلو قصة من قصصه من معالجة لجانب من جوانب القمع والتغيير القسري للإنسان، يحكي لنا في قصة «النمور في اليوم العاشر»، عن نمر وضع أمامه التبن ليأكله، ويرفض النمر طبعًا، ثم تمر عشرة أيام من التعذيب والإذلال والتجويع وقلع الأنياب وقص المخالب، وفي اليوم العاشر يتقدم النمر ويأكل تبنًا بعد أن لم يبق فيه شيء من النمر.

ولنأخذ مثالاً آخر عن التحول من حنا مينة: هناك أمير يلقي بجثث من يعاقبهم من فوق السور، فتأتي الذئاب لأكله.

> قال عبعوب:...ونزل الثلج في شتاء قاس حتى غطى الأرض، فأمر الأمير بإغلاق أبواب القصر، وجعل، من فوق الأسوار، يتسلى برؤية الذئاب وهي تزحف وتتعارك وتحاول اقتحام الأبواب... يعمد الحرس إلى تهدئة الذئاب بإلقاء دابة مريضة أو حيوان هرم، فتفتك به وتسكن ثائرتها... فتوقف الأمير عن إلقاء البشر وصار يلقي إلى

> الذئــاب الجيف وفضلات الطعام، وكانت الجيف قليلة ومكروهة، والفضــلات لا تحوي إلا العظام، وهكذا، يومًا بعد يوم، خف ورود الذئــاب وقل زحامها وعواؤها، ولم يبق منها إلا عدد قليل رضي أن يعيش على الجيف والفضلات، واعتاد ذلك، وفقد قوته وجرأته، ولم يعــد قادرًا على العيش في الغابة ولا على منازلة وحوشها، فاستكان إلى كســله وقنع بضعفه، راح ينتظر الفضلات ويعيش عليها، صار يحــرس القصــر فيعوي على الوحوش وينبه الحراس إليها، فلما جاء الصيف وذاب الثلج أقامت هذه الذئاب المدجّنة حول القصر نهائيًا، وصارت كلاب حراسة له.

ولا بد من أن نتذكر هنا بالطبع مسرحية ‹القرد الكثيف الشعر› ليوجين أونيل. إنما تلمس الموضوع ذاته من جانب آخر، فالعامل القوي يانك، الذي يعمل راضيًا في قاع السفينة، يواجه الفتاة الناعمة ملدرد وهو في حالة هياج، فتصرخ الفتاة مذعورة: «خذوه بعيدًا، ذلك الوحش القذر»، ويصدم يانك، ثم يكتشــف أن شــعره كثيف فعلاً، وأن جسمه ضخم وقوي، وأن عقله ضــعيف، وأنه ليس إلا «قردًا كثيف الشعر». ويطالب الشرطي: «تسجنني وتضــعني في قفــص»، ثم يعلق على الفتاة بقوله: «نظرت إلي وكأنما ترى شخصًــا هاربًا من حظيرة الوحوش». ثم يكتشف أنه يعيش حياة الوحوش فعــلاً، وأنه لا يقوم بأي عمل يتطلب منه أن يكون أكثر من طاقة عضلية حيوانية.

ويعلق أونيل على مسرحيته هذه بقوله: «إن القرد الكثيف الشعر إنما هو رمــز للإنسان الذي فقد الشعور **بالانتماء إلى الطبيعة**... هذا الانتماء الذي كــان يتمــيز به قديمًا، والذي لم يستطع أن يكسبه على مستوى روحي.. والموضــوع هــنا هو الموضوع القديم ذاته، الذي كان وسيكون موضوع الدرامــا الوحــيد: الإنســان في صراعه مع قدره... ولقد كان الصراع في الأزمان الماضية مع الآلهة، ولكنه الآن صراع الإنسان مع نفسه، مع ماضيه، مع محاولته للانتماء». فيانك يهرب من اكتشافه بمحاولة الانتماء إلى النقابة،

لكنهم يحتقرونه هناك فيستسلم لمصيره، ويعترف بأنه قرد كثيف الشعر، ثم يذهب إلى حديقة الحيوانات ليطلق سراح الغوريلا، وكأنه يطلق اعترافه بالوحش الذي صار إليه. إن الغوريلا هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يتماهى ويتعاطف معه، ولكن وصولك إلى حالة الغوريلا واعترافك بها يعني أولاً انتهاء الشخص - الإنسان الذي كنته، يعني أنك قد قتلت أو شهدت قتل ما كنت عليه، والمشهد رمزي متميز، إذ أن الغوريلا فور خروجه من القفص يقتل يانك.

وفي مسرحية قصيرة لأزوالدو دراغون بعنوان «الرجل الذي صار كلبًا» عودة إلى أوضاع أكثر واقعية، وإن بمعالجة أكثر رمزية، إلى موضوع التحول الفظيع والمريع الذي يصيب الإنسان بفعل قمع السلطة أو قمع الحاجة.

فالعامل العاطل عن العمل والذي له أصدقاء وزوجة لا يجد عملاً يأكل منه خبزًا، وفي النهاية "يشفق" عليه رب العمل فيعطيه عملاً هو الحراسة بدلاً من كلب الحراسة الذي مات. ويعيش الرجل وينام في كوخ الكلب الذي يضطر إلى النزول على أربع لكي يستطيع الدخول إليه. ونتيجة للأحوال المادية الصعبة تسكن زوجته مع أخريات، ولا يستطيعان الالتقاء إلا في الحدائق العامة، ولكي يتقن الرجل عمله ويرضي أرباب العمل ويحافظ على مورد رزقه يتعلم النباح، ثم يتعلم السير على أربع، وذات يوم يهم بتقبيل زوجته بشغف فتنفر منه مذعورة لأنها **"خشيت أن يعضها"**، وينتهي به الأمر إلى الاعتراف بأنه قد أصبح كلبًا.

وقبل مغادرة هذه النقطة سنحيل الموضوع نحو دائرة النهب الاستعماري، ففي أمريكا اللاتينية يعيش الناس في أحوال معيشية متدنية، وإذا وضعنا في أذهاننا حالة الفقر والجهل والتخلف التي أوصل الاستعمار الناس إليها وأبقاهم فيها، نستطيع أن نفهم، على نحو أفضل، رواية الكاتب البرازيلي جوزيه دو كاسترو «الناس والسراطين». إذ تصور هذه الرواية، التي لها بطل حقيقي واحد هو الجوع، قرية برازيلية على شاطئ البحر، حين يأتي المد

يجـرف البيوت والأطفال والمواشي ويغرقهم، ويهرب من يستطيع الهرب إلى الجبـال، ثم يأتي الجزر، فيخلف على الشاطئ أعدادًا هائلة من السراطين التي كانت قد جاءت لتتغذى على ما سيجرفه المد من جثث، وينزل من تبقى من الأحـياء إلى الشاطئ لالتقاط هذه السراطين وأكلها، ومع الأيام تنشأ علاقة وطـيدة بـين الـناس والسـراطين، ويرى الناس أنهم لا يختلفون كثيرًا عن السراطين، لقد وُجدوا لتأكلهم السراطين، ووُجدت السراطين ليأكلها البشر.

«والإنسان نفسه»، كما يقول جوزيه دوكاسترو في كتابه الهام والخطير الآخر ‹جغرافية الجوع›، فهو خبير تغذية في الأمم المتحدة، «إذا تسلط عليه الجوع التام صار سلوكه من العنف مثل سلوك الحيوان تمامًا... والجوع يهدم الشخصية ويقضي على التجاوب الطبيعي بين الإنسان وجميع مؤثرات البيئة التي لا تمت بصلة إلى إشباع غريزة الأكل. أما العوامل الأخرى التي تصوغ السلوك البشري فلا يبقى لها أثر، وكذلك دوافع المحافظة على الحياة وتحكم العقل تختفي بالتدريج إلى أن ينتهي بانعدام كل حذر وكل وازع من ضمير، وعندئذ يستحيل الإنسان، كما يقرر شبنجلر، أكثر مما يستحيل في أي وقت آخر، إلى حيوان ضار.. ».

هذه هي التغيرات التي تصيب الإنسان بفعل الخوف أو الحاجة أو الجوع، وهـي الـتي تؤمن الطاعة، طاعة الأوامر من السلطة العليا، وهذا ما حاول ملغرام دراسته.

ومجـتمعات القمع هي المجتمعات التي تضع هدفها أنه لا بد من أن يتغير شيء ما في الإنسان لضمان انصياعه التام والدائم.

إن الجلاد مطيع، وهو يفرض الطاعة على الآخرين، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يتمادى هذا الرجل في الإيذاء باسم الواجب؟ أو باسم تنفيذ الأوامر الـتي تصـدر مـن السلطات الأعلى وإطاعتها (العذر الذي تتمترس حوله الحاشية)؟، إلى أي مدى يمكن أن يصل لكي يفرض الطاعة؟.

هذا ما يجيب عنه الدكتور ملغرام في كتابه ‹طاعة السلطة، نظرة تجريبية›.

وقد كتب سي بي سنو أن «الجرائم التي ارتكبت باسم طاعة الأوامر أكثر بكـثير من الجرائم التي ارتكبت باسم التمرد» على الأوامر. وبتأمل الحرب رأى ميـلغرام أن «الشـخص الـذي يأنف في أعماقه من السرقة والقتل والاعـتداء قد يرى نفسه وهو ينفذ هذه الأفعال بشيء من اليسر حين يؤمر بفعلها من قبل سلطة معينة».

هـذا الذي يأنف من فعل معين نتيجة تربيته أو علمه أو إنسانيته يفاجئنا دومًا بأنه «يفعلها».

يفـترض براوننغ أن فينا «نائمًا» في داخلنا، إنه غريزة مستترة يمكن أن تسـتيقظ حـين تتاح لها الأحوال الملائمة، وبراوننغ وميلغرام يتحدثان عن «المصادفة الأخلاقية»... ويتحدثان عن غريزة الطاعة عند الإنسان والحاجة إلى «سلطة تقي بأوامرها ضميرنا الهش وتدافع عنه».

لقد كان يريد أن يرى كيف أن الضمير الفردي يتلاءم مع بنية السلطة، نحن نولد ونتربى في الطاعة، وإلا كيف سيمشي المجتمع؟ وتتحول الطاعة إلى جزء من غرائزنا. فالتأدب والارتباك من العوامل والدلائل الهامة على ترويض أنفسـنا لقـبول النظام العام (للآداب والسلوك والتصرف وما إلى ذلك). والغرق في الجوانب التقنية ينسينا ما الذي نقوم به (فنحن نفكر بضغط الزر أكـثر ممـا نفكـر في ما يفعله الزر)، هكذا نفعل حين نقصف مدنًا آهلة بسـكانها، وحـين نرتكب، أو ننفذ، أو نساعد على تنفيذ مجازر جماعية، وهكـذا نفعـل حين نمارس التعذيب، نغافل أنفسنا بالادعاء أننا لا نتحمل المسـؤولية، نحن نتجنب كوننا أصحاب القرار ونحيل المسؤولية إلى صاحب القرار. «كنت أقوم بعملي فقط، لم أفعل إلا ما طلب مني».

والسـؤال الذي يطرح عادة بعد اقتراف مجزرة: «كيف يحتمل الناس أن يفعلـوا ذلـك أو أن يـروه؟». والجواب هو أنهم يستطيعون احتمال ذلك

بســـهولة، فمـــا أن يختاروا حل الإزاحة إلى السلطة التي تصدر الأوامر حتى يـــزيحوا إليها كل مسؤولية عن كل فعل، يستطيعون أن يقتلوا طفلاً أو عددًا من الأطفال أو يمارسوا التعذيب أو يأمروا به أو يسكتوا عنه أو يسوغوه ثم يذهبوا بهدوء إلى بيوتهم لتناول الشاي.

وبهـــذا نحـــن نجـــرد الضـــحية من القيمة ومن الصفة الإنسانية أو أننا نتجاهـــلهما، إنه الشيء الموجود عند الطرف الآخر من الزر، أو هو الشيء الذي نؤمر بإيذائه كيفما كان الإيذاء «وحين يريد الله إغراق سفينة فإنه لا يهتم كثيرًا لمصير الفئران التي تسللت إليها» كما يقول فولتير في ‹كانديد›، وقد نحس بالشفقة حين نعرف حجم الأذى، ولكن ليس الإحساس بالشفقة دافعًا إنسانيًا حقيقيًا، فقد تدفعك الشفقة إلى العطف على الإنسان أو الحيوان ولكن من دون أن تصبح أكثر لطفًا أو أن تحبه. إننا، بالعكس من ذلك، قد نكـــره ما نشفق عليه لأنه يرينا الضعف الذي لا نريد الاعتراف به، أو لأننا نأنف من مساواته بأنفسنا.

وإنـــنا نحاول أن نكون عند حسن ظن صاحب القرار والمسؤول في رأس ســـلطة القرار، وإن عدم تخييب ظنه يصبح هو في رأس أولوياتنا الأخلاقية، ونســـمح " لموضوع التجربة / المجرب به " أن يأخذ موقفًا غير شخصي (لا تتضـــح إنسانيته من خلاله) بحيث لا نعود نحس بالتعامل معه أننا نتعامل مع شخصه الذي يحمل الصفة الإنسانية التي تجعله يشبهنا.

ثم يقـــول ميلغرام إن هناك أيضًا ذلك الافتراض بأننا نحن في الأصل أناس طيبون وأننا ما كنا لنفعل ما يسيء لولا أننا نُجبَر على ذلك.

وهذه فرضية خاطئة. «فبطريقة شبه دائمة يتصرف أناس طيبون تصرفات قاســـية وعنيفة لم تكن متوقعة منهم، أو لم يكونوا يتوقعونها من أنفسهم»، ولعـــلهم لو سُئلوا في الأحوال العادية عن إمكانية قيامهم بأفعال كتلك التي قاموا بها لأجابوا بالنفي والاستنكار.

ويستنتج أن الظلم «يبقى مستمرًا ويُخلَّد بفضل أولئك الذين لا يملكون الجـرأة لممارسة معتقداتهم»، واعتمادًا على أناس أدخلت هذه المعتقدات في دواخـلهم، فـ "تحولـوا" وصاروا يتصرفون وكأن هذه المعتقدات هي معـتقداتهم، أي أنهم يمارسون معتقدات غيرهم تنفيذًا للأوامر، وبذلك فهم يثبتون كراسي العروش من دون أن يتحملوا مسؤولياتها».

إلا أنـنا سـنكون في منـتهى السذاجة إذا خطر لنا أن من يقومون بالأعمـال الوحشية يهتمون أي اهتمام ببراءة ضحاياهم أو إدانتها، فحين لا يعلنون عن أنفسهم أنهم أدوات الانتقام الإلهي فإنهم يدّعون أنهم منفذو العدالة العمياء، وبمعزل عن السلطة التي يدّعون خدمتها فـإن مـبادئهم غير المرئية تظل على ما هي عليه، وهم قادرون على التبرؤ من الذنب الشخصي لأنهم لم يكونوا أكثر من منفذين للأوامر، وبتـبني هذا الموقف لا يتخلصون من ذنوبهم فقط؛ بل إنهم يخلصون المجتمع أيضًا من ذنوبه.

في كـتاب ‹مذكرات محمد الرايس / تذكرة ذهاب وإياب إلى الجحيم› يقول بعد وصف المجزرة التي وقعت في انقلاب الصخيرات (في المغرب) على الـنحو الـتالي: «ولم أصدق أو أتصور مثل هذه المجزرة في فترة وجيزة من الزمن. وما من شك أن شراسة الإنسان لا تقارن، ذلك لأن الوحوش نفسها لن ترتكب مثل هذه البشاعة، أما توحش الإنسان فلا حدود له»، ثم يقول: «ذهلت للعدد الفظيع من الجثث الممددة أرضًا وبجانبها بعض الجرحى بالكاد يرفعون أياديهم طلبًا للإغاثة. أحسست بالاشمئزاز والغثيان أمام هذا المشهد المرعب... كنت واقفًا وسط الجثث والجرحى المستغيثين، بعضهم كان يئن والـبعض الآخر يتوسل الرحمة من جنود صم فقدوا السمع أو بالأحرى لم يريدوا سماع توسلاتهم».

مـن الـذي فعـل ذلك؟ إنهم المجندون من طلاب الضباط، «لقد كان المجندون يركضون في كل اتجاه وهم يصرخون ويهددون ويشتمون ويلعنون بعـد أن تـاهوا ولم يحـيروا معرفة، ذلك لأن الأوضاع تجاوزت إدراكهم

وقدراهم على التحليل. بعضهم زرع في نفسي الرعب بفعل عدوانيتهم ومواقفهم العدائية. كانوا ينفذون أوامر محمد عبابو الذي استغل المناسبة وشحنهم عنفًا وزادهم استفزازًا».

ويختتم بالقول: «لم أستطع تفسير سلوكهم، فإلى حدود ذلك اليوم كانوا تلامذة مؤدبين هادئين منصاعين وفجأة تحولوا إلى حيوانات بعيون جاحظة وقسمات ابيضت ابيضاضًا مرعبًا وأفواه مزبدة ونظرات تائهة مثل المخدرين».

ونضيف نحن القتل على الهوية في لبنان أيام الحرب الأهلية من قبل طلاب صغار يلبسون ويرقصون ويتحدثون باللكنة الأجنبية حسب آخر موضة "مدنية"، ويقرفون من اللغة العربية ويحتقرون الفلسطيني الجلف والعامل السوري والفلاح اللبناني ابن الجنوب مزارع التبغ، ولكن هؤلاء كانوا يترلون راكبًا من السيارة لأن هويته الدينية ليست مثل هويتهم ثم يطلقون عليه النار بكل هدوء أو بدم بارد كما يقول الإنكليز، والذي فعل ذلك كان مسلمًا أحيانًا، ومسيحيًا أحيانًا أخرى.

لم يحدث ذلك؟.

يعرض ميلغرام تجربة قرية جوزفو المريعة، وهذه هي تفاصيلها: في الساعات الأولى من صباح (13 تموز/ يوليو 1942 م) كانت كتيبة الشرطة الاحتياط الألمانية (101) والمؤلفة من (500) رجل متوسطي الأعمار (أكبر من سن الخدمة في الجيش) وهم أرباب أسر و لم يتلقوا إلا القليل من التدريب. وقد فرزوا الآن إلى بولونيا بقيادة (تراب)، وبصوت أجش وحزين أبلغهم الآمر (تراب) أن مهمتهم التالية هي البحث عن أهالي قرية جوزفو القريبة والبالغ عددهم (1800) شخص وقتلهم جميعًا. وما أثار دهشتهم هو أن تراب قال لهم إنه يعرف كم هي مهمة قاسية عليهم، ولذلك فإن من لا يريد أن ينفذ العملية يستطيع الاعتذار والتنحي جانبًا، ومن دون أن تكون هناك احتمالات للوم أو عقوبة.

من الخمسمائة رجل تنحى جانبًا (12) رجلاً فقط.

ويقدم كتاب ‹رجال عاديون: كتيبة الاحتياط 101 والحل النهائي لبولونيا› لكريستوفر براوننغ وصفًا دقيقًا لتفاصيل المجزرة التي استمرت من الصباح حتى المساء. ومن دون الدخول في تفاصيل القتل، التي تشبه إلى حد كبير مجزرة صبرا وشاتيلا أو مجزرة جنين.

يقول الكاتب إنه ما بين (10 و20 %) استطاعوا أن لا يقوموا بواجبهم على أكمل وجه، وبينهم من أحسوا بالأسى في نهاية النهار. ولكن الآخرين استمروا في عملهم من دون أن يهتموا إلى أنهم صاروا مبللين بالدماء. وبعض هؤلاء كانوا يتسلون ويستمتعون. فلكونهم لم يكونوا جنودًا مدربين فإنهم لم «يتوحشوا» من خلال تكرار عمليات القتل، أي بالتعود عليه، و لم يكونوا تحت تأثير التهديد أو الخطر الذي يدفع إلى القتل أحيانًا. لقد كانوا رجالاً «عاديين» وألمانًا «طبيعين»، ومع ذلك فقد ارتكبوا مجزرة جماعية.

ويتساءل براوننغ: «إذا كان هؤلاء قد تحولوا بهذه السهولة إلى قتلة فمن منا يضمن أنه لا يتحول»؟.

وردًا على من يقول إن الألمان قد قتلوا اليهود لأنهم مهيؤون لقتلهم بالكراهية التي تريد إزاحتهم من الكون، يورد براوننغ قصصًا عن «أساتذة يقتلون تلاميذهم في رواندا، وجيران يقتلون جيرانهم في البوسنة، ورجال ونساء في كامبوديا يقتلون كل من يلبس نظارات».

ولكن يمكن أن تضاف إلى ذريعة إطاعة الأوامر وتحويل المسؤولية مسألة أكثر أهمية، وهي وجود مصلحة ملموسة لهم في ظل النظام القمعي، وهذه تجد غطاءها من ستار الإيمان بالشخص أو بالسلطة، مثل الجلاد الذي ينفذ أحكام الإعدام إيمانًا بالعدالة التي يمثلها القضاء، ولذلك ينصرف تفكيره إلى الإتقان وحده، وبما إنه سيأخذ مكافأة عن كل تنفيذ متقن للإعدام، فإنه عند التنفيذ قد لا يفكر إلا في المكافأة.

وميلغرام لا يقول لنا في كتابه المذكور سابقًا: ما الذي يمكن أن يفعله أو لا يفعله الإنسان لقاء مكافأة مجزية (مليون دولار مثلاً) يعرف أنه سيتقاضاها بعـــد التنفيذ؟ بل يسأل: ما الذي يمكن أن يفعله الإنسان لأن هذا الفعل قد طلب منه وقد أصدرته سلطة تتحمل المسؤولية عنه سرًا أو علنًا؟

ويجب ألا ننسى الخوف من غضب المسؤول الأعلى مباشرة أو بعد عدة رتـــب، والغضب لا يعني العقوبة فقط؛ بل ويعني التجريد من الصلاحيات والامتـــيازات، وهذا بدوره يعني ضرب المصالح، كما أن هناك محاولة إثارة إعجاب الآمر بحسن التنفيذ أو بمقدار الطاعة بما يضمن أن يظل الآمر يعتمد علينا دومًا، وأن نصبح من المقربين إليه.

وأخيرًا هناك مسألة استمراء ممارسة السلطة والتخويف (والترهيب)، أي تلذذ الشخص بإحساسه بأنه مثير للخوف، وأن أوامره مطاعة، وأن الآخرين ليســـوا في خدمته فقط بل إنهم رهن إشارته. ولا يقف هذا الاستمراء عند رتـــبة صـــغيرة أو كبيرة. وكثير من الجلادين أو المتنمرين يتباهون بألقاب يـــتخذونها مـــثل أبـــو الغضب و أبو النار.. مثلما كان جمال باشا السفاح يستمرئ تلقيبه بالغول.

هناك الاستمتاع بممارسة القوة، ولكن هناك ما يستفز هذه القوة لإظهار نفســـها، هناك الرغبة في الدفاع عن النفس في لحظة الخوف، وهذا الدفاع يتضـــمن مقاومـــة العدو الخارجي أيًا كان، ومقاومة الجوع بأنواعه الغذائي والجنسي والسلطوي والتملكي.

مـــنطق القوة العضلية هو الذي يبيح للرجل، أولاً، أن يضرب المرأة. ثم يـــأتي منطق القوة الاقتصادية. وبين هاتين القوتين ولتبريرهما تنشأ قيم متعلقة بالطاعة والخنوع والخضوع وسماع الكلمة (حتى من الرجل الأحمق).

وهـــذا المنطق ذاته هو الذي يسود في المجتمع . القوة العضلية قوة عنف مـــرئي واضح. وهذا العنف هو الذي يقمعه القانون إلا إذا كان عن طريق

التسـلط والتسـلبط والبلطجة. ثم القوة الاقتصادية التي تمارس قمعها غير المرئي.

ولكن ما يلفت الانتباه هو أن الرجل القوي لا يتدخل لمنع العنف القمعي عـن امرأة مقموعة بعنف. لأن هذا سيقود إلى خرق المنطق الذي يقوم عليه المجتمع. ومن هنا لا حق لأحد أن يتدخل في معاقبتي لامرأتي، أو يتدخل "بيني وبين أهل بيتي".

/8/

مسؤولية الضحايا

ولكن هناك طرفًا آخر يتحمل مسؤولية إيقاظ الرغبة العدوانية، هو الضحية ذاتها.

هناك قصة، وربما مقالة، رائعة ليوسف إدريس عن المدرب في السيرك الذي افترسه النمر، وهي حادثة حقيقية حدثت في مصر، التقطها يوسف إدريس وكتبها بطريقته الجميلة، وفيها يقول للمدرب الذي افترسه النمر: إن النمر كان يخافك حين كنت تنزل إلى الحلبة بسوطك وهيبتك ونظرتك الصارمة، ولكنك في ذلك اليوم الذي حدثت فيه الحادثة كنت تفكر في العيال، وتحسب الحسابات التي تجعلك تتحول إلى إنسان خائف على مورد رزقه، ولقد رأى النمر بغريزته ذلك الخوف في عينيك، وهذا ما جعله يتجرأ على مهاجمتك.

وفي الأريـــاف كانوا يوصون المتنقل في مناطق غير مأهولة ألا يخاف، أو يظهـــر خوفه، لأن هذا الخوف سيغري الوحوش بمهاجمته، كأن لهذا الخوف رائحـــة مهيجة، إنها تثير غريزة العدوان عند الأطراف الأخرى. قد تمر قرب كلـــب فيهر عليك بصوت عادي أو استفزازي، فإذا تابعت سيرك على نحو طبـيعي فإنـــه قلما يهاجمك، ولكنك إن ركضت أمامه فكأنك تدعوه إلى مطاردتك ومهاجمتك.

للخوف إذًا ما يشبه الرائحة المشجعة للآخر، وله مظهره المشجع للخصم أيضًـــا، وهـــذا الخوف لا يكتفي بتشجيع الحيوانات، بل إنه يشجع غريزة العدوان عند البشر أيضًا.

وأوضح مثال على ذلك هو وضع المرأة.

فلنتصور امرأة تسير وحدها في الليل، فلأن المرأة مصنفة على أنها عنصر ضعيف فإن هذا يثير شهوة الكثيرين للفتك بها ماديًا أو جنسيًا، وإذا كانت تســير وهي تتلفت مذعورة فإنها تبعث أنياب الآخرين على الظهور، فلتكن امــرأة توحي بشيء من الاعتداد بالنفس (وليكن اعتداد المرأة الواثقة بنفسها مثل اعتداد العاهرات بأنفسهن، اللواتي ليس لديهن ما يخفن عليه في ما يتعلق بالجـــنس) فـــإن هذا يضعف الشهية في الاعتداء عليها، بل إن الكثيرين قد ينفرون منها أو يتجنبونها.

إن مشـــهد امرأة تسير وحدها في الليل لا يشجع الجميع (الذكور) دومًا على اعتراضها أو مضايقتها، ولكن بعض الحركات التي تبدر عنها قد تشعر كثيرين بأنها ممكنة فيتحول شكلها إلى فريسة.

ولكـــن لنـــتأمل رجلاً يسير مع امرأة، إن وجود الرجل مع المرأة يفرض نوعًـــا من الاحترام الذي تم الاتفاق عليه اجتماعيًا وأخلاقيًا، ولكن هذا لا يمنع أن آخرين قد يفكرون في "التسلبط". فإذا أظهر هذا الرجل خوفه ببعض الحـــركات كالالتفات والترقب والانتباه المجفل لأي حركة، فإنه يثير شهية

التحرش به وبالتي معه لإذلاله أو "التأكد من القدرة على إذلاله" فقط. فإذا أظهر ضعفًا أو خوفًا عند التعرض لهذا التحرش فإنه يؤكد للآخرين أنه يرافق أو يملك ما ليس من حقه، (قد تكون مومسًا)، وإذا لم تكن كذلك فهو يرافق من لا يملك الجرأة على الدفاع عنها، ومن ثم فمن الممكن "**تشليحه**" ما لديه.

ونستطيع الانتباه إلى الكيفية التي يقرر أسلوب التعامل مع الآخر ردود فعله تجاهنا من طريقة اعتراض كثيرين من موظفي الاستعلامات على الداخلين والمراجعين، إن دخولك الواثق يجعله يتردد في اعتراضك إلا إذا كانت لديه أوامر واضحة فعلاً، ولكن الخائف المتردد يجعل الموظف يتطاول عليه ويتظاهر بأنه أكبر من حجمه وحجم موقعه ومسؤوليته، والشرطي وعنصر الأمن يتصرفان بالطريقة ذاتها، وكل إنسان يتعامل مع الآخر بالطريقة ذاتها أيضًا.

هل يمكن أن يكون كل مواطن هكذا؟ بمقدار ما يبدي من ضعف وخوف فإنه يثير من الشهوات في الاعتداء والتسلط عليه، وبمقدار ما يبدي من استعداد للمقاومة فإنه يضعف شهية الآخرين من السلبطة عليه.

الإنسان الذي غرست أنظمة القمع خوفًا عريقًا في نفسه يشجع كل من حوله على التطاول عليه، كما أنه يعرف هو نفسه كيف يستغل الفرصة للتطاول على الآخرين حين يرى تلك الفرصة سانحة (وهذا ما سنراه عند الحديث عن "**تحويل العنف**").

ولهذا فإن الطغيان يريد غرس هذه الرهبة الدائمة لكي يضمن استقراره، وحين يكون لأصغر ممثل في السلطة رهبته فإن هذا يعني أن النظام مستقر، ولن يزعجه أحد بالمطالبة بالحقوق، إن الجميع يتحولون إلى قطيع مذعور منتظر بسلبية مطلقة، ينتظر أن تمن عليه السلطة بالإنجازات، بل إنه يصبح أكثر ميلاً للإرضاء والمحاباة.

هــذا قــد ينقلــنا إلى مســألة المواطنة وحقوقها، وربما إلى فهم الآلية الديموقراطــية الــتي نسعى للعيش فيها. فحين تسكت عن حقك الواضح، بســبب الخــوف غالبًا، فإنك لن تتوقع من الآخر أن يحترم لك هذا الحق، سيتصرف في المرة القادمة وكأن التطاول على حقوقك من المسلمات.

وهــنا نعود مرة أخرى إلى الخوف، فهذا الخوف هو الذي يغري السلطة وأطــرافها بالتصرف من دون إقامة أي اعتبار لوجودك، بل إنك تثير شهية الاعتداء والتطاول عليك يوميًا.

وهكــذا يــتطاول عليك عنصر المخابرات والشرطي والموظف والآذن وأقرباؤهم وأنسباؤهم، والمدّعون بهذه الوظيفة أو بتلك القرابة.

ولكنك إذ تدافع عن حقك، حتى لو لم تحصل عليه، أو تستطيع حمايته في النهاية، فإنك تجعل الطرف الآخر يتصرف بحسابات أكثر دقة، وفيها اعتبار لك، واحترام.

ولــو أنــك وقفت تدافع عن حقك بقوة لتقلصت شهوات المتسلبطين كثيرًا، فالمتسلبط يعتمد على إشاعة الخوف، وليس على توليده في كل مرة، ليس مستعدًا لأن يخوض معركة في كل مرة يريد فيها أن يتسلبط.

وهــذا يعــني أن المجــتمع الديموقراطي يجب أن يقوم على أساس وجود مواطــنين لا يتهاونون في حقوقهم، وإن السلبطة والاستبداد يتماديان عند وجود مواطنين يسكتون عن حقوقهم أو يخافون من المطالبة بها، لأن السلطة أيضًــا لا يــريحها أن تضــطر لخوض معركة مع مواطنيها كلما تهاونت أو تســاهلت في التعامل معهم أو كلما أرادت أن تقوم بفعل مناقض لمصلحة الشعب.

ونصل هنا إلى العلاقة التبادلية بين الخوف والحق، فحين تقف بقوة دفاعًا عــن حقــك فإنك لا تعتمد على قوتك وحدها، بل تعتمد على عرف أو قانون يمكن الرجوع عند الحاجة إليه لكي ينصفك.

ولكـــن إذا رجعـــت إلى هذه المرجعية العرفية أو القانونية و لم تستطع أن تحميك، أو لم تحاول ذلك، بل ربما ساندت المتطاول عليك، فإن هذا سيكون "درسًا" للآخرين يجعلهم يتهاونون في الدفاع عن حقوقهم لكي لا "يتورطوا" مثل ورطتك.

ولكن قد يحدث ألا يتلقى المواطنون "الدرس"، فيعلنون تضامنهم مع الحق المهدور.

هكذا، ولهذا، تحدث الثورات، أو لهذا تحدث الثورات، يقوم الناس كلهم لمناصرة القضية التي قد لا تعني الأمر نفسه لكل منهم شخصيًا، كما يحدث حين يخرج سجين من التعذيب جثة هامدة، وحين يتكرر ذلك.

وحـــين تـــتفاقم الأمور فإن السلطات تتراجع، يصبح رجل السلطة أمام خيارين: إما الاستسلام للإرادة الشعبية وإما محاولة قتل الشعب كله، هكذا حـــدث حـــين تفاقمت الأمور في آخر أيام حكم أديب الشيشكلي فاضطر لمغـــادرة الـــبلاد، وهكذا حدث في إيران فاضطر الشاه إلى المغادرة، وهكذا حدث حين تفاقمت الأمور في أندونيسيا فاضطر سوهارتو إلى التنحي.

إن الذي حول الوحوش الضارية إلى مخلوقات مسلية في السيرك، وجعل الفـــيلة تقـــف على رؤوسها، والأسود تقفز كالبهلوانات، قد اكتشف أنه يســـتطيع أن يجـــري التحويل ذاته على الإنسان، حوله إلى مخلوق مسلوب الإرادة.

ولكـــنه بالطاعة ذاتها وبالأساليب ذاتها صنع الجلادين والقتلة واللصوص والانتهازيين والمرتشين والمفسدين والقوادين.

هـــنا نصل إلى حيث نستطيع التشكيك بالنتائج التي توصل إليها ميلغرام وغيره (أمثال شروود واشتبرن). إن الإنسان يصنع بالطريقة التي نريدها له، وكما قالت سيمون دو بوفوار إن الأنثى تولد إنسانًا ثم تُصنع امرأة، كذلك فـــإن كـــل ما نراه من تشوهات تصيب الفرد والمجتمع عامة هي من نتائج تفشي القمع والمؤسسات القمعية التي تشيع العنف بكل مظاهره.

فالمســـألة ليست مسألة غريزة عدوانية، بل هي ممارسة وتطوير، وليست "الوحشـــية" قـــدرًا أمام الإنسان لا مفر منه، وما يقوله شروود واشتبرن: «أعـــط بندقـــية لصبي فإنك تراه يذهب للصيد ويقتل»، هو قول صحيح، ولكـــن ليس بمعنى أنه ليس هناك ما يمكن أن نعطيه للطفل إلا البندقية، وإذا كـــان من السهل على الإنسان، كما يقول أيضًا، «أن يكون عنيفًا للغاية»، فـــإن من السهل على الإنسان أيضًا أن يصبح أي شيء آخر، وبدل إعطاء الولـــد بندقية فإننا سنصل إلى نتائج مختلفة لو أننا أعطيناه شيئًا آخر، فالولد الذي يقتل لأنه يجد في يده بندقية قد يخربش إذا وجد في يده قلمًا، أو يعزف إذا وجد في يده آلة موسيقية، أو يبدأ الحفر إذا أعطيناه فأسًا.

وحـــتى في محاولـــة البحث عن الإثارة حسب النظرية القائلة إن الإنسان يســـعى للعنف ليجمّل حياته بالإثارة، فإنه مما لاشك فيه، كما يقول إيريك فروم، «أن الدراما اليونانية كانت مثيرة لمشاهديها بمقدار ما كانت المشاهد السادية في المدرجات الرومانية مثيرة».

ولا بد لنا أن ننتبه إلى الازدواجية المرعبة في بعض المجتمعات القائمة على العنف، فالأرستقراطية البيضاء التي تسمع الموسيقى الكلاسيكية، والتي يغمى عليها إذا شاهدت فأرًا، هي نفسها التي تعلق رؤوس الحيوانات في صالونها، وإلى جانب هذه الرؤوس فروات رؤوس هنود حمر.

والـــزوج أو الابن الذي يعيش الحياة الهادئة الرصينة في هذا الصالون هو نفســـه الذي قتل تلك الوحوش وسلخ بيده تلك الفروات عن رؤوس الهنود الذين قتلهم.

لـــيس هناك، إذًا، قدر محتوم على البشر أن يتحولوا إلى جلادين وضحايا (وحوش مفترسة وأرانب أو فئران)، ولكن أنظمة القمع والاستغلال هي التي تريد إبقاء البشر عند مرحلة الحيوانية الغريزية الأولى، وحين يحاولون الخروج مـــن هذه الشروط تثبتهم فيها أو تنزلهم إلى ما هو أحط من الحيوانات من

خـلال القسـر، وبأدوات بشرية تتحول هي الأخرى إلى ما هو أحط من الحـيوانات، فتثبـت نظرتها العرقية الفوقية إلى العنف الوحشي لهؤلاء الناس الذين «لم يتجاوزوا مرحلة الحيوانية».

إن المغبون المسروق المظلوم الجائع الذي تحيط به القوانين وتكبله، ويرى في الوقـت ذاتـه التجاوزات التي لا حصر لها لهذه القوانين، أو التمييز في تطبيقها، قد لا يجد أمامه إلا العنف للرد على عصره.

وبمعـزل عن السياسة المباشرة فإن السلطات التي تهتم بمواطنيها وبتطويرهم روحـيًا وأخلاقيًا (إضافة إلى ما لابد منه من تحسين أحوالهم المعيشية) هي التي تحسب حساب الثقافة المساعدة، فتحارب ثقافة الغرائز الحيوانية التي نراها تملأ دور السـينما والكتب والمسلسلات والمجلات. وكما يحارب المرض بالتلقيح المضـاد قـبل وقوعـه، وبالحمية بعد وقوعه، فإن من الممكن التفكير بتطوير الإنسـان وتخليصه من أمراض هذا العصر الحيواني الذي لا يريد إلا حيوانات ضـارية حاكمـة تستمتع بقمع حيوانات مذعورة، وحيوانات تستمتع بقتل حيوانات أخرى، أو بالفرجة على قتل الحيوانات الأخرى وتعذيبها.

الـنظام القمعي، شاء أم أبى، لا يريد أن يرى البشر أو يتعامل معهم، ولا يهمه أن يتطور البشر ولا أن يظل البشر بشرًا، يريد أن يحول الناس جميعًا إلى هذيـن النمطين من الحيوانات: الأرانب أو الفئران المذعورة التي يتم تصنيعها عـلى أيدي الحيوانات الأخرى التي هي الذئاب الشرهة للدم، أناس عبارة عن جلـود وآخـرون عبارة عن سياط، والطرفان من دون إرادة ومن دون حرية ومن دون كرامة، وكما يقول سارتر في وصف هذا النموذج: «هذا الشخص المتمـيز الذي أطاش صوابه ما يتمتع به من سلطة كاملة ومن خوف عليها لا يتذكر جيدًا أنه كان إنسانًا، وإنما هو يحسب نفسه سوطًا أو بندقية».

ونعـود مـرة أخرى إلى التجربة الحية التي يرويها بشير الحاج علي في ‹العسـف›: «لماذا أطعت، من دون احتجاج، الأمر بالتعري؟ ولماذا لم أقاوم

اللكمـــات؟، هل هي الرغبة في ألا يعريني الآخرون؟، أم هو الاقتناع بعدم جـــدوى كـــل مقاومـــة جسدية؟ لاشك، ولكنه الخوف أيضًا من استفزاز حيوانات ضارية».

إن الأوصـــاف تـــأتي تلقائية، لأن ذلك السلوك لا يجد تسمية أخرى، والطبيبة الفرنسية التي شهدت مجزرة صبرا وشاتيلا تقول في شهادتها ذاتها التي أثبتـــناها في مكـــان آخر: «لست حزينة من أجل القتلى والمشوهين في هذه المجـــزرة فقط، إنني حزينة بالدرجة نفسها من أجل القتلة أيضًا، إذ ليس من الســـهل أن تتخيل أن الإنسان يمكن أن تتشوه نفسه إلى هذه الدرجة فتضيع المسافة بينه وبين أحط غرائز الدم الحيوانية».

هـــذا الانحطـــاط هـــو المسألة، وهو ما يعرضه علينا يوسف إدريس في «العسكري الأسود»، انحطاط يطرأ على الجلاد مثلما يطرأ على الضحية.

/9/

الجلاد الذي ينتقم من ماضيه

ينبهنا سارتر إلى ضرورة مراقبة المفردات التي يستخدمها المستعمرون لوصف أبناء المستعمرات، وبالطريقة ذاتها يمكن أن ننتبه إلى المفردات التي يستخدمها السجناء لوصف أنفسهم بعد فترة من السجن أو لوصف سجانيهم.

ونبقى دومًا عند التجارب التي يرصدها الأدباء.

تبدأ قصة سعيد حورانية «المهجع الرابع» في مجموعته «سنتان وتحترق الغابة» بعبارات من هذا النوع: «آآآآه، صرخة حيوان مطعون... مدت مخالبها إلى المهاجع المكتظة... ارتفعت رؤوس بالغة البشاعة ووقفت هنيهة منتصبة الآذان كخيل أحست بالخطر»، وعند وصف السجانين «... العلو

هناك في الأسفل قد استفاق جائعًا إلى اللحم.. وها هو يهيىء أسلحته ويبري أظافره.. وبدا السجن الكبير قاعة ضخمة تعزف فيها موسيقى همجية لآكلي لحوم البشر.. إنها معركة أبدية ضد وحوش الطبيعة، وارتفعت أصوات الحرس المحيطين بالتلال المطلة على السجن، أصوات تضاف إلى الموسيقى كجوقة من الذئاب.. يظن أن الزمن قد عاد إلى الوراء ألوف الأعوام، وإن المشاهدين الأغبياء المتعطشين للدم ينتفضون بلذة وهم يرون الأسود تغرز أنيابها في أجساد عارية ربطت إلى الأعمدة».

ليست الصورة بلاغية أو أدبية، فشهادة السجين الآخر الموثقة تورد أوصافًا مشابهة من دون أي هاجس أدبي: «كنت أسمع وسط دوامة الألم صياحهم وهياجهم كالكلاب المسعورة حولي».

والمشكلة أن هذه الحيوانية لدى الجلاد والضحية لا تقف عند الاثنين، بل تتعداهما إلى المجتمع كله وإلى البيئة الاجتماعية حين تستفحل ظاهرة «العسكري الأسود» فتتحول إلى سلوك اجتماعي، ويُقمع شوقي في أي مظهر جاء فيه من الحياة الاجتماعية. وهذه الظاهرة المستفحلة هي السمة الأولى للنظم الاستبدادية، والسمة الأولى التي تتسم بها تفاصيل الحياة اليومية في ظل الاستبداد والقمع.

ولأن الخوف والتملق واحتقار الذات هي التي تسود؛ يظهر الخوف المنفلت من عقاله بطريقة أخرى، إن المستكين مليء بأحلام اليقظة المتوترة بالرغبة في الانتقام، ويحدثنا كتاب "العسف" عن المساجين الذين كانوا يهذون في نومهم وهم يتحدثون عن الانتقام.

ومرة أخرى نعود إلى سارتر، يقول: «إن المستعمَر يعرف هذا كله، ويضحك كلما اكتشف نفسه حيوانًا في أقوال الآخر، هو يعرف أنه ليس بحيوان، وفي الوقت الذي يدرك فيه أنه إنسان يأخذ بشحذ أسلحته ليحقق انتصار إنسانيته».

ولنستمع إلى هواجس المقموعين عنصريًا في رواية ‹ثورة المشنوقين› لـ (ب. ترافن): «إذا كانت حياتي لا تساوي شيئًا، وإذا كنت أعيش أسوأ من حيوان، فلن أفقد شيئًا إن قتلت ذاك الذي شنقني»، ثم «هؤلاء الكلاب ينسون أنه من المستحيل أن تواصل ضرب الإنسان إلى الأبد، في يوم رائق سوف يتعلم هذا الإنسان أن يستخدم السوط، وأن يضرب حتى يمنح روحه بعض الراحة والعزاء».

وإذا عدنا إلى قصة ‹المهجع› التي تقوم على حدث واقعي وشخصية حقيقية نرى أن المواطن العادي "منصور" يختم قصته التي يحكيها للمساجين السياسيين بهذه الأمنية: «أنا ما بدي شيء من الدنيا، إذا عشت وانقلبت خيمة كراكوز هذه، يقصد تغيير الأوضاع السياسية، ما بدي إلا أن أكون سجان هؤلاء المجرمين، وقتها، يا لطيف على النجوم في عز الظهر».

ويشير الدكتور مصطفى حجازي في كتابه القيّم والهام، ‹التخلف الاجتماعي - دراسة في سيكيولوجية الإنسان المقهور›، إلى المسألة من زاوية أخرى، هي زاوية الانتفاضة المسلحة للمقهورين، والتي قد لا يكون لعناصرها وعي سياسي، «فالإنسان المسحوق الذي حمل السلاح، من دون ثقافة سياسية توجه وضعه الجديد، قد يقلب الأدوار في تعامله مع الجمهور، أو مع من هم في إمرته، فيتصرف بذهنية المتسلط القديم، يبطش، يتعالى، يتعسف، يزدري، وخصوصًا يستغل قوته الجديدة للتسلط والاستغلال المادي والتحكم بالآخرين».

هنا شيء يمكن أن نسميه الانتقام من الماضي، فللأثرياء الجدد، مثلاً، سلوكية خاصة تميزهم وتدل عليهم. إنهم يريدون في كل حركة من حركاتهم أن يثبتوا، لأنفسهم قبل الآخرين، أنهم أثرياء حقًا، إنهم يستعرضون القدرة الجديدة على الإنفاق، تلك هي سلطتهم الجديدة التي توصلوا إليها، إنها سلطة المال الجديد، وهم يضطهدون الآخرين بسلطتهم تلك. وتستطيع أن

تستدل عليهم من تصرفاهم في الأمكنة المبتذلة التي يستعرضون غناهم فيها، وهؤلاء يختلفون عن أصحاب المال الموروث: أبناء الطبقات الغنية الواثقة من غناها والمتعودة عليه. إنهم ليسوا في حاجة إلى استعراض ثرائهم أو إثباته في كل مناسبة.

وكذلك فإن المقموعين تاريخيًا، حين يجدون متنفسًا ويتوصلون إلى سلطة ما، فإنهم يريدون أن ينتقموا داخل نفوسهم من كل مشاعر الخوف والتذلل التي عرفوها، ولذلك يصبحون أشد قسوة من مضطهديهم، وهم يقلدون أولئك الذين اضطهدوهم، فهم يضيفون إلى ما يعرفونه، ويريدون تقليده شحنات من أحلام اليقظة المكبوتة والانتقام من الذات التي كانت مستكينة، ويمددون صلاحياتهم خارج أسوار المكاتب أو حتى الزنزانات، ومن ثم تصبح "نجوم الظهر" التي كان يحلم بها ذلك السجين، "إذا انقلبت خيمة كركوز"، ظاهرة ليس فقط للمساجين الذين سيقعون بين يديه، بل وللمجتمع بأسره، وهنا سأقتطف بعض الجمل من الاعتراف الذي قدمتُه عام (1983 م) أمام محكمة الشعب الدولية في طوكيو لمحاكمة جرائم الحرب في الغزو الإسرائيلي للبنان ومذبحة صبرا وشاتيلا (والمادة منشورة في كتاب ‹دفاعًا عن الجنون›):

أما اليهودي الذي يبحث عن الأمان من خلال الصهيونية، وبعد أن تتم تقويته ضدنا، فإنه ينتقم لماضيه بقتلنا، ولقد أصبح اليهود الآن قامعين، وأصبحنا نحن الأبرياء، من الجرائم السابقة التي ارتُكبت ضدهم، ضحاياهم.

إن لم نتحول إلى هنود حمر فإننا ذات يوم، وبشكل ما، سنجد حلاً. فهل سنحول انتقامنا عندها ضد أبرياء آخرين؟، من هم؟، وما هي نهاية هذه السلسلة؟

«أعتقد أن هناك نقصًا في حساسية البشر تجاه الجريمة وخاصة حين تكون الجريمة مغلفة بالسياسة. أنا نفسي أقل حساسية تجاه الجريمة والقتل... هذا

يعني أنني فقدت شيئًا من إنسانيتي... ويبحث عجزي عن تعويض له. أحيانًا، في أحلامي، أبدأ القتل، وأحيانًا تكون أحلام يقظة، في هذه الأحلام أرى نفسي مليئًا بالحقد، أقتل ببرودة أعصاب... إنني أتحول إلى قاتل حالم». ولقد جاء في رواية ‹التطليق› لرشيد بو جدرة ما يوحي بتجربة شخصية وما يدل على هذه الظاهرة: «علينا... أن نستمد قوانا من حقن الدم (جميع الدم !) الذي كان يسيل على وجوهنا المرضوضة الممزقة بمفعول اللطمات بالأيدي والركلات بالأرجل التي كانت وجّهتها لنا تلك الجماعة من أوغاد الشرطة الذين خرجوا هم أنفسهم منذ زمن قصير من المحتشدات والسجون والفيلات التابعة للسلط الاستعمارية، فما إن تحرروا من القمع والعنف حتى اندفعوا مثل الصواريخ فغاروا في أشلاء حطام أجسامنا المشوهة شر تشويه وسط ضحكات السخرية الصادرة من أفواه أولئك الأوباش، وكانوا يتلذذون من وضعنا البائس. فتبلغ بهم اللذة درجة لا يتمالكون معها، وهم يجيشون جيشانًا ساديًا، من ملامسة أعضائهم الجنسية من خلال قماش سراويلهم وقد انفلتت التذاذًا بخوفنا من الضربات».

كان من الممكن الاستشهاد بهذه الفقرة في أي مكان من هذا البحث، ولكنني أوردها هنا للإشارة التي فيها عن الأصول التي جاء منها هؤلاء الجلادون.

مجتمع المتنمرين

كل نظام استبدادي يطرح هذه الظاهرة الخطيرة. إن صلاحيات الجلادين المذعورين الراغبين في الانتقام من ماضيهم لا تقتصر على الزنزانات، بل إن هؤلاء الجلادين ينقلون زنزاناتهم وسياطهم ووحشيتهم معهم أينما تنقلوا، ويحولون المجتمع كله إلى زنزانة واحدة كل إنسان فيها معرض للضرب والإذلال والإهانة والسلب في أي لحظة، ومن دون سبب واضح بالضرورة. وهؤلاء الذين ينشرون الذعر يشعرون، بوعي أو من دون وعي، بأنهم

يـــتحركون ضمن مجتمع مذعور، فتظل غرائزهم العدوانية مستيقظة ومستمتعة بذلك الذعر الذي يسود المجتمع.

هـــم أنفسهم قد جاؤوا من أسر وأوساط مذعورة، وحملوا معهم تربية مذعـــورة، ولكـــنهم الآن، وبفعل الصلاحيات الممنوحة لهم من قبل النظام والمتاحة أمامهم بفعل خوف الناس، وبرغبتهم في الانتقام من ذعرهم السابق المخـــبوء في نفوســـهم، وبمقدار ما يخافون من أن يقعوا فريسة النظام (كما خاف قائد الحرس عند إيفو أندريتش بعد أن نفذ عملية الخازوق بالفلاح)؛ فـــإنهم في كل تفصيل من تفاصيل سلوكهم يريدون أن يتأكدوا أو يؤكدوا للآخـــرين خـــروجهم من دائرة الذعر، ومع إحساسهم بأن خروجهم هذا محدود وضئيل إلا أن فرحتهم بذلك تدفعهم إلى البطر.

وإذا كان هذا الإحساس بالنجاة المحدودة من مدحلة السلطة يلجم شيئًا مـــن تصـــرفاتهم، فـــإن هذه التصرفات تنفلت من عقالها انفلاتًا نهائيًا حين يتصرفون بأوامر واضحة من الرؤساء: مثل قمع تمرد شعبي أو تظاهرة طلابية أو احتجاج وظيفي أو عمالي.

إن كل نظام قمعي يحتفظ بقوة منظمة من هذا النوع لمواجهة الأزمات، فهـــذه القوة هي التي تقمع عند الضرورة بلا تفكير وبلا وازع، تطلق النار على أي هدف، وتضرب أي إنسان من دون تمييز في عمره أو جنسه، وهي بلا ثقافة، والنظام يحرص على أن يحدد ثقافتها بإطاعة الأوامر (وقد جاء في أسس النظام العسكري: نفذ ثم اعترض، فالسلطة التي أصدرت الأوامر هي المســـؤولة عنها) وبالقدرة على استخدام السوط وكعب البندقية والطلقة في الشـــوارع التي يتحرك فيها المواطنون، وتعمم السلطة بين هؤلاء قيمًا خاصة تجعلهم يفاخرون بما فعلوه أو بما هم قادرون على فعله، أو على استعداد دائم لفعلـــه، وتجعـــلهم يتسابقون لأداء المهمات التي يصفها غيرهم بأنها قذرة أو وســـخة أو لا إنســـانية، بيـــنما هم يرون فيها إثباتًا للرجولة وللاستحقاق

التدليلي عند الرؤساء، وبعد أن يبدأ تسابقهم من أجل إرضاء الرؤساء يصبح الأمر متعة شخصية وقيمة ذاتية تصلح للمفاخرة.

والمواطـــنون يعـــرفون هـــؤلاء في الحياة العامة وفي الاشتباكات التي قد تحدث، فيضربون بهم المثل، وتتضخم أسطورتهم، ويصبح ذكر اسمهم من قبل السلطة أو الشائعة الأمنية وحده كافيًا لإحداث الذعر.

/10/

السلبطة

هناك نموذج يدرسه علماء الاجتماع بعناية هو نموذج «المتنمر» أو المتسلبط، وهو شخص ميال إلى فرض إرهابه الشخصي على الآخرين، يحمي المومسات ويبتز منهن أموالهن، يفرض ضرائب خاصة به على الحوانيت والمقاهي والأندية الليلية (ما يعرف باسم الخوّة). هو المتسلبط والقواد، وهو بطل العالم السفلي، إنه ما يعرف في الإنكليزية باسم بُلي (bully)، وسماه كتاب آخرون تيدي.

هذا هو المتنمر الاجتماعي الذي يروع عالم قاع المدينة بعد منتصف الليل، إنه بطل الشوارع الجانبية وملك الليل والعالم السري غير المشروع، وهو بطل العالم السفلي، شخص شبيه بالقبضايات ولكنه بلا أخلاق ولا نخوة، هو الذي يشتغل قوادًا وحاميًا للعاهرات ومتسلبطًا عليهن، وممررًا

لـــلمخدرات إلى الزبائن، وهو الذي يتسلبط ويبتز ويُستخدم لمهمات مؤقتة عـــند العصابات بينها الضرب في الليل وتخويف الزبائن وحماية أمكنة العمل غير الشرعي.

هذا الشخص يضمن إثارة الذعر عند ظهوره في العالم السفلي، ونحن لن نكـــتفي بالحديـــث عن واحد من هؤلاء المتنمرين، بل سنتحدث عن جيش خاص منهم وعن الأثر الذي يحدثونه في الحياة العامة.

فالمتنمر خارج على القانون ويعمل بعيدًا عن عين السلطة والدولة أو أمام الجزء من السلطة الذي يتعاون معه بالرشوة أو بأي دافع آخر.

وكـــتاب «رجـــال عنـــيفون» هو دراسة ميدانية لهانس توك عن العنف وممارسيه وضحاياه، وفي هذا الكتاب يفرز فصلاً خاصًا لموضوع «البلطجي» أو «المتسلبط» أو ما سميناه «المتنمر»، وهو يصفه على النحو التالي:

> أكـــثر نماذج العنيفين كراهية، من وجهة نظر المجتمع والضحية، هو بلا شـــك نمـــوذج البلطجي أو المتسلبط أو المتنمر (BULLY)، إنه الذي يخـــرج عـــن طريقه ليصبح ظالمًا لا يرحم وغير إنساني في عنفه، ومن الصـــعب الـــتمكن من وجهة نظر المتنمر بسبب كونه يستمد رضاه وقناعـــته مـــن آلام الآخـــرين، ولأنه مصمم على حماية حصانته حتى الجـــبن. وإن المرء ليفترض أن هذا النموذج الغريب يجب أن ينطلق من دوافـــع قويـــة تجعلـــه يتخلى عن الآخرين، ويستهتر بالمشاعر العامة، وأكـــثر قوة محركة يمكن افتراضها فيه هي الخوف العميق، ويبدو هذا معقـــولاً لأن الخـــوف هو الذي يسعى المتنمر لإثارته في الآخرين... المتـــنمر حـــرَفِي العـــنف، والقوة (قوة الجسد أو قوة العصابة أو قوة السـلطة التي تقف وراءه حين يستخدم لباسه الرسمي) أداة بالنسبة له ووســـيلة موظفـــة، بوعي وإدراك، لإثارة الرعب وزيادة الاستكانة، العنف عملة عالمه الوحيدة، والميزان يميل دومًا لمصلحته... إن ما يريده المتـــنمرون هو الأثر المادي والنفسي الذي يُحدثه العنف في الآخرين، الأمر الذي يمكن أن يمتّن قناعتهم بأنه ليس هناك ما يخافونه من الخوف ذاتـــه؛ لأنـــه، أي الخـــوف، قد أصبح أخيرًا ودومًا في الآخرين....

والمتنمر يسهّل مهمته بتجنب الأنداد، إنه يلتقط الضعفاء (الضعفاء جسديًا، والضعفاء بحكم عملهم الذي يضعهم تحت طائلة القانون، كالمهربين والمدمنين والمومسات، والضعفاء الذين لا سند لهم بين رجال السلطة) لأن من السهل ترويعهم، وهو لا يبدي أية رحمة لأن اللين يزيل الحدود أو يلغي الدرجة القصوى من المتعة.

ويزداد عنف المتنمر مع وجود الخوف عند الطرف الآخر، وهذا قد يكون ابن أقلية اجتماعية أو دينية، أو رجلاً متورطًا يخاف على سمعته، أو ولدًا مهذبًا تربى على الابتعاد عن المشكلات.

وهنا نتوقف عند التنمر بوصفه سلوكًا عامًا أكثر مما هو مواصفات شخصية لبطل العالم السفلي، فهناك متنمرون من دون سلطة مرئية، والقوة الوحيدة التي يستمدونها هي من ضعف الطرف الآخر، ولذلك نجد متنمرين في الحياة العامة وفي الوظائف والمدارس وبين الأولاد الصغار.

ومن أكثر الحوادث دلالة حادثة الطفل فيجاي سينغ شاهيري (13 سنة) الذي نشرت «التايمز» قصته في (17 تشرين أول/ اكتوبر 1996 م). وقصته شبيهة بقصة «دميان» لهيرمن هسة، إذ يرتكب البطل (الطفل) خطأ ما يجعله تحت رحمة متنمر من الأولاد يروح يبتزه ويدفعه لارتكاب أعمال غير أخلاقية تتضمن سرقة أهله واستدراج أخته لإرضاء المتنمر، حتى تتحول حياته إلى جحيم لا يطاق.

وفيجاي المذكور ولد هندي يعيش في لندن، وقد انتحر تاركًا هذه المذكرات: «سأذكر هذا إلى الأبد، ولن أنساه أبدًا، الاثنين أُخذت مني نقودي، الثلاثاء أُطلقت علي النعوت القبيحة، الأربعاء مُزقت ملابسي، الخميس الدم يغمر جسدي كله، الجمعة انتهى، السبت الحرية – بسبب العطلة».

وقد وُجدت هذه القصيدة بين أوراقه: «إنني خائف ومذعور، جسدي كله يرتعش، فمي مفتوح إلى أقصاه وقد جده الرعب،

الدمــوع تنهمر حتى تشوه وجهي، أخذوا نقودي وهربوا إلى حيث يستطيعون الذهاب، صرخت بهم: بلطجية، ولكن لا شعور لديهم.

البلطجــية هــم الذيــن لا مشاعر لديهم ولا عواطف، وهم ليسوا شاطرين في الأمور التي يتشاطر فيها الآخرون، وهم يتسلبطون لأنهم لا شطارة لديهم في أي شيء آخر، وهم يعرفون أنهم لا يحتاجون إلى الشطارة في هذا الأمر.

البلطجية سيئون وأنانيون، وهم جبناء أيضًا، أشرار وشرسون، وهم أســوأ مــن ذلك، ولكنهم مذنبون أيضًا، يؤذوننا بالكلام، ويؤذوننا بالاحتكاك الجسدي، ولكنهم ليسوا شاطرين.

وبالانتــباه إلى رواية ‹دميان› لهيرمن هسه نرى أنها بشكل ما رواية عن الســلبطة، ففيها ولد يتصاغر أمام ولد آخر متسلبط يسيره ويجره على سرقة أشــياء من بيته ليجلبها له حتى يصل به الأمر إلى أن يطلب منه جلب أخته معه ليتسلى معها المتسلبط.

وهــذا يوسع دائرة المتنمرين والمتسلبطين لتشمل مناحي عديدة من الحياة لم يكــن يُنتــبه إلــيها، فيركز تيم فيلد في كتاب ‹رؤية البولي من الداخل› عــلى تفشي ظاهرة الشبان (مع البنات أحيانًا، ولكن ليس البنات وحدهن) الذيــن يحــتلون مكانًا ما من الحي أو الشارع ويسيطرون على الحياة فيه، ويصــبح أي عابر تحت رحمة نزواتهم. هذا ما يسميه فيفل تجمع «تيدي» في كــتابه ‹مثيرو المشكلات›، وهؤلاء يظهرون وينمون في غياب رقابة الأهل والدولة معًا.

ولكــن هناك نوعين آخرين من التسليط أو التنمر أكثر انتشارًا وتعميمًا، وهما **التنمر الوظيفي والتسلبط العائلي**، فقد يسيطر شخص على آخر بقوته العضلية أو بقوة السلاح، وقد يتحكم به بفعل القوانين السائدة، بعضها متفق علــيه وهو التسلبط العائلي أو العشائري، وبعضها الآخر مكتوب، وهو ما يعرف بالتسلبط الوظيفي.

وهذان النوعان يكتسبان قداسة من خلال استمراريتهما وارتباطهما بقيم محددة، فالتسلبط العائلي مرتبط بقداسة الأبوين وطاعة الصغير لكبير وشرف العائلة المشترك ومصلحتها المشتركة، وهي أيضًا قيم متوارثة.

في كتاب «المتنمر تحت النظر» لتيم فيلد (وهو كتاب مخصص للتسلبط الوظيفي) نظرة شمولية أولية تتضمن التسلبط العائلي، وقد أورد هذا الوصف لامرأة كانت مقموعة مع أهلها ثم تحولت إلى امرأة مسيطرة: «ولسوء الحظ فإن هذه الصفة ستتجذر في أعماقها وستجعلها مسيطرة بالطريقة ذاتها التي عليها والداها الآن؛ وخاصة حين يكون حولها أناس ضعفاء، كالأطفال مثلاً. والحقيقة هي أن الأذى ذاته قد لحق بوالديها من قبلها، إن عليهما أن يسيطرا الآن بسبب الطريقة التي سيطر بها أهلهما عليهما، وتلك هي الوسيلة التي يمر من خلالها العنف النفسي (السيكولوجي) من جيل إلى آخر».

ويقول تيم فيلد إن الأمر يبدأ منذ الطفولة: «ونحن أطفال لم نتعلم، ولم يعلمنا أحد، كيف نقيّم أنفسنا وعملنا على النحو المنطقي والدقيق. وهذا المركب يؤدي بالكثيرين إلى الاعتقاد بأن آراء الآخرين أكثر أهمية من آرائنا. وفي حين لا يبدو هذا معيقًا في الحياة اليومية، إلا أنه يصبح أمرًا خطيرًا عند ظهور السلبطة».

وبدراسة العلاقة التنمرية في الوظيفة نجد أنها تكشف عن مرض في المتنمر، وإصابة، نفسية في كثير من الأحيان، عند الضحية. «ولقد كانت الإنسانية طوال عمرها تعاني من التنمر، وحتى وقت قريب كان المجتمع يتقبل هذا الوضع بصمت».

وكذلك فإن السلوك التسلبطي يتجلى في البيت وفي العلاقات.. في كل مكان يوجد فيه إنسانان أو أكثر على تماس، وحتى في السجون بين المساجين.

ومع أن الجزئيات والنتائج قد تختلف إلا أن الأسباب الضمنية هي ذاتها في أغلب الأحيان، الرغبة في السيطرة والإخضاع والقضاء على الآخر، وهذا

مصـــحوب بانعدام الحساسية تجاه حقوق الآخرين وحاجاتهم، ويضاف إلى ذلك إنكار المسؤولية عن النتائج المترتبة على السلوك المتعمد.

ويتلخص الوضع في مسيطر، بغير حق، يفرض سيطرته اليومية مصحوبة بعـــنف وقمع نفسي أو تربوي أو وظيفي أو اقتصادي أو جسدي، ويصبح الضـــحية مضطرًا للعيش وهو يداري لكي لا يثير عليه غضب المتسلط، إنه يتحاشـــى كـــل ما يزعج هذا الأخير وفي الوقت ذاته يبحث عما يرضيه أو يدخل إلى نفسه السرور، (أليس هذا في النهاية هو وضع المرأة في مجتمعاتنا)؟

التـــنمر (الذي سميته السلبطة)، إذًا، ليس فقط في العالم السفلي الغائب عن العين المراقبة، بل هو كل سلوك «**غائب عن العين المراقبة**»، هو أمر يحدث في البيت ومكان العمل والمدرسة أيضًا، هو وجود متسلط يفرض إرهابه النفسي على الآخرين من خلال الوضع الوظيفي أو العائلي أو الديني أو الاجتماعي.

أمـــا التسلبط الوظيفي فيتم تحت ضغط القوانين وطرق فهمها وتطبيقها. «وأكـــثر هـــذه التـــنمرات (أو التسلبطات) خطورة واستتارًا هو التسلبط الوظـــيفي، ففي ساحات اللعب، وفي الشوارع المعتمة وفي المناطق المهجورة وســـاحات القـــتال يكـــون الأذى الذي يوقعه المتسلبطون ماديًا في معظم الحـــالات، أما في مناطق العمل المنضبطة فإن الأذى يصبح نفسيًا (من خلال الـــنقد والتقليل من الأهمية) حيث لا يبدو الأذى للعين المجردة. لا يبدو.. إلا حين يعرف المرء كيف يلتقط الدلائل ويفسرها».

جاء في شهادة أحد المغبونين من ضحايا السلبطة الوظيفية: «كل يوم كان الذهاب إلى العمل مثل الذهاب إلى الحرب - فالمكتب ساحة قتال حيث يقوم عدد من المديرين بالتناوب على إذلال الموظفين أو العاملين وتشويههم».

والمـــثير في الأمـــر هو أن التنمر الوظيفي، في كثير من الحالات، ينبع من خوف المتنمر من أن الضحية يمكن أن يكون مصدر خطر عليه أو على وضعه الوظيفي فيميل دومًا إلى سحق الآخر وتصغيره وتحقيره وتهديده وإخافته.

ونذكـــر بمـــا قاله الكواكبي: «وكلما كان المستبد حريصًا على العسف احـــتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه، واحتاج إلى الدقة في اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان».

فكيف سيكون تصرف هؤلاء في الوظيفة وأمكنة العمل، وهم لا يملكون أي كفاءة إلا إخلاصهم في خدمة مولاهم؟

يقـــول تـــيم فيلد: «نقطة الانطلاق هي أن المتنمر في وضعه القيادي أو الرئاســـي يشـــعر بأنه غير مؤهل، أو أن الآخرين مؤهلون أكثر منه، أو أن مؤهـــلات جديدة قد بدأت "بالتسرب" إلى مكان العمل، ومن ثم فالضحية يمثل تهديدًا، بينما قد يكون الضحية غافلاً تمامًا عن الأمر».

إن انعـــدام الأمان وانعدام الثقة «يولدان لدى المتنمر الرغبة في السيطرة عـــلى الآخر باستخدام أساليب عدوانية مادية أو نفسية، فالمتنمر يبحث عن تعزيـــز ثقـــته بنفســـه ليس بتنمية قدراته هو، بل بإخضاع قدرات الآخر وتصـــغيرها حتى تصير أقل من قدراته هو، وبحيث يصل إلى الشعور بالرضا عن نفسه».

المديـــر المتسلط ليس إلا ثقل جسد ميت لا يحمله غير الولاء (لرب العمـــل أو لـــولي الـــنعمة) والعمل الدؤوب الذي يقوم به أولئك المهيؤون لتغطيته أو المجبرون عليها.

ويشـــتمل تعبير "المتنمر الوظيفي" على منطقة واسعة من التصرفات، من الامتـــناع الدائـــم والمتواصل عن الاعتراف بالإنجاز والولاء، حتى الإشارات المتكررة والسلوك المهين والعداء العلني مثل الصراخ على الموظف وإهانته أو تهديده العلني أمام زملائه.

ولكـــن كـــيف يصـــبح المرء متنمرًا وظيفيًا؟ وما هي مواصفات المتنمر (المسؤول) وهو يمارس عمله اليومي؟

يلخصها تيم فيلد على النحو التالي:

1) عدم القدرة على التفكير الطويل، وينجم عن ذلك: العجز عن التخطيط لما سيأتي.
2) قصر النظر.
3) انعدام القدرة على التواؤم مع الإخفاق أو مواجهة المفاجآت.
4) ذاكرة ضحلة.
5) لا يمكن الوثوق بكلامه.
6) الأنانية.
7) ضعف القدرة على المحاكمة.
8) ضعف القدرة على الإصغاء (هو يتكلم فقط، والآخر مستمع فقط، وحين يتكلم الآخر فالمتسلط لا يستمع، يقاطع في أية لحظة مقتحمًا أي موضوع آخر، وهو ينتقل من موضوع إلى آخر للإيحاء بأنه يعرف كل شيء، وأن ما لديه هو المهم).
9) لتتفيه، حين تطرح معه موضوعًا ذا أهمية وهو غير مهيأ له، أو لا يفهم لكثير منه، يتجنبه بتتفيهه.
10) وهو في أعماقه حسود للناجحين، وهذا الحسد ينبع من الاعتراف الضمني انعدام الكفاءة وانعدام الثقة بالنفس.
11) انعدام القدرة على الاعتراف بالخطأ أو الاعتراف بالآخر.
12) الحسد.
13) عقلية الإخفاق: لقد تأقلم المتنمرون، وسمحوا لأنفسهم بالتأقلم، مع الإخفاق، هم مقتنعون بأنهم لن يستطيعوا أن يحققوا أحلامهم، ولن يكونوا ناجحين مثل الآخرين، والمفارقة هي أنه في أعماق المتنمر هناك الإحساس بالإخفاق المسيطر مثل سيطرة تصميمه على تجنبه. ولا يمكن للمتنمر التخفيف عن نفسه في هذه الحالة إلا بإسقاط الإخفاق على الآخرين. ويتضح خوف المتنمر من النجاح (نجاح الآخرين) حين يواجه نجاحهم (حتى، أو خاصة، وهم تحت إمرته) فإنه يقلل من أهمية النجاح ويشير إلى ما اصطاده من نواقص هذا النجاح، ويرى الضحية نفسه مضطرًا إلى العمل بجدية أكبر، فتكون النتيجة أنه يحقق نجاحًا أكبر، فيصر المتنمر على المزيد من الانتقاد.. وهكذا.

14) تغيير التقييم: يقرر المتنمر أهمية أمر ما، ويأمر أتباعه بتنفيذه، وحين يكتمل التنفيذ بإتقان يقرر أن الأمر لا يستحق الجهد ولا قيمة له، بينما تكون القيمة عالية جدًا حين يقوم المتنمر نفسه بالأمر، أما حين يقوم به تابعه فإنه يفقد قيمته.

15) نكران الجميل.

16) انعدام القدرة على المنافسة أو الرغبة فيها، وبدلاً من ذلك يلجأ إلى الدسائس والتآمر.

17) الانتحال: حين يلتقي المتنمر بأقرانه أو رؤسائه فإنه يسرق فكرة أحد أتباعه فيضيف إليها بعض الفذلكات اللفظية ثم يقدمها على أنها فكرته وابتكاره، أو أن التوصل إليها قد تم بتوجيهاته، ولذلك يكون مصرًا خلال العمل على اعتراف الضحايا بأن كل شيء قد تم بتوجيهاته.

18) المتنمر مسكون بالسيطرة: يجب أن يسيطر على الآخرين بقدر ما يسيطر عليه آخرون، ولا شيء يقلق المتنمر ويشعره بالمهانة مثل وجود من يشتغلون باستقلالية فكرية، ولذلك كان الطغاة عبر التاريخ يضطهدون المستقلين، وخاصة إذا كانوا يتميزون باستقلالية اقتصادية أو استقلالية المشروع. والكواكبي يرى أن المستبد "لا يحب أن يرى وجه عالم أذكى، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق".

19) انعدام الحساسية: لا يفكر بنتيجة إهانته للآخر، ويُبنى على ذلك انعدام الاهتمام بأحوال الآخرين ، ومع الحرص على إظهار التعاطف وتقديم التعزيات أو التهاني فذلك من أجل (تميزه) الشخصي، مثل الطاغية الذي يأخذ صورًا مع الأطفال.

20) الشخصية المزدوجة (دكتور جيكل ومستر هايد): هو في بيته، ومع نفسه، حقود، وفي الخارج كيِّس ومتعاطف. وربما كان هناك العكس (كيِّس في البيت وجزار خارجه).

21) مزاج متقلب إنه يمرح متآلفًا، ولكنه في لحظة تالية يقسو كالوحش.

22) تقلب الرأي من دون سبب.

ولا حاجة إلى كثير من التدقيق لمعرفة أن تسلط هذا المسؤول لا يتم إلا في غياب معايير وظيفية في العمل. فالمتنمر هو القانون، هو الذي يغيِّب

القـــانون، وهو الذي يستخدم القانون حسب الموقف الذي يرى نفسه فيه، ولا شـــيء يمكـــن أن يثيره إلى الدرجة القصوى إلا محاولة المرؤوس تذكيره بالقانون، فهو يرى أنه يحكم الآخرين بمزاجه، كما مر معنا، ومن دون قدرة لأحـــد عـــلى مساءلته، وهذا يعني أن الثواب والعقاب مرتبطان برضاه عن المرؤوس، وليس بحق هذا المرؤوس أو نتيجة عمله، فبقاء الموظف المرؤوس في وظيفته منة من الرئيس. وكذلك مكافآته وعقوباته مرتبطة بالرضا والسخط وليس بالخطأ أو بالإتقان، وهذا يضع المرؤوس في حالة يسعى من خلالها لنيل الرضـــا الشخصـــي الذي لا يرتبط دومًا بالعمل، بل يرتبط بالولاء والخدمة الشخصية والتغاضي عن الأخطاء.

/11/

السلبطة السلطوية

إذا كان المتنمر مدعومًا بسلطة قمعية يستخدمها لإثارة الذعر، ويتحرك في ظـــل الذعر منها، استطعنا أن نتصور الحالة التي يعيش فيها الناس كلهم تحت رحمة هؤلاء المتنمرين. إنهم رجال السلطة، سلطة الدولة أو سلطة النزعة الاجتماعية السائدة، ذوو الصلاحيات غير المحدودة، وهذا يرتبط حتمًا بنظرة احـــتقار إلى الطـــرف الآخر، الأقلية الدينية أو العرقية أو أبناء البلد في ظل الاستعمار، أو المواطنين في ظل الحكومات القمعية.

ســـنتحدث إذًا عن أولئك المتنمرين الذين هم القانون نفسه، وهم رجال الســـلطة، وهـــم الناطقون باسمها ومنفذو أوامرها وسياستها، والمتنمر منهم يتصرف وهو باللباس الرسمي أو بالتسلح بهيبة السلطة، وفي وضح النهار.

ولعل من المفيد أن نعرف أصل كلمة "**البلطجي**" التي نستخدمها بالعامية، فالبلطجي أصلاً هو صاحب البلطة أو حاملها، وقد كان الوالي أو الحاكم العثماني يتحرك بمرافقة حرس شخصي مسلح بالبلطات، وبعد انتهاء عملهم الوظيفي يعودون إلى الحياة اليومية وبلطاتهم معهم، فتتحول البلطة في يد كل منهم إلى أداة إرهاب مدعومة من السلطة التي يمثلها.

فالصلاحيات المتطاولة، والتي تجتاح الحياة اليومية والأمن اليومي والحق الوظيفي، تفعل فعلها في البلطجي (المتنمر) ذاته فتجعل شراهته للعنف تزداد حتى يصبح، كما قال عنه سارتر: «وهذا الشخص المتجبر الذي أطاش صوابه ما يتميز به من سلطة كاملة ومن خوف عليها لا يتذكر جيدًا أنه كان إنسانًا. وإنما هو يحسب نفسه سوطًا أو بندقية»، هنا يرى نفسه بلطة.

لا شيء يقف في وجهه، ولا أحد يستطيع مساءلته، ولذلك فهو يستبيح البيوت والحارات والمنتجعات، ويرى من حقه التطاول على الأعراض، ويحمي التهريب أيًا كانت المواد المهربة.

بدل أن يكون الجلاد شخصًا يصبح مجموعة، وبدل أن يكون وظيفة يصبح واجبًا وممارسة اجتماعية ويومية، وبدل أن يكون التعذيب والإهانة في السجن يصبحان في الحياة العامة، وبدل أن تكون عقوبة القاضي أو الحاكم هي التي يجب أن يحسب حسابها، تصبح عقوبة المزاج اليومي المتبدل المتسلط والمتحكم لدى المتنمرين هي التي يرزح المجتمع تحت وطأتها، ولكي لا يبدو النشاز الفردي يجب أن يتحول المتنمر الفرد إلى ظاهرة، ولو مفتعلة، ولهذا يتم إشراك أكبر عدد يمكن تجنيده في عملية الممارسة القمعية. وهنا لا يعود السجن جدرانًا وأبوابًا مغلقة، بل يصبح مجتمعًا بأكمله، ويصبح الأمن الشخصي في البيت هشًا هشاشة أمن السجين في زنزانته.

إن المسألة ليست في إشراك عدد كبير من الناس في تنفيذ العقوبة أو مشاهدتها، بل جعل أكبر عدد ممكن من الناس جلادين طوال اليوم وطوال الحياة، وجعل الناس كلهم سجناء دائمين طوال اليوم وطوال الحياة.

ولمسألة الإشراك في تنفيذ العقوبة جذورها، في الماضي كان يتم إشراك عامة الناس في تنفيذ العقوبة (كالرجم مثلاً)، ثم تحولت إلى "كل مواطن خفير" على الأخلاق والدين والمجتمع، وعلى مبدأ "الحسبة" يستطيع أي مواطن أن يتعهد بالدفاع عن قيم المجتمع، ومع أن الحسبة قد تعني الإحالة إلى القضاء، إلا أنها مسلحة بالقدرة على إثارة العامة، وهذا ما تخشاه السلطة وتعمل على تجنبه، ولذلك فإنها تحكم بما يرضي المحتسبين.

وبهذا يتحول الكثيرون إلى أن يصيروا " الجلادين المتجولين " الذين يستطيعون استدعاء الحكم - بالخيانة والعمالة أو بالكفر والإلحاد - في كل لحظة وعلى كل إنسان وتجاه أي سلوك، وهذه إحدى الثمار المَرضية للصلاحيات الاستثنائية التي تمنح لفئات معينة من الناس لضرورات تحتمها طبيعة السلطة (السياسية أو الدينية). وتتعدد وظائفها الأولى حسب تسمياتها، ولكنها في الأحوال كلها تكتسي حلة إيديولوجية هي إيديولوجية السلطة، سواء كانت هذه السلطة دينية (لجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو عقائدية (واسمها اللجان، أو الحرس الثوري، أو أي صفة أخرى لهذا الحرس، أو السرايا أو نوع خاص من الشرطة أو المخابرات)، ولكن عناصرها يتحولون في الحياة اليومية إلى "متنمرين" تتسع دائرتهم ودائرة نفوذهم تدريجيًا حتى تشمل المجتمع كله وجوانب الحياة كلها.

في الماضي، في المشاركة الجماعية في تنفيذ العقوبة، كان الأمر يرتكز على الإحساس بحماية الدين والأخلاق، ويصبح لكل مواطن الحق في استنفار الناس ودعوتهم إلى حماية الدين من الخطر الذي يراه، وفي الوقت الحاضر هو إحساس بحماية الوطن أو الثورة أو المجتمع، وهو، في الحالتين، استنفار ساذج وتلقائي، أي غوغائي، على مبدأ: إمسك حرامي، للجميع ضد الجميع، ومثال على ذلك النداء الاستنفاري الذي أطلقه أحد الصحفيين في مصر مستنهضًا الناس ضد رواية حيدر حيدر ‹وليمة لأعشاب البحر›، فقد كان عنوانه: من يبايعني على الموت؟ وفيه يقول واصفًا الكاتب والناشر والطابع: «الفاجر ابن

الفاجر، الفاسق ابن الفاسق، الكافر ابن الكافر»، وبعد التقاسيم التنغيمية مثل «لا إلـــه إلا الله.. لـــيس الشرك الخفي بل الكفر البواح. لا إله إلا الله. هذا التنوير الذي يدفعونك إليه يا أمة، برح الخفاء، هو التكفير لا التنوير.. هو نشر الإباحية والسفالة والشذوذ وقتل روح الأمة.. إلخ»، يناشد: «يا جلالة ملوك وفخامـــة رؤساء الدول الإسلامية، لطالما تعاونتم على الإثم والعدوان، فتعاونوا ولو مرة للدفاع عن القرآن»، ويطالبه بذبح الروائي والرواية.

ولـــنا أن نتصور كيف يكون الحال حين تعمم إيديولوجية خاصة على الناس ويرى كل مواطن أن من حقه، أو من واجبه، حماية النظام أو السلطة أو المجتمع أو الوطن أو الدين من أعداء الداخل قبل أعداء الخارج، وبناء على قوانـــين مثل "الحسبة" أو "حماية الثورة" أو "كل مواطن خفير" أو ما شابه ذلـــك من الشعارات والتسميات. إذ يصبح كل مواطن رقيبًا على المواطن الآخر، وتصبح تهمة الإلحاد والكفر أو الخيانة والعمالة جاهزة للالتصاق بكل إنســـان، ومـــن ثم يصبح كل إنسان مهددًا في كل لحظة من يومه وفي كل مكان يكون فيه.

ويصف هادي العلوي هذه الحالة بقوله: «إن قانون العقوبات السماوي يخلق بطبيعة أحكامه وطريقة تنفيذها، بما في ذلك مبدأ الاشتراك في العقوبة، حالة إرهاب متعاكس يقع على الجمهور كما يقع منه، ففي ظل هذا القانون [هـــو يـــتحدث عن القانون الديني، لكنني أرى أن كلامه ينطبق أيضًا على القـــانون المـــدني أو "الثوري" حين يتم إشراك الآخرين من غير المختصين بـــالحكم أو بالتنفيذ فيهما] يعيش الناس في رعب مستمر من الوقوع تحت طائلة إجراء شرعي قد يؤدي إلى الموت بطريقة بشعة أو فقدان أحد الأعضاء لـــدى ارتكـــاب هفوة تنطبق عليها إحدى العقوبات، لكن الجمهور مقتنع بحكم إيمانه الديني بقداسة العقوبة، وهو موافق على تطبيقها بحق الغير وعلى المســـاهمة في التطبيق، وهذا يعني أنه يجمع صيغتين متعاكستين، فهو ضحية وجـــلاد في آن... ولا بد لنا أن نتوقع بناء نفسيًا يتماهى بالقمع المتعاكس

فيدفع إلى التداخل مع حالات القمع التعذيبي التي تقوم بها الطبقات المسيطرة مدفوعة بمصالحها الطبقية، والتي تعرف، في المعتاد، كيفية الاستفادة من النزعات الخطرة لإعطاء سياستها القمعية مداها المطلوب».

ولنا أن نتصور أن من أبرز أساليب الإعداد للحرب الأهلية إقناع كل طرف أن الطرف الآخر، أو الأطراف الأخرى، خطر على الوطن أو الدين أو المجتمع.

وفي المجتمعات المعاصرة قد يرتكز الأمر على حماية تجربة أخرى (سياسية غير الدين، ويصبح لبعض المواطنين، الذين يتم انتقاؤهم وتعيينهم حسب مواصفات خاصة (قد تكون إيديولوجية أو دينية أو إقليمية أو طائفية أو عشائرية) الحق في متابعة المراقبة والتنفيذ خارج دوائرهم وخارج ساعات عملهم. ويختلط الأمر بين أداء الواجب وبين التطاول على حياة الآخرين، كما يختلط بين تنفيذ القانون وتنفيذ المصلحة الشخصية وتحقيق المطامع غير المشروعة وتحقيق المآرب أو الثأر الشخصي (أو العائلي أو الطائفي طبعًا). ولما كان هؤلاء يتصرفون، على الأغلب وفي المجتمعات التي حدث فيها تراكم قمعي مزمن، من دون رقابة؛ فإن الأمر يصبح خاضعًا لنزوات هذه الفئة ومصالحها (أفرادًا وليس حتى مصلحتها كجماعة) في حياتها اليومية المتداخلة مع الحياة اليومية للناس، وهذا يهيئ المناخ لظهور أدعياء يستغلون هذا الجو للادعاء بأنهم يمثلون هذا الطرف من السلطة أو ذاك، من أجل إرهاب الآخرين وتمرير مصالحهم أو فرض أمزجتهم، طالما أن أحدًا لا يجرؤ على التشكيك بهم، أو على التأكد من هوياتهم ووظائفهم، ويتساوى في هذا اللص الذي يدعي أنه يمثل الشرطة أو المخابرات مع الدجال الذي يدعي أنه يمثل الدين.

كان الناس قد تآلفوا مع كلمة أرطة (وتلفظ أحيانًا قرطة) لتسمية أي جماعة تنظم في ما بينها أعمالها غير الأخلاقية، فيقال «أرطة حرامية أو أرطة سكرجية أو أرطة قمرجية.. إلخ». والظريف هو أن أصل هذه الكلمة

تــركي. ففــي التركية القديمة (العثمانية) كلمة أورطة تعني دورية، ودورية الشــرطة أو الــدرك كانت، وهي تقوم بمهمتها، تتطاول على حياة الناس اليومــية، وبعــد انتهاء مهمة الدورية ينصرف عناصرها للسكر والأعمال الأخــرى من تشليح ومقامرة ودعارة، وهؤلاء يمزجون سلوكهم الشخصي بالمهمة الرسمية فلا يستطيع أحد أن يميز بين أداء الواجب والتطاول.

وإذا كانــت هناك هيبة وحماية للموظف عند أدائه لواجبه لأنه يقوم بخدمة الدولة والمجتمع؛ فإن تطاول هذا الموظف أو "لتعسف في استعمال الحق" يستعير تلك الهيبة و "الحصانة" ليحقق مآربه الشخصية أو مآرب الذين يستخدمونه.

وفي بعــض الحالات يتنمر أولئك الذين يحملون الاستثناءات تحت ستار الواجــب الأمني وحماية المرحلة ومطاردة الأعداء في الداخل، ويلتبس الأمر عــلى المواطن فلا يعرف أو لا يستطيع التدقيق في صحة الحالة، ومن ثم لا يســتطيع التمييز متى يمكنه أن يحتج على التطاول وهو مسلح بالقانون ومتى يكون احتجاجه إعاقة لتنفيذ القانون، وهذا الالتباس بالذات هو الذي يعممه المتنمرون ليعيشوا فيه وبفضله.

ويــتطاول المتنمرون الأمنيون، هؤلاء، على حرمات المواطنين وكراماتهم الشخصية والعائلية والدينية وحياتهم اليومية، وهم أنفسهم يفقدون احترامهم لكــل ســلوك منضبط (إلا ما هم مضطرون إليه أمام رؤسائهم) ويرون في طاعة الآخرين للقوانين انصياعًا وخوفًا يثيران الاحتقار، لهذا مثلاً لا يطيعون قانون السير ولا نظام عمل المؤسسات ولا الذوق الاجتماعي العام ولا الدور أمــام الفرن أو الدوائر الرسمية أو مكان البيع، إنهم فوق الناس، ولذلك فهم فوق القوانين التي تحكم الناس.

ولأنهــم يخافون من انقلاب الأحوال فإنهم يتصرفون دومًا وكأنه يومهم الأخير، وهذا الانقلاب قد يحدث بتغير الأوضاع العامة أو تغير موقع "المعلم" أو "الخال" نفسه، أو بتغير رضى هذا العراب عن أحدهم.

ولذلك يريدون تحقيق أقصى درجة من المكاسب والغنائم بأقصى سرعة ممكنة وبأقل وقت ممكن، وينقلون هذه المشاعر إلى أبنائهم فيعلمونهم التجاوز ويحمونهم، ومن ثم يصبحون مع أبنائهم غير راغبين في الانضباط في مدرسة أو في قطعة عسكرية أو في وظيفة، فينجحون عنوة، ويغشون علنًا، ويفرضون امتيازات دراسية ووظيفية لأنفسهم أو لأبنائهم، ويمنحهم هذا التمايز إحساسًا بالتفوق على الآخرين، إن لم يكن امتيازًا بالتفوق فهو الامتياز بالقدرة على التجاوز. وللتوضيح نشبه حالتهم كلها بحالة الوقوف على شارة المرور، فحين لا يطيع أحدهم الشارة يتميز عن الآخرين بأنه لا يطيع مثلهم، ثم يفاخر بأنه سبقهم. وهذا التفوق لا يقف عند حدود الصلاحية الممنوحة بل يتجاوزها إلى الإحساس بالامتياز الشخصي، فيفرضون، حين تتاح لهم فرصة التنظير، اجتهاداتهم السطحية والقمعية بوصفها نظريات ومبادئ، وعلى نحو خاص أيضًا حين يستثمرون أوضاعهم تلك ليأخذوا شهادات عالية من البلد أو البلدان الصديقة ثم ليتسلموا، بناء على هذه الشهادات، مناصب هامة في ميادين الإعلام والثقافة والاقتصاد والفكر والتخطيط.

ولنا أن نتصور أن لدى هؤلاء استعداداً أوليًا للانسجام مع هذه الحالة النفعية غير الأخلاقية ثم للاستفادة منها، وهذا الاستعداد آت حتمًا من ضعف الثقافة وضعف التربية البيتية والاجتماعية والمهنية والأخلاقية.

«وكلما كان المستبد حريصًا على العسف»، كما يقول الكواكبي، «احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه، واحتاج إلى الدقة في اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان».

هكذا يتحول المجتمع كله إلى سجن يحتوي على كل أنواع التعذيب والإذلال المادي والمعنوي وجميع أنواع التشوهات والانحرافات الخلقية والاجتماعية. وفي الحياة اليومية للمجتمع ترى المنظر الذي يفترض أنه لا

يحدث إلا في الزنزانة: مجموعة من المتنمرين السلطويين يضربون شخصًا، وهو، كما جاء عند يوسف إدريس، «بإرادته الخائفة، يمنع نفسه من أن يرد». بينما هـم تـتزايد شراسـتهم ومتعتهم، بينما الناس ينظرون بإشفاق وخوف ولا يـتدخلون «وهـم خائفون من أن لا يكونوا خائفين»، ولنا أن نتصور أن الضرب العلني قد يكون لامرأة أو لطفل أو لشيخ أو لأي شخص آخر.

ولكل شعب عبقرياته في التعبير عن الظلم والقمع والاضطهاد، وطرائقه في ابـتكار التسميات لرموز القمع وأساليبه، وقد اخترع الناس عندنا كلمة جديدة لوصف النماذج الحديثة من عناصر هذه "الأورطات" الذين يتصرفون وكأن القانون غير موجود إلا للآخرين، وهي كلمة "الشبّيحة".

فالشـبيحة قـادرون على تمرير أي شيء من دون أن تستطيع أية جهة مسـاءلتهم، وهم بالطبع أتباع، الشبيحة هم الأتباع المتسلطون باسم نفوذ سـيدهم (الخـال أو المعـلم)، وهـم يمررون أي شيء لأنهم لا يتعرضون للمساءلة، ولا تتعرض سياراتهم أو بيوتهم أو أشخاصهم للتفتيش أيضًا، ولذا فإن سياراتهم التي لا تفتش قد تدخل أفيونًا أو سلاحًا أو بضاعة مهربة وربما جواسيس.

والطريف أن للكلمة أصولها في لسان العرب، فشبح الشيء مدّه، وشبّح الشـيء عرّضه، أي زاده عرضًا، ومشبوح الذراعين عريضهما وواسعهما، وقـد أخذهـا الـناس لجعـلها تنطبق على تمديد الصلاحيات وتعريضها وتوسيعها.

والشـبّيح هـو ذاته البلطجي والمتنمر، ولكن الشبّيح يفعل ذلك كله في العلـن، وهـو مرتد ملابسه الرسمية، يمارس التهريب والابتزاز (عينك بنت عيـنك)، وهو مدعوم ومحمي وواثق من أن هذا الدعم يجعله في عصمة، فلا يطاله قانون ولا يجرؤ على مواجهته أو التفكير في محاسبته أحد، ولذلك فهو لا يطـيع قانونـا، ولا يأبه لانزعاج أحد أو عرقلة مصالح أو مرور أو عمل

وظيفي، يفرض ما يشاء على من يشاء لأنه دولة، أو سلطة، متنقلة بقوانينها الخاصة التي يفرضها مزاج اللحظة، وهذا المزاج لا يختلف إذا كان في مواجهة مـــع دوريـــةٍ مكافحة أو في مشوار استعراضي في السيارة أو عند الدردحة الاستعراضية مع الكأس في مطعم أو ملهى، أو عند اعتراض بنت جامعة أو مدرســـة أو موظفة في الطريق، أو عند نزوة تستيقظ للسباق بالسيارات مع الشبّيح الآخر، أو الخال الآخر، في شارع مزدحم بالناس.

وقد تكون للشبيح صفة رسمية (كأن يكون عنصر مخابرات أو عنصرًا في قطعـــة عســـكرية لها موقعٍ خاص في البلد) وقد يدعي هذه الصفة، وقد لا يحتاج إلى هذه الصفة أصلاً؛ يكتفي بكونه واحدًا ممن يدورون في فلك الخال يخدمه ويلحس صحونه ويستفيد من اسمه في الحياة العامة.

والتشبيح كلمة ممتلئة بالمعاني، فهي مزيج من الزعرنة والسلبطة والتبلي، وهـــي كل ما يقفز فوق القانون علنًا، ومن ثم فهي عقلية مثلما هي سلوك. ولذلـــك قد تجد الشبيحة في المدارس والنقابات والمنظمات ومجلس الشعب ومجلس الوزراء وفي الحزب ذاته أيضًا، فالشبيح بهلوان بارع ووقح، يقفز بك مباشـــرة إلى مجالات لا تخطر لك على بال، فأنت إذا اعترضت على تهريبه مشـــكوك في إخلاصـــك للوطن، وإذا طالبت بتطبيق القانون مشكوك في إخلاصـــك الوظـــيفي، وإذا تساءلت عن سبب إجراء معين هب الشبيحة للتشكيك في إخلاصك للمسيرة أو القائد، وهذا ينطبق على احتجاجك عليه إذا تســـبب لك في أذى شخصي، أو إذا تطاول على بيتك أو ممتلكاتك، أو إذا أراد أن يغشش ابنه علنًا في الامتحانات.

ومـــن القصـــص الطريفة في هذا المجال أن سيارة عسكرية تقف نهارًا في شـــارع مزدحم وسط المدينة فتعرقل المرور من جانبي الطريق، وحين تساءل الـــناس عن سبب وقوفها قيل لهم إن الشبيحة يترلون المهربات، فعلق عجوز مـــن قبضـــايات أيام زمان قائلاً: "بهدلوا التهريب". فهو يعرف أن المهرب

وظيفي، يفرض ما يشاء على من يشاء لأنه دولة، أو سلطة، متنقلة بقوانينها الخاصة التي يفرضها مزاج اللحظة، وهذا المزاج لا يختلف إذا كان في مواجهة مـــع دوريـــة مكافحة أو في مشوار استعراضي في السيارة أو عند الدردحة الاستعراضية مع الكأس في مطعم أو ملهى، أو عند اعتراض بنت جامعة أو مدرســـة أو موظفة في الطريق، أو عند نزوة تستيقظ للسباق بالسيارات مع الشبّيح الآخر، أو الخال الآخر، في شارع مزدحم بالناس.

وقد تكون للشبيح صفة رسمية (كأن يكون عنصر مخابرات أو عنصرًا في قطعـــة عســـكرية لها موقع خاص في البلد) وقد يدعي هذه الصفة، وقد لا يحتاج إلى هذه الصفة أصلاً؛ يكتفي بكونه واحدًا ممن يدورون في فلك الخال يخدمه ويلحس صحونه ويستفيد من اسمه في الحياة العامة.

والتشبيح كلمة ممتلئة بالمعاني، فهي مزيج من الزعرنة والسلبطة والتبلي، وهـــي كل ما يقفز فوق القانون علنًا، ومن ثم فهي عقلية مثلما هي سلوك. ولذلـــك قد تجد الشبيحة في المدارس والنقابات والمنظمات ومجلس الشعب ومجلس الوزراء وفي الحزب ذاته أيضًا، فالشبيح بهلوان بارع ووقح، يقفز بك مباشـــرة إلى مجالات لا تخطر لك على بال، فأنت إذا اعترضت على تهريبه مشـــكوك في إخلاصـــك للوطن، وإذا طالبت بتطبيق القانون مشكوك في إخلاصـــك الوظـــيفي، وإذا تساءلت عن سبب إجراء معين هب الشبيحة للتشكيك في إخلاصك للمسيرة أو القائد، وهذا ينطبق على احتجاجك عليه إذا تســـبب لك في أذى شخصي، أو إذا تطاول على بيتك أو ممتلكاتك، أو إذا أراد أن يغشش ابنه علنًا في الامتحانات.

ومـــن القصـــص الطريفة في هذا المجال أن سيارة عسكرية تقف نهارًا في شـــارع مزدحم وسط المدينة فتعرقل المرور من جانبي الطريق، وحين تساءل الـــناس عن سبب وقوفها قيل لهم إن الشبيحة يترلون المهربات، فعلق عجوز مـــن قبضـــايات أيام زمان قائلاً: "بهدلوا التهريب". فهو يعرف أن المهرب

"زلمة لـيل" شـجاع يغامـر ويخاطر وقد يصطدم بالدولة، ولكن هؤلاء يستخدمون سيارة الدولة ويهربون في عز النهار وفي شارع مزدحم يعرقلون المرور فيه.

ولكن القصة التي لها دلالة أكبر هي أن شخصًا يقف بسيارته على شارة المرور الحمراء، وحين تخضر الشارة يحرك سيارته ليتقدم، وإذا بدراجة نارية، يقودها "شبّيح" تأتي من الزاوية الأخرى حيث الشارة صارت حمراء، وكاد الاصطدام أن يقع، ولكن تم تفاديه، ومع أن الشبيح هو الذي خالف قانون السير إلا أنه نزل وراح يشتم سائق السيارة على عدم تبصره، فقال السائق: يـا أخـي الشارة خضراء والطريق لي، فرد عليه الشبيح وهو يلكمه على وجهه: الطريق لك أنت؟، ألا تعرف أن البلد كله لنا؟.

ويزداد تشبيح الشبّيح حينما يكون في خدمة مباشرة للخال، كأن يكون معـه في المطعم أو الملهى أو في السيارة وهي تجوب الشارع أو وهو مكلف بالمرافقة الشخصية، أو وهو يستقبل الخال في المطار أو على الحدود، أو وهو يرافقه في العمل، لكنه بعد انتهاء مهمته يحمل معه هذه السطوة شخصيًا إلى كل مكان.

والشبيح يشتغل أي شيء لخدمة الخال، إنه يغسل السيارة ويرتب المائدة وقـد يكـنس البيـت ويطبخ وقد يؤمن حاجات البيت كما يؤمن النساء والمشـروب والمخـدرات والجلسات، ويحرس المترل وقافلة التهريب ويرافق الخال خادمًا وحارسًا شخصيًا .

فهـو شخص تخلى عن كرامته، ويريد أن يجعل المجتمع من حوله خائفًا مذعورًا وبلا كرامة أيضًا.

وقـد يحـس رؤوس السلطة القمعية بتفاقم الأوضاع فيلجؤون إلى نوع غريـب مـن الإصلاح، يعالجون الخوف بالخوف، والتخويف بالتخويف، يشـكلون فرقًا أخرى لمراقبة المتنمرين السابقين من دون أن يغيروا شيئًا في

مـناخ القمـع العام أو الفساد العام، وتكون النتيجة أن تتحول هذه الفرق بدورها إلى فرق متنمرين جديدة أشد تميزًا (لأنهم يخيفون الذين يخيفون).

وبما أن هؤلاء المخيفين الجدد كانوا خائفين في الماضي فإن الانتقام من هذا الماضي يحول المجتمع كله إلى مجتمع ثأري مصاب بالذعر.

ولنأخذ المتوالية التالية:

كـان الفلاح يخاف من الدركي، والدركي في خدمة البيك، والبيك لا يلـتقي بـالفلاح مباشرة بل بوساطة نوابه ووقّافيه الذين يقيمون الصلات المباشرة مع الفلاح ومع الدركي.

ومع التجنيد الإلزامي فهم الشاب المجند أن الدركي (الشرطي) لا سلطة له عليه، بل هناك الشرطة العسكرية، فراح الجندي ينتقم من الشرطي، وراح الشـرطي العسكري يذل الجندي في الحياة العامة، ثم ظهرت المخابرات التي تذل الجميع، ثم ظهرت التمايزات بين أجهزة المخابرات فراح كل منها يذل الآخر، ثم ظهرت القطعات العسكرية ذات المواصفات الخاصة والصلاحيات الاستثنائية.

باسم النظام يتم توليد الخوف، وبفعل الخوف يتم فهم النظام نفسه.

وأختتم بالقصة الطريفة التالية: روى لي أحد المعارف (من قيادات العمل الفدائـي) كـيف سمـع أن أحد عناصره في بيروت يستغل وضعه ويمارس "الزعرنة والسلبطة" على الكباريهات ويفرض عليها خوّة. وللتأكد من الأمر نـزل ذات يـوم إلى أحد هذه المحلات وفاجأ عنصره وهو يمارس سلبطته، وأمـام الـناس أمسكه وانهال عليه ضربًا. فذعر العنصر وولى هاربًا، ولكن الـناس لم تفهم الأمر على أنه رئيس يريد أن يمنع مرؤوسه من التطاول على الآخـرين، بـل فهموا أن "القبضاي" القديم قد هُزم أمام "قبضاي" جديد، وبعد أيام جاء أصحاب المصالح ليتحدثوا مع الرئيس (وهم لا يجهلون وضعه الوظـيفي ولا يـرون في هـذا الوضع تناقضًا مع فهمهم بل يرونه الحالة

الطبيعـــية) وسألوه كم سيزيد الخوة عن المقدار الذي كان يتقاضاه العنصر السابق.

والخـــال هو ظاهرة أخرى، إنه مظلة الشبيحة، وهو أيضًا فوق القانون، ويكتسب هذه الصفة غالبًا لأنه ابن أحد المسؤولين أو قريبه، أي أنه يضرب بسيف المسؤول مثلما يضرب الشبّيح بسيف الخال.

وقد تبنى الكلام الشعبي كلمة "الخال"، وبالتدقيق يتبين أن هذه الكلمة لا تطلق على ضابط نظامي عادي أو حسن السيرة، ولا على وزير أو مدير أو أي مســؤول، حــتى لو كان مرتشيًا، إنه زعيم العصابة الذي ليس مضطرًا للعمـــل في الســر، فهو فوق القانون؛ لأنه ضابط في إحدى الوحدات ذات التمــيز ويســتغل وضعه فيها، أو قريب أحد المسؤولين يستغل نفوذ قريبه المسؤول، وكلمة الخال لا يقولها له أي كان، بل يقولها له المؤتمرون بأمره، أو المتملقون أو المتقربون الراغبون في الاستفادة، أي حاشيته الخاصة، والخال هو الــذي يجــند الأتباع بطريقة نظامية (حرسًا وأتباعًا وسائقين وخدمًا للمتعة ونوابًــا عــنه ومــنفذين لأوامره وملبين لطلباته ومتابعين لمعاملاته في دوائر الدولــة)، وهؤلاء هم الذين يتحولون إلى متنمرين. فإذا كان هذا الخال ما يزال في "أوج" شبابه، جاءت تصرفاته غريبة وعجيبة، ولا تخطر ببال أحد. كــأن يدخل بسيارته إلى ملعب كرة قدم قبل المباراة لكي "يشفّط" بها أمام الجماهير وينال تصفيقهم واستحسانهم.

وهــنا تميل الدائرة إلى الانغلاق، فالاستبداد يعتمد على ضعفاء النفوس، والذيــن تكــون دناءتهم وصغارهم هما أفضل أوراقهم الثبوتية، يتبوأ هؤلاء المراكــز القــيادية في الدولــة والجيش والعمل، وبما أنهم لا يعتمدون على كفاءاتهم وليس لديهم ميل، ولا يشعرون بالحاجة، إلى تطوير هذه الكفاءات يكــون من المنطقي أن يميلوا إلى التسلط والقمع الوظيفي، ثم يتحولون إلى القمع الاجتماعي.

/12/

الأخلاق المقموعة

تــزداد صلاحيات الفئات المتنمرة والفئات المشرفة عليها فتزداد الأعباء الاجتماعــية والنفسية والاقتصادية على كاهل الشعب المسكين، الذي يحس بأنــه يعــيش في تجمــع من دون ضوابط، أو كما يقول الدكتور مصطفى حجــازي في «الــتخلف الاجــتماعي - دراسة في سيكيولوجية الإنسان المقهور»، يحس «وكأن العالم قد تحول إلى غابة ذئاب لا يمكن الاطمئنان فيها حــتى إلى أكثر الناس قربًا ولا يمكن الثقة حتى بأكثر الناس صدقًا... ويعمم نمــوذج التسلط والخضوع على كل العلاقات وعلى كل المواقف من الحياة والآخــرين والأشــياء، تتسمم علاقة الرئيس بالمرؤوس بهذا النمط التسلطي الرضــوخي كمــا تتســمم علاقة الرجل بالمرأة، والكبير بالصغير، والقوي بالضعيف، والمعلم بالتلميذ والموظف ورجل الشرطة بالمواطنين».

كل طرف يستسلم أمام الطرف الأقوى منه ليمارس تسلطه بدوره على من هم أضعف منه، ويشتمل الاستسلام أمام حالات الذعر القمعي هذه على استنباط قدرات كبيرة هدفها الإقناع بالانصياع وبانعدام الرغبة في المقاومة أو الاحتجاج وبالرضى التام... ثم بالإعجاب. ويتم التحول من المقاومة والاستياء إلى المراوغة والجبن والخداع والتملق ودفع الرشاوي. وكما يقول الكواكبي: «الاستبداد يضطر الناس إلى إباحة الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس». ويبتكر أورويل كلمة تصبح جزءاً من المفردات العلمية الحديثة، وهي "التفكير المزدوج"، ويقصد بها القدرة على الإمساك بمعتقدين متناقضين في عقل المرء في وقت واحد، والقبول بكليهما، وهذا التفكير المزدوج معشش في نفوس المقموعين، حتى وإن بدا بعضهم في أعلى مراتب السلطة.

وكان مما يلفت النظر، مثلاً، أن عددًا كبيرًا من المسؤولين كانوا يتقربون من شاعر معين بسبب جرأته في شعره، ويفاخرون بصداقته وبالتسجيلات التي لديهم من شعره بصوته، وبعضها مسجل في بيوتهم، لكنهم هم أنفسهم الذين يمنعون طباعة شعره أو السماح بإقامة أمسية شعرية له، فهم في مكاتبهم يفكرون بطريقة تختلف عن تفكيرهم وهم في حياتهم اليومية "الخاصة"، والمخزي أنهم لم يعودوا يشعرون بهذا التناقض، فعدم قدرة الآخرين على ممارسة الرقابة عليهم، أو على انتقادهم علنًا، قد أوصلهم إلى الارتياح لهذه الازدواجية التي صاروا يرونها من طبيعة الأشياء.

وفي «الخوف من الحرية» لإيريك فروم هناك تعريف لسيبون ويل يقول: «السلطة هي القدرة على تحويل الكائن الحي إلى جثمان، ومن ثم إلى شيء».

يقول أحمد عباس صالح في كتاب «اليمين واليسار في الإسلام»: «حين يحكم السيف تضيع الكرامة ويستسلم الناس ويستدعون من أنفسهم كل الكوامن الخبيثة ليعايشوا السلطة القاهرة بأسلحة من طباعها، وفي بعض

فـترات التاريخ يبدو الواقع حادًا شديد الحدة، فيخيل للإنسان الذي يعايش هذا الواقع أن كل ما قرأه عن القيم الخيرة والنزوع البشري إلى الخير إن هو إلا أوهـام كـتاب حالمين لم يصطدموا بالواقع. فعند احتدام هذا الواقع لا يستطيع الإنسان أن يميز بين الخطأ والصواب، وحين ينتصر الباطل في أفضح صـوره في موقعـة إثر موقعة ويكتسح الحكم الإرهابي أمامه كل العقبات يحـدث مـا يشـبه الوباء العام، وتصبح غالبية الناس جبناء وهمازين وقتلة ومجـرمين، حتى يصعب تصديق أن الطبيعة البشرية تحتوي على أي إحساس يمت للخير بصلة. إن نفوس الناس تنهار واحدة إثر الأخرى، والعدوى تنتقل انتقال الوباء المستشري، وتفقد البشرية إحساسها بالكرامة وكأنها هي تحكم عـلى نفسـها بالانحطاط إلى أبعد مدى تعاقب نفسها بما ترتكبه من آثام. وليسـت المسألة بعد ذلك صراعًا بين قوى ظالمة وقوى مظلومة، إنما هي في الواقـع صراع بين القيم الإنسانية العليا والقيم السفلى، ومهما تلبس القوى مـن أرديـة المنطق والعدالة والسياسة فإنها في الواقع تنخر في صميم الكيان البشري وتوشك أن تودي بهذا الكيان إلى الفناء».

إن المجـتمع، أو الفـرد يصل إلى قناعة باستحالة مقاومة الوضع، فيعلن استسـلامه الأخلاقي، وإذا كان هذا الاستسلام الظاهري أمام الحاكم نوعًا مـن «المقاومة بالحيلة – كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم»، كما يقول جيمس سكوت في كتابه الذي يحمل هذا العنوان، فإن هذه الحيلة حين يـتم توارثهـا تـتحول إلى قيم وحكم اجتماعية وأخلاقية، ويتجلى هذا الاستسـلام في حـالات تفشي المجاعة عبر أجيال متتالية، أو تفشي الظلم والاستبداد، وتتم في حالة الاستسلام هذه مجموعة من التحولات على طبائع الـناس وعاداتهم وأخلاقهم وقيمهم وروابطهم، وتنشأ بينهم مقولات لقيم خاصـة تشـي بعزلتهم وضعفهم وابتعادهم عن دائرة الفعل: (امش الحيط الحـيط وقـل يا رب السترة، ما دخلنا، يصطفلوا، بطيخ، أو فخار، يكسر بعضه.. إلخ).

ومن أخطر ما يحدث من تحولات أن كل شخص، مهما علت مراتبه أو مواهبه أو اختصاصاته العلمية أو الأدبية، يحول نفسه إلى خادم لجهاز القمع بالتطوع، وليس ذلك حبًا بالجهاز أو وظيفة الجهاز، بل رغبة منافقة في نيل رضا الجهاز عنه، أو إبعاد اشتباه الجهاز به.

ولنتأمل هذه الحادثة:

أستاذ جامعي مختص بعلم الاجتماع، حضر مؤتمرًا لعلم الاجتماع وقدم بحثًا حول العقبات التي تواجه الدارس الاجتماعي في مجتمعاتنا، وتطرق إلى خوف الناس من قول الحقيقة حول أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، وهذا ناجم من الكذب الذي كان سلاحًا متوارثًا للتهرب من الضرائب أو التجنيد وما إلى ذلك، منذ أيام العثمانيين، أو أنه ناجم عن نوع خاص من الخجل الاجتماعي الذي يجعل الناس يكذبون لتستير فاقتهم وحاجتهم (وهذا ما درسه جوزيه دو كاسترو بعناية في ‹جغرافية الجوع›).

المهم هو أن سفير بلد هذا الباحث عرف بالمحاضرة، فطلب نسخة منها، وقد عدها تشهيرًا بالوضع في بلده فأرسلها إلى وزارة الخارجية في البلد، وقامت وزارة الخارجية بإرسال نسختين منها، واحدة إلى الجامعة التي يعمل فيها الأستاذ، وواحدة إلى **الأمن** للاطلاع «وإجراء ما ترونه مناسبًا».

وحين رأى المعنيون في الجامعة الإشارة إلى أن هناك نسخة قد أرسلت إلى الأمن، اجتمع مجلس الجامعة وبدأ يدرس العقوبة التي يجب أن يفرضها على الأستاذ الجامعي، زميلهم.

وصادف أن طالبًا كان يكمل دراسته العليا في القسم نفسه، وهو سكرتير، أو مدير مكتب، أحد كبار ضباط الأمن، وكان هذا الطالب يلاقي معاملة خاصة بالطبع، بسبب وضعه الوظيفي، حين يأتي إلى الجامعة.

وحين جاء ذات يوم سارع عدد من الأساتذة ورؤساء الأقسام والعمادة للقول أمامه إنهم يتدارسون وضع الأستاذ فلان بسبب محاضرته تلك.

وفاجأهم الطالب بالقول: أين هو الأستاذ؟ "معلمي"، هكذا يُسمى الرئيس في الجيش والأمن، يريد أن يراه، فنشف الريق في أفواههم، وسارعوا مرة أخرى إلى القول: طمئن "المعلم" إلى أننا لم نهمل الموضوع، ففاجأهم مرة أخرى بالقول إن معلمه قد قرأ المحاضرة، وهو معجب جدًا بها، ويريد أن يرى الأستاذ ليهنئه عليها ويتعرف به !

ما حدث هنا إذًا هو أن الأساتذة الجامعيين حولوا أنفسهم إلى جهاز أمني وإلى مخبرين تافهين وجلادين خائبين لزميلهم، بينما أخذ المسؤول الأمني بارتياح وضعية المثقف التي كانت مخصصة للأساتذة.

ولنا أن نجزم أن الجهاز الحاكم يعرف بهذه التحولات المطواعة التي يلجأ إليها المحكومون، إن الحاكم يعرف بعدم محبة المحكوم له، فيتعامل مع المحكومين بما يشبه الحكمة والتحمل، وهو يعرف أن الطاعة التي يبديها المحكومون ليست إلا عجزًا عن المقاومة.

ولعل قول معاوية لعائشة بنت عثمان بن عفان يوضح هذه العلاقة: «يا بنت أخي. إن الناس أعطونا سلطاننا، فأظهرنا لهم حلمًا تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، فبعناهم هذا بهذا».

ولاستكمال هذا الجانب من التحولات الفردية والجماعية المقموعة يجب قراءة القسم الأعظم من كتابي الدكتور مصطفى حجازي «التخلف الاجتماعي» و جوزيه دو كاسترو «جغرافية الجوع».

ويمكن أن نضيف إلى هذه التحولات، التي تشمل السلوك والعادات والقيم، تحولات أخرى تلبس لبوسًا مختلفًا، مثل انتشار الزهد في الدنيا، والابتعاد عن السلطان، والانصراف إلى العلوم الدينية لأن فيها الخلاص الفردي، ثم الإيحاء بإمكانية الخلاص الجماعي. وهكذا يتحول الحل الانهزامي أمام قوة السلطة إلى خدعة ظهور هذا الحل بمظهر الحزب السياسي الذي يريد من جماعته الانسحاب من الحياة والسياسة على أنه حل لمشكلة السياسة والسلطة، وكأن الشعار هو: ازهد في السلطة لكي تستولي عليها.

ونماذج إعلان الاستسلام والعجز، هذه، تذكرنا بديسموند موريس، فهو يدرس في كتابيه «القرد العاري» و «حديقة الحيوان البشرية» تفاصيل التحولات التي تجري على حيوان مستنفر أمام حيوان يثبت أنه الأقوى، والحيوان الضعيف يريد أن يُري الآخر إلغاء استنفاره وإعلان استسلامه. ويورد موريس نماذج من السلوك الحيواني في حالات الإذعان، فبدل شد القامة والجسد يتم إحناؤهما، وبدل نفش الريش أو الشعر يتم إسدالهما، وبدل التكشير عن الأنياب يتم إغلاق الفم، وبدل خروج المخالب يتم تستيرها وإخفاؤها، ثم تبدأ حركات أخرى، كأن يترك الشمبانزي يده في متناول خصمه ممدودة ليعضّها إن شاء. وبعد ذلك تلجأ الحيوانات إلى سلوكيات صغيرة تهدف إلى إثارة مضادات للعدوانية لدى الخصم، النموذج الأول هو نموذج طلب الطعام، فيثير لدى الخصم القوي الرغبة في رعاية الضعيف وإطعامه، وهو سلوك مفضل لدى الطيور، والنموذج الثاني هو التحسس، يبدأ الضعيف بتحسس القوي أو بالاستكانة له وطلب التحسس منه، والنموذج الثالث هو الإمعان في إظهار الضعف والاستسلام حتى يأخذ الضعيف الوضعية الجنسية للأنثى فيثير لدى الخصم القوي رغبة جنسية تلغي موقفه العدائي، وقد يشجعه على ممارسة خادعة للجنس سواء كان الخصم الضعيف ذكرًا أم أنثى.

هذه السلوكيات كلها ليست وقفًا على الحيوان، بل يلجأ إليها الإنسان أيضًا في إعلان الاستسلام والانصياع، وحين يكون الخصم الأقوى هو السلطة الغاشمة التي بيدها أدوات القمع وجيوشه يلجأ المجتمع كله إلى هذه الأنماط السلوكية، ويتحرك الجميع وكأن كلاً منهم يحمل جلاده في نفسه (يثبت له براءته في كل لحظة) يمنعه من التصريح بحقيقة رأيه وعواطفه وحاجاته، وتهيمن الكآبة القاتمة على الجميع... فتخرج الأفراح والأغنيات والموسيقى حزينة مقهورة، ويسود التشاؤم ثم عدم المبالاة.

هذه الحالات يمكن تلخيصها كلها بعبارة أورويل «التفكير المزدوج» أو بكـلمة من تراثنا هي «التقية»، وتعني اتقاء شر الظالمين بعدم الاصطدام بهم وبإخفـاء حقيقة الرأي والمعتقد وحتى إخفاء الإحساس بالكرامة، بل وحتى إظهار العكس، وهي كلمة أطلقت على نحو خاص على حالة الشيعة في بدء الحكـم الأمـوي حين كان علي بن أبي طالب يُشتم على المنابر ولتسويغ سكوتهم وقبولهم.

غير أن الحالة تنطبق على كل فئة مستضعفة أمام فئة متسلطة، وقد تكون الفـئة المستضعفة هي الشعب كله، إذا كان كما يسميه الكواكبي «أسراء الاستبداد»، يقول الكواكبي: «فالأسير يقابل التجبر عليه بالتذلل والتصاغر، وتعديـل الشـدة عليه بالتلاين والمطاولة وإعطاء المطلوب منه بعد قليل من التمـنع، واسـتعمال سياسة الشد والإرخاء والكسب مع شكاية الحاجة، وحفظ المال بالإخفاء، والتعامي عن زلات المستبد....

... أسـراء الاسـتبداد ملذاتهـم مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحـيوانات التي تيسرت... ومنحصرة في استفراغهم الشهوة وكأن أجسـادهم خلقـت دمـلاً على وجه الأرض وظيفتها توليد الصديد ودفعه....

... أسراء الاستبداد، ولاسيما الفقراء منهم، كلهم مساكين لا حراك فـيهم، يعيشون منحطين في الإدراك، منحطين في الإحساس، منحطين في الأخلاق... وقد أبدع من شبه حالتهم بدود تحت صخرة....

... وإذا علمـنا أن مـن طبيعة الاستبداد ألفة الناس بعض الأخلاق الرديـئة وأن منها ما يضعف الثقة بالنفس علمنا لماذا يقل فيهم أهل العمـل والعـزائم... يعيشون يائسين متواكلين متخاذلين متقاعسين متفاشلين....

... وأسـير الاسـتبداد يعيش خاملاً خامدًا ضائع القصد حائرًا لا يـدري كـيف يميت ساعاته وأوقاته، ويدرج أيامه وأعوامه وكأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب...

.... والاستبداد يجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه لأنه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد. ويجعله حاقدًا على قومه لأنهم عون الاستبداد عليه، وفاقدًا لحب وطنه لأنه غير آمن على الاستقرار فيه، ويود لو انتقل منه، وضعيف الحب لعائلته لأنه ليس مطمئنًا على دوام علاقته معها، ومختل الثقة في صداقة أحبابه لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ، وقد يضطرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون، أسير الاستبداد لا يملك شيئًا ليحرص على حفظه لأنه لا يملك مالاً غير معرض للسلب ولا شرفًا غير معرض للإهانة..

... والأسير المعذب المنتمي إلى دين يسلي نفسه بالسعادة الأخروية.

النظام القمعي هو الذي يفعل ذلك كله، والقمع لا يتجزأ مع أنه يبدو أحيانًا سياسيًا وأحيانًا اقتصاديًا أو اجتماعيًا أو ثقافيًا.

ويورد قدري حنفي في مجلة ‹علم النفس› قولاً لفيلهلم-فونت مفاده: «إن أول ساعة ميقاتية يعرفها المرء هي أول رجل شرطة يتعامل معه... فهي تجلب معها كافة تلك القيود التي تحد من حريتنا الشخصية... إن ثمة غريزة طبيعية تدفع البشر إلى النضال ضد أية قوة تقمع استقلاليتهم، إننا نستطيع أن نحب أي شيء: بشرًا وحيوانات وزهورًا أو أحجارًا - لكن لا أحد يحب رجل الشرطة».

/13/

مجتمع المقموعين

هناك مقولة تكرر الأيام إثبات صحتها، وهي أن مجتمعات القمع، القامعة والمقموعـــة، تولّد في نفس كل فرد من أفرادها ديكتاتورًا، ومن ثم فإن كل فرد فيها، ومهما شكا من الاضطهاد، يكون مهيأً سلفًا لأن يمارس هذا القمع ذاته الذي يشكو منه، وربما ما هو أقسى وأكثر عنفًا، على كل من يقع تحت سطوته، فالمثل المحتذى متوفر أمامه كل يوم في من يضطهدونه، وهو شاء أم أبى يـــرى فـــيهم ما يمكنه أن يتقلده، ولهذا يتبين أن الموظف الضعيف الهزء والمسخرة له أنياب لا تقل حدة وإيذاء عن أنياب من يهزؤون منه ويسخّرونه أو يســـخرون منه، ولا تظهر هذه الأنياب، أنيابه، إلا حين تتاح له الفرصة للترقي الوظيفي، وحين يصبح آمرًا على آخرين يستطيع أن يضرهم وينفعهم.

والمشـــهد المـــتكرر في كـــل دائرة من دوائر هذه المجتمعات هو مشهد الشخص المتزلف لمن هم أعلى منه، والقابل للإهانات التي يتلقاها منهم والتي يمســـحها عن نفسه بافتعال الضحك أو عدم الفهم أو عدم المبالاة. ثم هذا الشخص ذاته وهو يتحول إلى جبار لا يرحم في تعامله مع مرؤوسيه.

وهناك إمكانية لتقديم مشهد مسرحي قد يصبح ذروة في الإضحاك، وهو مشـــهد موظـــف يتكلم من مكتبه عبر هاتفين، الأول مع رئيسه والثاني مع مرؤوســـه، مع الانتباه إلى تغير النبرة والألفاظ وحتى طريقة الجلوس مع كل حالة.

وقـــد يكون هناك من يريد أن يتجنب توجيه الإهانة إليه أمام الآخرين لكي لا تقلل هذه الإهانات من هيبته أمام مرؤوسيه أو زملائه وأقرانه، ولكن هناك، أيضًا، من لم يعد يبالي بذلك، وربما لأنه لم يستطع أن يتجنب ذلك، فيتقبل الإهانات والأوضاع المسيئة والتعليقات المهينة أمام الآخرين بسرور، بـــل إنه يريد إظهارها جلية لا لبس فيها، وذلك لأنه قد قرر أن الأمور في الدنـــيا هكذا، ويريد من الآخرين أن يصدقوا أن الدنيا هكذا، وأن يستعدوا لتقبـــلها هكـــذا، فـــلا يشمتون به إذ يروها تقع عليه، ولا يفاجأون بها إذ يمارسها هو عليهم، ومن ثم فإن عليهم أن يتقبلوا الإهانة والإذلال منه بمقدار ما تقبل منهما أمامهم.

وقـــد روى لي أحدهم قصة متعلقة بهذا الموضوع حدثت في أحد البلدان العربـــية، قـــال إن أحد الشباب تزوج من قريبة للأسرة الحاكمة في إحدى الـــدول، فهيأه هذا الزواج لاستلام مناصب عديدة كان بينها منصب وزير، ويبدو أن الزوجة أحست أن الزوج "يلعب بذيله"، وأن هناك "فلانة" معينة تواعده وتزوره، فأوعزت إلى بعض نفايات الحاشية بمراقبته، وجاءها الهاتف ذات يوم يخبرها أنه يستقبل الآن هذه الفلانة في مكتبه، فما كان منها إلا أن استقلت سيارتها ودهمت الوزارة، ثم اقتحمت مكتب الوزير، و لم تجد "فلانة"

عنده. ولكنها لم تعد قادرة على كبح جماح غضبها فانهالت على الوزير أمام المراجعين والموظفين بكلام من نوع: «صرت وزيرًا يا حقير؟، وصدقت نفسك؟، حذائي هذا هو الذي جعلك وزيرًا.. إلخ »، وخلعت حذاءها وقذفته به، ولملم الوزير الإهانات فابتلعها وتابع عمله الوزاري وحياته الزوجية كأن شيئًا لم يحدث، بل إنه صار أكثر قسوة على موظفيه.

وقد رأيت ذات يوم مشهدًا لا أظن أنني أستطيع أن أنساه، وكان على شاشة التلفزيون في نقل حي لمباراة كرة قدم يحضرها عشرات الآلاف من المشاهدين ويتابعها على الشاشة مئات الآلاف.

فنحن نعرف أن لاعب الكرة المتميز نجم عند جمهوره، ونجوميته تنافس نجومية المطربين والراقصات.

وكان في المباراة لاعب متميز، ويبدو أن الفريق كان يعول عليه، وهذا يعني من طرف آخر أنه سيبيض وجوه الإداريين والمشرفين وغيرهم إضافة إلى تبييض وجه الفريق.

وحدث ما يلي: لاعب من الفريق الخصم ارتكب خطأ فطرده الحكم من المباراة، وخرج اللاعب بصمت، فاستقبله إداريو فريقه مطيبين خاطره، وزادت حماسة الفريق الوطني لأنه يلعب بلاعب زائد على خصمه، ولكن بعد دقائق قليلة رأى الحكم أن لاعبنا المتميز قد ارتكب خطأ يستدعي طرده، فصفر وأخرج له البطاقة الحمراء، وخرج اللاعب من الملعب.

ولكن ما إن وصل إلى خط الملعب حتى بادره أحد الإداريين بصفعتين مدويتين أمام الجمهور واللاعبين وكاميرات التلفزيون.

وانتهى الأمر عند هذا الحد. لم يعلق أحد على الأمر، ولم يذكر الحادثة أي صحفي من صحفيي الدوريات الرياضية، ولا أعرف إن كان هناك من كتب عن الأمر خارج البلاد، سواء من مراسلين في الداخل أو متابعين على الشاشة في الخارج.

ربما لم يعلق أحد على الأمر لأن هذا الإداري "مدعوم"، ولكنني لا أشك في أنـــه كان سيقدم على فعلته هذه لولا أنه مستعد لأن يتلقى صفعة مهينة مشـــابهة، وأمـــام جمهـــور حاشد، من شخص "مدعوم" أكثر منه، أو من الشخص الذي يدعمه، ما يستدعي التعليق هنا هو أنني لم أعد أتصور كيف يمكن لهذا اللاعب أن يلعب في مباراة أخرى، وأمام الجمهور الذي رآه يتلقى الصفعتين.

ولكن اللاعب استمر في اللعب مع فريقه بعد ذلك وربما حتى الآن.

ومن أجمل ما سمعت في هذا المجال قصة رواها لي أحد الأصدقاء، وقد رآها في إحـــدى حدائق الحيوان، فقد أراد المشرفون نقل بعض الحيوانات إلى أمكنة أخـــرى، وحـــين جاء دور الحيوانات المفترسة جاؤوا بأقفاص قوية، وراحوا يفتحون أبوابها بحيث تكون ملاصقة للمكان الذي يكون فيه الحيوان المفترس، ويبدأون بوخزه وضربه إلى أن ينتقل إلى القفص الثاني فيغلقونه عليه وينقلونه.

وحـــين جـــاء دور الأســـد واللبوة قاموا بالعملية ذاتها، فتم نقل اللبوة، وانتقلوا إلى الأسد بالطريقة ذاتها،ولكنه لم يستجب لهم، وراح يزأر ويستنفر ويصـــول ويجول في مكانه، وبالضرب العنيف والوخز القاسي أجبروه على مغادرة مكانه والدخول في القفص مع اللبوة.

وكانـــت المفاجأة أنه حين دخل القفص انقض على اللبوة وأشبعها عضًا وتجريحًا بأنيابه وبراثنه، وهي مستكينة تتحامى بانصياع ومن دون مقاومة.

إن ما جرى في القفص ليس إلا صورة عما يجري في الحياة كلها، وهذا الـــدرس لـــيس وقفًا على الدوائر الحكومية أو مراتب السلطة وحدها، إن المجـــتمع المقمـــوع ذاته، وكله، يقوم على هذا المنطق، وهذا ما يطبع بطابعه علاقة الرجل بالمرأة، والزوج بالزوجة، والأخ بالأخت، وعلاقة الأب والأم بالأبناء، وعلاقة الكبير بالصغير، والغني بالفقير، والقوي بالضعيف، وكل آمر بكـــل مأمور، فالمسؤول المقموع من قبل من هم أعلى منه سلطة يتحول إلى

آمـــر قامع في دائرة نفوذه، والمواطن المقموع يتحول إلى زوج قامع لزوجته وأولاده، والمرأة المقموعة تتحول إلى أم قامعة أو جارة متسلبطة.

إن الإنســـان بطبيعته ميال إلى رفض الإذلال، ولذلك فإن المهان الذي لا يستطيع رد الإهانة يجب أن يصرّفها مثل الفيتامين سي الزائد في الجسم، وهو حين لا يستطيع ردها من مصدرها لابد له من أن يصرفها باتجاه آخر (كأن يبكي مثلاً)، إلا أن الشائع هو التصريف نحو من يستطيع أن يتجبر عليهم.

تتقـــبل الأم ما سوف تمارسه هي على الأولاد، ويتقبل الأولاد ما سوف يمارســـه الكـــبير منهم على الصغير، أو ما قد تعلمه جيدًا وخزّنه في ذاكرته ليمارســـه على أولاده في المستقبل، كما يتقبلون ما يمارس عليهم في المدرسة لأنـــه هو ذاته ما سوف يمارسون ويطبقونه في الحياة العملية التي سيخرجون إليها سواء في سلك التعليم أو في أي سلك وظيفي، وتخفي الأسرة في طياتها تلك الرغبة الاضطهادية الانتقامية التي سوف تمارسها على الجيران الضعفاء.

والمشـــهد الطريف (أقصد المخزي) هو أن شخصين قد يتبادلان المواقع فيصبح أحدهما رئيس الآخر بعد أن كان مرؤوسه، المخزي هو أن الذي كان رئيسًـــا يقـــبل مباشرة، وبتصاغر، تلك المعاملة المذلة التي سيعامله بها رئيسه الجديـــد، وهي المعاملة ذاتها التي كان يتعامل بها مع مرؤوسه السابق، رئيسه الحالي.

وقـــد تكون الأمور أكثر ميكانيكية، هناك موقف صعب أو مهمة صعبة تواجه المؤسسة، التي قد تكون المجتمع بأسره. وحين لا يستطيع الآمر معالجة الموقف يحيل أمر تلك المعالجة إلى مرؤوسيه وبالشدة المطلوبة التي تمنع المناقشة أو الاحتجاج، وهؤلاء الذين أحيل إليهم أمر غير ممكن التحقيق والتنفيذ، أو غير مقبول إنسانيًا، أو غير قابل للتبرير المنطقي، وهم عاجزون عن مناقشته أو رفضه، يحيلونه بدورهم إلى مرؤوسيهم وبعنف أشد. وهنا تصبح القسوة في تنفيذ الأمر بديلاً عن الفهم والعقل والمنطق.

وفي هـذه السلسلة (وهذه الحالة) أمر نفسي يجب الانتباه إليه، إن الآمر يعترف على نحو غير مباشر أنه غير مؤهل أو غير كفء للتنفيذ أو لفهم الموقف ومن ثم لشرحه وتوضيحه، هو لا يعرف إلا ضرورة تنفيذه، وهو يقول بطريقة غير مباشرة للمرؤوسين: لقد ترأست عليكم ولست بخيركم، ترأست لأسباب سياسية أو عسكرية أو دينية أو طائفية، ولكن يجب أن تساعدوني على النجاح بكفاءاتكم، فأثبتوا هذه الكفاءات في خدمتي وحدها.

ولكن الأخطر من ذلك هو علاقة المجموعات الاجتماعية إحداها بالأخرى، فقد يمارس المقموع، بالتعاون مع آخرين (يكون هناك قاسم مشترك ما بينهم غير الاضطهاد ومعاناته؛ كالهوية السياسية أو الدينية أو الطائفية أو العرقية أو ما شابه ذلك، وربما كانت هي ذاتها الهوية التي يُضطهدون بسببها) ديكتاتوريةً وقمعية من نوع آخر على آخرين لهم سمة أخرى مختلفة (دينية أو طائفية أو إقليمية أو عرقية).

في مجتمعات القمع تنطبع علاقات التجمعات الاجتماعية في ما بينها بهذا الطابع، فكل منها تحاول أن تحمي نفسها من الاضطهاد السائد والساري (كالأمراض) بأن تتحجر في غيتو خاص بها، غيتو متفرع في السكن والعمل الوظيفي وأمكنة اللهو وتمضية الوقت، وحتى في انتقاء البقال والحلاق واللحام والمدرسة الخاصة، وتصبح الازدواجية في السلوك والتعبير والتعامل هي السمة السائدة، فهم في حاجة إلى تبني مقولات الوحدة الوطنية وشعاراتها، ولكنهم في الوقت ذاته يعرفون أنها ليست صحيحة بدليل ما يمارس عليهم من عسف واضطهاد.

وهي ازدواجية قائمة على النفي أو الإلغاء للآخر نفسيًا لأنه ليس من الممكن إلغاؤه واقعيًا، إنها نوع من التقية والانكفاء الباطني، ولكن مع الاستعداد الكافي لهذا الإلغاء الواقعي حين تحين الفرصة (ولو بالإبادة؛ وهذا ما نراه في الحروب الأهلية)، وتقوم في الوقت ذاته على التغزل بالذات ترميمًا

للإيـــذاء والتشـــوه النفسيين الذين تسبب بهما التعامل اليومي المذل وعقلية الغيتو السوداوية المنغلقة.

> **نحن في ما بيننا نعرف أننا خير الموجودين، وهؤلاء الذين يضطهدوننا يشكون من نقص في إنسانيتهم أو دينهم أو أخلاقهم، وسنريهم أي نقص يعانون منه حين تحين الفرصة.**

في مجـــتمعات القمـــع يتعـــلم أبناء الأقليات أنه ليس لهم الحقوق ذاتها إلا في الإطار النظري، فابن الأقلية، على مستوى الواقع، مهدد في وظيفته وسكنه ولقمـــة عيشـــه وحـــتى الاستمرار في العيش أصلاً، أو العيش في هذا المكان بالذات، وهو يحس أيضًا أنه قد يتحول، مع الأقلية التي ينتمي إليها، إلى كبش فـــداء في الأزمـــات، قد يلقى على كاهلهم وزر هزيمة عسكرية، فيتّهمون، كطائفة أو أقلية من أي نوع، بالتجسس أو بعدم الولاء الكافي، أو بعدم إظهار الحماســـة الكافية للقتال، أو الحزن الكافي عند الهزائم والفجائع. وربما اتهموا اتهامـــات غيبـــية كأن يعدوا مصدر النحس والشؤم وسبب كل شر ومصيبة. ولاشـــك أنـــنا نســـتطيع كلنا أن نتذكر حالات مشابهة رأينا فيها مجتمعاتنا ذاتهـــا وهي تتألب على أقليات من نوع أو آخر للتخلص من عبء الإحساس بالهزيمة، فتحمِّل هذه الأقلية أو تلك وزر الهزيمة أو التسبب في وقوعها.

وهنا تنشأ تحالفات غير مرئية، وغير صحية، اجتماعيًا، أيضًا.

إن كـــل أقلية ترى نفسها متحالفة مع أقلية أخرى لا تكنُّ لها الود، ولا تتضامن معها تضامنًا فعليًا، بل تنظر إليها على أنها أداة الإيضاح التي يجب أن تفهـــم مـــنها ما قد تؤول إليه أحوالها، منها تعرف كم هي مهددة، ومنها، أيضًا، تعرف كم أمامها من فرص في هذا النوع من المجتمعات.

وتحـــدد الأقلـــية هويتها بما يجمعها: برموزها الدينية مثلاً وأحيانًا بلهجة منطقتها أو زيها الشعبي أو رقصتها، (وترى في المرابع الليلية ما يبدو أنه قمة الـــتطور الاجتماعي أو الانفلات من القيود، ولكنك تكتشف بالإمعان أن

هذه التجمعات المتحضرة ظاهريًا تخفي ارتباطات طائفية أو إقليمية متخلفة، فالجميع هنا من طائفة واحدة. وهم هنا لأن صاحب المكان من الطائفة أو لأن المطرب الذي يغني، وأحيانًا لأن الراقصة التي سترقص، من هذه الطائفة، والجميع يحسون بالانتشاء لأن تجمعهم "الماسوني" هذا لم ينتبه إليه أحد بعد، وحين يُنتبه إليه فإنه يعطي إحساسًا آخر بالانتشاء لأن الطائفة قد أعلنت عن نفسها بتظاهرة ذكية، كما ترى في الأندية والمقاهي التي تضم ما يفترض أنهم مثقفون طليعيون يناقشون أخطر قضايا الأمة والحياة والتكنولوجيا والنظريات الفلسفية والسياسية التقدمية لتكتشف أيضًا بقليل من الإمعان أنها تجمعات طائفية، فالمسيحيون مع المسيحيين، والمسلمون مع المسلمين، ثم الفرز الطائفي: الكاثوليك مع الكاثوليك والسنة مع السنة والشيعة مع الشيعة والدروز مع الدروز والعلويون مع العلويين، وهكذا...).

ومع إطلاق الشعارات التوحيدية ظاهريًا يكون المجتمع كله مسيرًا في تلك القنوات الطائفية أو الإقليمية، وتصبح الأقلية مرهفة الإحساس برموزها، فتمحي الحدود، في الأقليات الدينية، بين المتدين وغير المتدين، إن الجميع يتصرفون التصرف الطائفي ذاته، ويرون في هذا التصرف "**التضامني**" حماية لهم ولرموزهم ولهويتهم، وفي الحوارية التي رأيناها في أحد أفلام الكاوبوي ما يلخص هذه الحالة، إذ يسأل القاضي قاتلاً: لماذا أطلقت عليه النار؟ فيجيبه: لأنه شتم المسيح، ويقول القاضي: ولكنك لست متدينًا بحيث تدافع عن المسيح، فيجيب: صحيح يا سيدي، ولكنه حين شتم المسيح كان يقصد أن يهينني.

وهذه الحساسية العالية ليست وقفًا على الأقليات. بل هي شائعة في المجتمعات المهزومة كلها، ففي تلك المجتمعات يتكون حتى لدى الأغلبية الاجتماعية أو الدينية إحساس بأنها مستهدفة، وتصبح هذه الأكثرية، في علاقتها بالعالمين الداخلي والخارجي، في وضع شبيه بوضع أصغر أقلية في المجتمع، تزداد حساسيتها في التعامل مع خصوصياتها، وتنفر من أي نقاش

جـــدي يمكـــن أن يضـــع أيّا من مقدساتها (التي تتزايد مع تزايد إحساسها بالحصـــار وتآمـــر الآخـــرين، العالم كله، عليها) موضع تساؤل أو نقاش، وبالمقـــابل فإنها تتعامل بقسوة شديدة مع من تظنهم أعداءها إذا أتيحت لها فرصـــة التسلط أو الاستعداء، ويكون الانطلاق من عقدة سادية - مازوشية مـــزدوجة: "نحن الذين نتعرض للاضطهاد ونسكت عنه سننزل، أو نطالب بإنـــزال، أقســـى العقوبات وأقصاها وأشدها"، أي أنه هنا بالذات يستيقظ الديكتاتور الذي رباه القمع في نفوس المقموعين.

والخطـــورة هي أن الأقلية التي تحس بأنها مهدورة الحقوق في المجتمع، أو أنها مهددة، يسيطر عليها الإحساس بعدم مسؤوليتها الاجتماعية، على مبدأ: فلـــيدافع المستفيدون من هذا المجتمع عن مجتمعهم الذي يستفيدون منه ويوفر لهـــم السيطرة والحماية، ولذلك فإن الناطقين باسمها قلما يبدون آراءهم في المســـائل الاجتماعية العامة، لكنهم يرفعون الأصوات دفاعًا عن الأقلية (أو الأكثرية التي تحمل عقدة الأقلية) ضد ما يهددها على نحو خاص.

ولمـــا كانـــت الأكـــثرية في مجتمعاتنا إسلامية، ولما كانت هذه الأكثرية، وبســـبب انـــتمائها إلى مجتمعات مهزومة، تتحرك بعقلية الأقليات المضطهدة؛ فإنـــنا نرى أن العصبية الدينية لديها تستيقظ ضد كاتب كتب مقالاً أو كتابًا أو قصيدة، أو ضد ممثلة ظهرت "غير محتشمة" في مشهد من فيلم (كما حدث في مصر مثلاً تحت شعار قانون الحسبة)، فتقام الدعاوى القضائية ضد الكاتب و الشـــاعر و الممثلة ويُندد بهم في خطب المساجد وجلسات الذكر والدروس الدينـــية، ولكننا لم نسمع عن واحد من هؤلاء المتحمسين للحسبة والفضيلة والديـــن أنـــه قد استنكر مروّج صفقة لحوم فاسدة أو ندد بسارق من أموال الدولـــة أو استخدم الحسبة ضد من يريد أن يهادن العدو أو يصالحه، وكأنما لا يهدد أدياننا، أو حياتنا، اقتصاد ولا غش ولا احتلال ولا أوبئة، لا يهددها إلا شماتة الأديان أو الطوائف أو الدول المجاورة أو طمعها في ما نحققه، تهددها كـــلمة في ديـــوان شـــاعر ولا تهددهـــا صفحات من الاتفاقيات الاقتصادية

أو السياسية التي تضع الاستقلال الوطني كله تحت الوصاية أو التهديد بالزوال، ولا يهددها العدو المدجج الذي ينكر علينا حتى حقنا في الوجود، تهددها النية التي قد تكون مبطنة ومتوارية عند كاتب ليس في تاريخه كله لطخة واحدة يمكن أن تدينه بالطائفية أو الإقليمية أو التحزب المرضي لأي طرف من أطراف تلك الانتماءات المتخلفة، ولا يهددها ذهاب رجال مرموقين إلى صفوف العدو، يهددها ذهاب ابنهم أو ابنتهم إلى السينما ولا يهددها ذهاب الحكم كله إلى مؤتمرات عقدت من أجل تعرية الوطن من استقلاله.

ومشكلة المشكلات أن هذا كله يتم تحت شعارات براقة من الإخاء والتكاتف الاجتماعي والتعايش بين فئات تخفي كل منها الكراهية العمياء للفئات الأخرى، ويتحين كل منها الفرص للانقضاض على الفئة الأخرى والفتك بها، إنها التقية العامة والباطنية الخاصة بالمجتمعات المقموعة والمهزومة في آن، وازدواجية مريعة بين الظاهر والباطن، الجميع يقولون الكلام الجميل الذي يتضمن المجاملة والتضامن والتعايش الأخوي، والجميع يخفون الأحقاد المبطنة والنيات المبيتة.

إن المجتمع المهزوم كله مجتمع مقموع، وهو مقموع بالدرجة الأولى بإحساسه بضعفه، ولذلك فهو يمارس أقسى أنواع القمع على أبنائه، وهو يبحث عن سبب هزيمته، أو ما يساعده على تغطيتها، في التشدد في العلاقات الداخلية بين الأفراد في ما بينهم أو بين التجمعات في ما بينها، ومثلما يرى سبب الهزيمة كامنًا في وجود التجمعات الأخرى "بين ظهرانينا"؛ كذلك يجد سببها في عدم تمسك الأبناء بإرث الأجداد، والعمى الناجم من الهزيمة هو الذي يجعل إرث الأجداد متمثلاً في ظواهر الأمور والحجاب والملاءة وفي الانتماءات الضيقة إلى المكان أو الطائفة أو العشيرة بدلاً من أن يكون متمثلاً في الهوية الوطنية العامة.

ولذلك فإنه يسهل في مجتمعاتنا تفجير أزمة أو فتنة طائفية أو دينية أو إقليمية بين تلك الفئات في أي لحظة، ولذلك أيضًا يزداد التضييق على الفكر

والإبـــداع نظرًا لأنه يتعامل مع مجتمعات مريضة تخجل من أمراضها، وبدلاً مـــن أن تعـــالج هذه الأمراض، أو تعلنها على الأقل، تسكت عنها مكابرة، وتعـــد الإشـــارة إليها فقط نيلاً من الحصانة الأخلاقية أو من سمعة الانتماء الوطني... وما إلى ذلك.

ولعله لابد من المقارنة مع أعدائنا ومع المجتمعات التي نرى، نحن وحدنا، أنـــنا أفضل منها أخلاقيًا واجتماعيًا، وندّعي تميزنا عنها بالروابط الاجتماعية والأسرية والإخاء الاجتماعي.

لمـــاذا يسهل تفجير أزمة بين المسلم والمسيحي أو بين السني والشيعي أو بـــين ابن الشمال وابن الجنوب أو بين ابن هذه المنطقة وابن تلك المنطقة في مجتمعاتـــنا ولا يمكن فعل ذلك في تجمع مثل التجمع الأمريكي أو الأوسترالي أو الـــتجمع الإسرائيلي؟، فهذه التجمعات تحوي الشتات من كافة أصقاع الأرض، وفي إســـرائيل تجمـــع ما كنا نسميه "**شذاذ الآفاق**"، وتكمن فيه مشـــكلة تاجـــرنا بها في إعلامنا حتى شبعنا، وهي مشكلة اليهود الشرقيين واليهود الغربيين؟ ولماذا يستطيع العدو ذاته أن يستغل مشكلة هذه الانتماءات علـــنًا عندنا ولم ننجح نحن طوال تاريخ صراعنا معه أن نستغل عنده مشكلة من هذا النوع أو من أي نوع؟ ولماذا توجد الانتماءات الدينية والعرقية علنًا في المجـــتمعات الأوربية أو المجتمعات المهاجرة (مثل الولايات المتحدة وكندا وأوســـتراليا) ثم تـــتوفر حرية دينية وحرية إبداعية وحرية البحث والتحليل، بحيـــث أنـــنا نضـــرب المثل بتلك المجتمعات ونعدها مثلنا الأعلى (من هذه الناحـــية)، بينما نحاذر نحن من الاقتراب من هذه المناطق الفكرية في بلداننا "لأنهـــا شـــديدة الحساســـية"، ونشـــدد بالمقابل على المفكرين والمبدعين والسياسيين بضرورة الابتعاد عنها وعدم المساس بها؟

/14/

أصل العنف

جـــاء في كتاب «أصل العنف والدولة» لمارسيل غوشيه و بيار كلاستر، تـــرجمة وتقديم علي حرب: «يرى جون غالتنغ أن التغيرات الحضارية مرت بثلاث مراحل:

أولاً: البدائية (الالتقاط والصيد والحركة).

ثانيًا: التقليدية (الاستقرار): الزراعة وظهور الطبقات.

ثالثًا: الحديثة: العلم والصناعة والمواصلات. (البيروقراطية الحكومية).

رابعًـــا: مـــا بعد الحداثة: وهي مرحلة مشوشة تمامًا وفوضوية، يبدو أن الإنسان يعود في هذه المرحلة إلى المرحلة البدائية، وذلك بعودة شريعة الغاب إلى المجـــتمعات، وظهور العصابات أو الميليشيات في الليل في شوارع المدن،

وقيامها بالسرقة وصيد ما تقع أيديها عليه والتقاطه وجمعه، أو قيامها بالقتل والاغتصاب. كان الإنسان يلقى الحماية من انتمائه لعشيرة أو قبيلة، والآن يحتمي بالانتماء إلى عصابة، الانتقال إلى ما بعد الحداثة هو انتقال إلى الدمار، ومفتاح الدمار هو (tele) (عن بعد) [ومن هنا التيليفون والتيليغراف والتيليكس والتيليفزيون]. الاتصال الإنساني مسحوب خيره وبارد لأنه من دون تماس حقيقي، التلفون بلا ملامح، الفاكس بلا صوت، ومن ثم فإن ثورة المعلومات هي معلومات عن الأشياء، ولكنها معلومات مضللة عن البشر، معلومات عبر الروبوط.

وعنده أن «العنف السياسي المسمى بالإرهاب كان يقع في الماضي نتيجة بنى وثقافات متشددة وعقيمة، ولكنه يقع اليوم لغياب البنية والثقافة، إن العنف أو الإرهاب المؤلم والمؤذي يتفجر في جميع أنحاء العالم نتيجة الفوضى الاجتماعية، وإن هذا العنف أو الإرهاب يمكن أن يصنف في ثمانية أنواع:

1) العنف أو الإرهاب ضد الطبيعة أو ما يسميه الجرائم الإيكولوجية.
2) العنف او الإرهاب ضد الذات: كالإدمان أو الانتحار.
3) العنف ضد الأسرة كالإساءة إلى الأطفال والنساء.
4) العنف ضد الأفراد كالسلب والنهب والاعتداء والاغتصاب والقتل.
5) العنف ضد المؤسسات (الفساد)، " أصبح الناس كالضواري المتسلقة على جدران مؤسسات الدولة لاختراقها ثم الانسحاب بالغنيمة منها».

(وقد نشرت مجلة إنسترانايا لتراتورا الروسية حوارًا جميلاً بين الكاتب الألماني غوتنر غراس الذي فاز بجائزة نوبل عام (1999 م)، والروائي الأسباني خوان غويتيسيلو تحدث فيها غراس عن "العواطلي". وقال غونتر غراس في تلك الحوارية: «نحن نعيش الآن في مرحلة تحول غريب للمجتمع، ففي السابق كان من الواضح تمامًا ما الذي يعنيه النموذج العواطلي، إنه ذلك الشخص الذي لم يكن يرغب في العمل، ويفضل التسكع في الشوارع واضعًا يديه في جيوبه، أما اليوم فقد أصبح مثل هذا النموذج (العواطلي) يجوب

الشـــوارع راكبًا سيارة المرسيدس ويدخل مجلس إدارات الشركات العالمية ويتـــبجح أمام شركائه بأن شركته لا تقوم بدفع الضرائب في ألمانيا، هؤلاء الناس يتباهون بموقفهم العدائي تجاه المجتمع»).

6) **الإرهاب الأهلي (العنف الطبقي والحروب الأهلية).**
7) **العنف الخارجي (الحروب بين الدول).**
8) **العنف ضد الكواكب.**

/15/

الدولة القمعية

لا يمكـــن للقمع أو الإرهاب المدني المنفلت أن يظل سائدًا إلا إذا ساندته سلطة ما، سلطة تهيمن على المجتمع (أو الجماعة) كله، لكي تحمي الجلادين الذيـــن يعملـــون لما تراه مصلحتها، ولكي تسكت أصوات الاحتجاج على القمع، ثم تزينه بأنه من الضرورات ومما لا بد منه، ومن هذه السلطات سلطة السلاح أو العصابة أو العشيرة أو الطائفة أو الدين أو الدولة.

ومـــع تقدم العصر، تغيرت العلاقات، وزالت تشكيلة الجماعات المستقلة (العصـــابة المتفردة بالآخرين أو العشيرة أو الطائفة المستقلة أو المجتمع الديني المستقل) وأخذ هذا التجمع اسم الدولة.

والعـــنف المطلـــق من عقاله لا يمكن له أن يستمر في ظل الدولة إلا إذا كانت الدولة ضعيفة (كما يحدث في الحروب الأهلية)، أو إذا كانت الدولة

نفسـها هـي التي ترعى هذا النوع من العنف والإرهاب وتنمّيه لتوظفه في مصـلحتها، كمـا أنه قد يكون من المستلزمات الأساسية لاستمرار الدولة القمعية ذاتها.

والدولة القمعية هي دولة تتحكم بها فئة (حزب، عشيرة، طائفة، طبقة) لا تحقق مصالح السواد الأعظم من الناس؛ بل تحقق مصالح من تحكم باسمهم أو مصـالح جـزء مـنهم متميز لسبب ما، ومن الطبيعي أن يميل الناس إلى الاعـتراض عليها، وحين تكون هذه الفئة الحاكمة عاجزة عن تحقيق مصالح الغالبية العظمى من الناس، كما تضطر إلى الإعلان إعلاميًا، لأن هذه المصالح متناقضة مع طبيعة هذه الدولة ووظيفتها، فإن الحكم يلجأ إلى منع الناس من إعـلان شـكاواهم أو إيصال مطالبهم بالتعبير السياسي المعروف بوساطة الأحـزاب والمنظمات والنقابات؛ وحتى بالتعبير الثقافي، أي أنها تقمع الثقافة والآداب والفـنون الـتي تحمـل هموم الناس أو تتحدث عنها مثلما تقمع التنظـيمات المهنية والسياسية، وكذلك تضبط حتى المواعظ الدينية، وعندها تـزداد نقمـة الناس، فتزداد مخاوف السلطة، الأمر الذي يؤدي إلى تشديد قبضـتها، وبالإرهاب (السجن والتعذيب والقتل والتسريح من العمل، ومنع فرص العمل، والتجويع ومنع التنظيمات وخنق حرية التعبير) تحاول أن تجبر الـناس على القبول بالأمر الواقع أو التأقلم معه أو السكوت عنه، مع تجاهل رغبتها في أن يؤمنوا به، ولو إلى حين.

ولأن السـلطة تعرف أن الناس لا يمكن أن يُختزلوا بهذه الطريقة القسرية اختزالاً نهائيًا، فإنها تزيد من دائرة المستفيدين من فتاتها لكي تحولهم إلى جلادين أصـحاب مصلحة في حماية النظام الذي يطعمهم هذا الفتات، إنهم يصبحون أدوات قمع يمارسون عملهم بحمية لأنهم يدافعون عما يستفيدون منه.

وأول مـا يسـتفيدون منه هو أنهم الآن بمنجى من طغيان الدولة، وأنهم يـأخذون ما يعرفون بأنه لا حق لهم فيه، وأن هناك من هو أحق به منهم، وهـذا يـراهم وهم يأخذون حقه، ويعرفون أنه يراهم، فيعرفون أنه يتحين

الفــرص للانقضاض عليهم، فيحسون بأنهم معرضون في كل لحظة لفقدان الامتــيازات التي لا يملكون مؤهلات فعلية لنيلها، وحتى وهم يملكون تلك المؤهــلات فإن طبيعة الدولة التي يتعاملون معها، والتي يفترض أنهم يعرفونها جيدًا، تجعلهم يعيشون في خوف دائم من تبدل أمزجة الحاكمين المتحكمين ومــن فقــدان الرضى وحلول النقمة، هذا إضافة إلى خوف النظام كله من إمكانية الانقلاب عليه لعدم ارتكازه على قاعدة شعبية حقيقية أو لإحساسه بحجم الهوة القائمة بينه وبين الشعب.

ولذلــك تراهم جبابرة ومتملقين في آن، والدولة القمعية تبحث عن هذه النماذج وتنميها وتعتمد عليها. والكواكبي يرى أن المستبد «لا يحب أن يرى وجه عالم أذكى، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق».

أما عامة الناس فإنهم يعيشون تحت ظل الخوف الدائم الذي يجبرهم أحيانًا على إظهار حبهم لهذه الدولة لأنها لم تؤذهم أذى مباشرًا، وتظهر الدولة ذاتها أنها تصدق تلك المنة، إنها لمنة على المواطن أو المثقف أنه لم يسجن أو أنه ما زال يتقاضــى راتــبًا عن عمله، وهذا الحب الذي يجبر المواطن على إظهاره شــبيه بعلاقــة الطفل مع الأم التي تدليه من الطابق العاشر فتثير ذعره لكي يكتشف بعد ذلك أنها تحبه لأنها لم تلق به من تلك النافذة، إنها علاقة الحب الــنابعة مــن الذعــر، وهو الحب ذاته الذي يعلن عنه بطل رواية ‹1984› لأورويل في سريرته، حبه للطاغية الذي كان مصدر عذاباته كلها.

وتفســير الكواكبي للأمر لا يخلو من طرافة: «المستبد إنسان، والإنسان أكــثر مــا يألف الغنم والكلاب، فالمستبد يود أن تكون رعيته كالغنم ذلاً وطاعة، وكالكلاب تذللاً وتملقًا».

ولكنه يصبح أكثر تدقيقًا: «الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان، التي تتصــرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب و عقاب محققين.. ومنشــأ الاستــبداد إما من كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على القانون، أو على إرادة الأمة، وهذه حالة الحكومات المطلقة، وإما من كونها

مقيدة بنوع من ذلك، ولكنها تملك بنفوذها إبطال قوة القيد بما تهوى، وهذه حالة أكثر الحكومات التي تسمي نفسها بالعقيدة».

ومن الأمور المقررة أنه ما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الأمة أو إغفالها لها، إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد، وبعد أن تتمكن فيه لا تتركه، وفي خدمتها شيء من القوتين المهولتين: جهالة الأمة والجنود المنظمة.

وفي دراسة إدمون بلان عن العنف السلطوي يقول: «إن أخطر انحراف تبتلي به الدولة الاستبدادية يقوم على اعتقادها، أو تظاهرها بالاعتقاد، بأن وجودها الخاص يستنفذ جميع التحقيقات الممكنة، وبعبارة أخرى فإنها تستخلص اعتباطيًا ضرورة سلطتها الخاصة من الضرورة (أو الحاجة) إلى سلطة سياسية».

«والمقصود هو إشاعة مفاهيم تتلخص في أنه لولا هذه الحكومة - السلطة لكان المواطنون أقل أمنًا أو أكثر جوعًا أو أكثر تعرضًا للعدوان أو أكثر خضوعًا للعدو أو أكثر تعرضًا للمؤامرات. ومع حجم الكذب في هذه المقولات إلا أننا نعود مرة أخرى إلى العلاقة بتلك الأم التي تمن على أولادها بأنها لم تتركهم للذئاب». ولذلك فإن كل معارض هو، في نظر السلطة، «فوضوي يريد إحداث الخراب. وفضلاً على ذلك فهي (السلطة) تعد نفسها المؤتمنة الوحيدة والمختصة على إرادة البلد ومصيره، وكل معارض هو خائن مأجور للأجنبي، ويجب أن يظفر برنامجها السياسي بتأييد الجميع المطلق، وكل نقد هو مساس بأمن الدولة. وأخيرًا إن هيمنتها تنزع إلى أن تشمل جميع الفعاليات، وكل تنظيم مستقل هو خصم لها».

وكل مواطن مستقل ذي فاعلية هو طبعًا خصم لها أيضًا.

ويكمل إدمون بلان إلى أن يقول: «إن المبدأ الحقوقي القائل إن الدولة تحتفظ لنفسها بحق الإكراه يصبح سلاحًا رهيبًا في الأنظمة الاستبدادية، فإن

الجهاز البوليسي والعسكري يتسع اتساعًا ضخمًا ويمارس رقابة دقيقة يستحيل معها اعتماد أي مرجع آخر ذي بال، وعلى كل حال فغالبًا ما يتعزز العسف بالفساد، وتحتكر الدولة الإعلام، ولا ترضى عن الثقافة إلا عندما تخدم عظمة النظام». وإن الخوف من الوشاية والقمع «يحتجز قسمًا من الشعب في سلبية لا تليق بالإنسان».

ونتابع معه: «بالطبع إن حكومة تجد نفسها في وضع صعب قد تحدثها نفسها بأن تجعل سياستها مطلقة، إنه لأسهل عليها كثيرًا أن تلاحق "الخونة" وتدينهم من أن تأخذ معارضة منظمة بعين الاعتبار حقًا. وفي الواقع فإن النظام الاستبدادي لا يحصل إلا على نجاعة قصيرة المدى، وإن عقائديته المتصلبة تمنعه من التجدد عند الضرورة، وإن أحاديته المطلقة تمهد عاجلاً أم آجلاً لمجابهات عنيفة، وإن عبادة الفرد في البلدان النامية وتقديس العقيدة الرسمية وغطرسة قيادات "التنظيمات المتسلطة"، ذلك كله يشتد ظهوره كلما تضاءل المجهود الحقيقي الرامي إلى إعادة التنظيم والتنمية"، والمستفيدون من القمع يسوغون، ومعظمهم "يتصرفون كما لو كان قيام الديكتاتوريات في المعسكر الآخر – أو الدول الأخرى – يسوغ قيامها في معسكرهم، ألا يفسر هذا التحييد المتبادل جزئيًا الاستمرار المدهش لبعض الأنظمة»؟

يقول ميشيل فوكو في ‹التهذيب والطاعة›: «الطاغية الغبي قد يضطهد العبيد ويقهرهم مستخدمًا في ذلك السلاسل الحديدية، ولكن السياسي الحقيقي الماهر يستطيع أن يقيدهم بسلاسل أقوى من سلاسل الحديد بوساطة أفكارهم هم أنفسهم، وهو قد يستمد قوته من أننا لا نعرف المادة التي صنع منها».

ويرى فروم أن رواية أورويل ‹1984› تسهم بأصالة في معالجة السؤال التالي: كيف يمكن للطبيعة البشرية أن تتغير؟

فأورويل يرى أن «الحزب الحاكم يسيطر على الحقيقة من خلال سيطرته على عقول الناس»، ولكن هذه السيطرة ليست دومًا بالطريقة ذاتها، "هناك

عـــائلات يقول فيها الوالد لابنه: "ستتورم أذناك إن عدت إلى فعل ذلك"، بيـــنما تأخذ الأم ابنها بين ذراعيها، وعيناها طافحتان بالدموع، وهي تهمس له بمحبة: "أيها الغالي، هل هو لطف منك نحو أمك أن تفعل ذلك"؟.

فمـــن الـــذي يستطيع أن يقرر أن الأسلوب الثاني أقل طغيانًا وظلمًا من الأسلوب الأول؟.

إن التميـــيز الذي يهم فعلاً ليس بين العنف واللا عنف، بل بين توفر، أو عـــدم توفر، الرغبة في التسلط. فهناك أناس مقتنعون بالشر الكامن لدى كل من قوات الجيش والشرطة، إلا أنهم في الوقت ذاته أكثر تمحيصًا وتقصيًا في نظـــرتهم من الشخص الطبيعي الذي يرى أن من الضروري استخدام العنف في بعـــض الحـــالات، فهم لن يقولوا لأحد: إفعل هذا الشيء أو ذاك وإلا فســـتذهب إلى السجن"، إلا أنهم يَدخلون، إذا استطاعوا، إلى أعماق عقله ليملوا عليه أفكاره في أدق الخصوصيات والتفاصيل.

ليس هذا موقفًا فوضويًا يدعو إلى قيام مجتمع من دون دولة، أو إلى تحطيم أيـــة دولة مهما كانت مواصفاتها. ولكنني أرجو أن يكون قد صار واضحًا، مما ورد حتى الآن حول موضوع العنف والقمع والتعذيب، أن الأمور لا تأتي من الفراغ، وأن هذه الظواهر غير الإنسانية (والتي سنتردد كثيرًا في وصفها بالوحشـــية لـــئلا نسيء إلى الحيوانات؛ إذ صار من الواضح أن الحيوانات والوحـــوش، عـــلى خـــلاف الإنسان، لا تمارس ذلك كله) مرتبطة بنظم اجتماعية وممارسات سياسية، وأن الإنسان المقموع، الذي هو نتيجة طبيعية للأوضـــاع التي يعيش فيها، إنما هو نتاج لذلك النوع من الأنظمة السياسية والاجتماعية والبيئة الثقافية الناجمة والتي تنمي الخوف في نفوس الناس وتعيش على خضوعهم واستكانتهم وذعرهم.

ولهذا النوع من الأنظمة السياسية تسميات عديدة، هناك الدولة الاستبدادية والقمعية والديكتاتورية والفاشية وأوصاف أخرى لا تنتهي، ولكنها كلها تشير

إلى حقيقة واحدة واضحة هي أنها حكومات لا تمثل شعوبها، بل هي مفروضة على هذه الشعوب إكراهًا بقوة السلاح أو الاحتلال أو الوصاية الخارجية.

ونشير أيضًا إلى أنه، مهما كانت الشعارات التي ترفعها هذه الحكومات، فإن النتيجة الطبيعية التي يخرج بها المحكومون من قبلها هي أن إنسانيتهم تتردى ومطامحهم تضمحل وآفاقهم تنغلق، إنهم ينحدرون نحو الحيوانية في الوقت الذي تكون فيه الشعارات مرفوعة حول المجد والسؤدد والكرامة والحرية.

ويبين لنا إقبال أحمد (في مقالته المتميزة في مجلة «الدراسات العربية» الفصلية بالإنكليزية - ربيع 1981 م)، أن هذا النوع من الحكومات لا يستخدم السلطة لفرض القانون، بل لفرض قبول النظام القمعي وقبول الاستلاب والاستغلال والتزوير، ولا يُستخدم القمع الحكومي للعقاب بل من أجل الردع والمنع.

وبسبب الخوف المتزايد لدى السلطة من الكم الشعبي الهائل المسحوق «فإن التعذيب أو القمع لم يعد يمارس للحصول على معلومات، أو لمعاقبة عناصر المعارضة، بل صار يمارس لمنع الناس من الارتباط في ما بينهم سياسيًا واجتماعيًا، وهدفه هو عرقلة المسيرة السياسية للمجتمع ومنع قيام علاقات بين الناس».

أي أن الدولة القمعية لا تضمن استمرارها في مجتمع متماسك، وكما أورثتنا مناقشة قضايا الاستعمار مقولة "فرق تسد" السياسية، التي كان الاستعمار يعتمدها؛ فإن الأنظمة القمعية ترث عن هذا الاستعمار الأسلحة ذاتها التي كان يستخدمها، ومن ثم فإن التمزق الاجتماعي أو التفريق الديني أو الطائفي أو العرقي، وإحياء الانتماءات التي من هذا النوع، مما نراه في المجتمعات المقموعة هو نتاج هذه الأنظمة بمقدار ما هو سلاحها.

ولعله يفيدنا هنا تذكر صفحة من ماضينا، إن استلام الأمويين للسلطة جاء بعد حروب بين علي ومعاوية، وقد رأى معاوية، وهو أحد دهاة العرب

المرموقين، أن استتباب الأمر له، ثم تحويله إلى وراثة، يتطلب منه تفريق البنية الاجتماعــية القائمة. ويتفق محللو تلك الحقبة على أن تغذية النزاعات القبلية (والــتي تمثلت أدبيًا في تأجيج المناقضات بين جرير والفرزدق) كانت أحد العوامل المساعدة لمعاوية، ثم للحكم الأموي كله، ولكن هذا الداهية العبقري كان يعرف القوام الأساس الذي يقوم عليه الحكم، فهو القائل:

ســأحرمكم حــتى يــذل صــعابكم

وأبلــغ شــيء في صــلاحكم الفقــر

وتقــول حــنا أرنــدت (وهي لاجئة ألمانية من النازية لها كتاب «أسس التوتاليــتارية»): «ولقــد لوحظ مرارًا بأن الإرهاب لا يمكن أن يحكم البشر بــإطلاق إلا إذا كانوا معزولين عن بعضهم، ولذلك فإنه من أولويات حكم الطغــيان هــي إحداث هذه العزلة، إذ يمكن أن تكون العزلة بداية للإرهاب، وهي بالتأكيد الأرض الأكثر خصبًا له، بينما هو نتيجتها دومًا، وهذه العزلة، وكما كانت، سابقة على التوتاليتارية، ودمغتها (سمتها) الأساسية هي العجز».

إذ، وبالــتعريف، لا يملك الناس المعزولون أي سلطة، هذا بمقدار ما تريد السلطة أن توحي بتلاحم جماهيري في ما بين الجماهير ثم بينها وبين السلطة.

لقد كانت العزلة والعجز – أي عدم القدرة أساسًا على الفعل – صفتي أنظمة الطغيان، تلك الأنظمة التي تتمزق فيها الوشائج السياسية بين البشر، وتُحبط الطاقات البشرية للعمل والسلطة.

هــذا وإن انعدام الأمن الشخصي والغذائي (الاقتصادي)، والذي هو من المواصفات الأساس للمجتمع المقموع، يصيب أبناء المجتمع بالذعر ويدفعهم إلى الارتداد نحو انتماءاتهم الأولى لكي يحسوا بالأمان أو يبحثوا عن الحماية، وفي هــذا الارتداد ردة حضارية مريعة؛ لأنه في الوقت ذاته تمزيق للمجتمع الــذي كــان يحــاول أن يتقدم ليتعايش على مبادئ المواطنة بدل مبادئ الانتماءات العائلية أو العشائرية أو الدينية أو الطائفية أو الجغرافية.

ويضـــيف إقبال أحمد بأن هذه الدولة تتشابه مع الفاشية التقليدية في أن لديهـــا «جهازًا إرهابيًا قمعيًا وأن لها سيطرة على الاقتصاد والعمل وأنها تمد بجذورها في البورجوازية الصغيرة وطبقة الملاكين».

ولا بـــد مـــن أن نضيف إلى رأي إقبال أحمد رأيًا لفرانسوا لوجاندر، إذ يرى أن امتلاك الدولة لوسائل الإعلام سمة أخرى من سمات الدولة الفاشية، «فتنظـــيم الإعلام بشأن وسائل الترفيه، وسحق الفكر غير النمطي، وسحق كـــل معارضة حقيقية وذكية، هي المصدر المفضل لاندلاع عنف يكمن في كل مكان: عنف السلطة لا عنف الدولة وحدها».

وعـــند دراسته لأسلوب هتلر تبين له أن «الوسيلة الكبرى التي أخذ بها الفوهرر لفرض ذاته هي الوسيلة السهلة المتمثلة في "**الإقناع بالقوة**"»، وهذا ما يسميه تشاخوتين «الاغتصاب النفسي بدعاية عاطفية قائمة على العنف»، وذلك في كتابه ‹اغتصاب الجماهير بالدعاية السياسية›.

ويقـــول آرثر سالزبورغر، مؤسس صحيفة ‹نيويورك تايمز›، بهذا الصدد مبيـــنًا أثـــر هذا النوع من الإعلام: «إحجب المعلومات الصحيحة عن أي إنسان، أو قدمها إليه مشوهة أو ناقصة أو محشوة بالدعاية والزيف - إذًا فقد دمرت كل جهاز تفكيره ونزلت به إلى ما من دون مستوى الإنسان».

ويشـــرح إقـــبال أحمد كيف تمزج هذه الدولة مزجًا تعسفيًا بين الأمن الوطـــني وأمنها هي، بحيث أن كل تهديد لها يُشهَّر به على أنه تهديد للأمن الوطـــني ومؤامـــرة عـــلى الوطن وقضاياه الكبيرة. وعلى طريقة برناردشو الساخرة في وصف "من يعالجون المرض بقتل المرضى"، فإن هذه السلطات لا تعالج المشكلات التي تثير الاحتجاج، وهي المشكلات التي تسببت بها السلطة نفســـها أحـــيانًا، والتي تعود بالأذى على الناس وربما على المستقبل الوطني برمته، بل تعاقب المحتجين عليها، وتقتل المعترضين وحتى من يتجرؤون على ذكـــرها، وتجـــبر المجتمع كله على السكوت والقبول وعدّ هذه المشكلات

مصـــيبة مستعصية جاءت من عالم الغيب أو من مؤامرة خارجية حيكت في الظــلام - انــتقامًا من المواقف الوطنية لهذه السلطة طبعًا - أو أنها ظاهرة طبيعية ليس من الممكن تجنبها سواء كانت المصيبة هزيمة عسكرية، أم احتلالاً لأرض الوطــن، أم تفاقمًا لوباء أهمل فلم يكافح، أم تدنيًا للمستوى المعيشي أو التعليمي، أم تفشيًا لإرهاب الأزلام وتجاوزاتهم - من سميناهم المتنمرين - أم خــرابًا اقتصاديًا في أحد ميادين الزراعة أو الصناعة، أم سرقات مفضوحة من الأموال العامة...

يجب قبول تفسيرات أجهزة الإعلام، حين تكلف نفسها عناء التطرق إلى هــذه المشكلات أو تضطر للاعتراف بوجودها. وإذا لم تشأ أن تتطرق إليها "لأن الأوضــاع الحالــية لا تتيح المجال للتوقف عند هذه الأمور"، أو "لأن الأعــداء سيشمتون حين يعرفون أننا نعاني من مشكلات من هذا النوع"؛ فيجــب القبول بتسويغ عدم التطرق إلى هذه المشكلات. ولذلك يظل، عند الدولة القمعية، **الحديث عن المشكلة أخطر من المشكلة ذاتها.**

بيــنما نلاحــظ في المجتمعات المتقدمة أن أكبر رموز السلطة فيها تخضع للتشــهير وللمحاكمة القضائية وللعزل بسبب فضائح أقل بآلاف المرات من الفضــائح الــتي تعج بها كواليس الدول القمعية، وإن إشهار هذه المفاسد ومحاســبة مقترفــيها لا يصيب تلك المجتمعات المتقدمة أو دولها بالانهيار أو التشوش أو الضعف، بل إننا نعرف أن القدرة على المحاسبة وعلى التراجع عن الخطأ من أهم أسباب قوة تلك المجتمعات والدول.

ومــع تفــاقم القمــع لأي احــتجاج أو نقد من الطبيعي أن تتقلص الاهــتمامات لدى الناس، فبعد الوجود الطبيعي لمن يراقب عناصر السلطة، ويطالب بالمحاسبة على التجاوزات والاستثناءات التي يتمتع بها رموز السلطة، وعلى الإثراء غير المشروع، تصير السلامة هي الأساس المطلوب، لأن الطرف المســتفيد ليس معصومًا من النقد فقط، بل هو، أيضًا يملك القوة التي تحميه

وتجعلـه قادرًا على قمع النقد وتخوينه. ومن ثم فإن الضرر لا يلحق بالعنصر الفاسـد بل بمن ينتقده، ولذلك تصبح القدرة على تبرير الفساد هي البراعة الـتي يتسـابق إلى إتباها المتنافسون في المكاسب والغنائم، والمنة، التي يقدم هـؤلاء الشكر من أجلها ويطالبون المواطن بتقديمه أيضًا، هي أن الأذى لم يلحق بك بعد.

إن وجود الغش والتلاعب بالأرزاق العامة وتقديم المواد الغذائية المغشوشة أو الضـارة أو رفع الأسعار والتهريب ومرور الصفقات المشبوهة وتسرب الثروات الوطنية وإدخال مواد مشعة إلى البلد يجب أن لا تثير أي احتجاج. السـلطة ستتعرض لهذه المشكلات حين ترى الجو ملائمًا، ويلائم الجو عادة حين تصطدم مصالح طرف مستفيد من السلطة بمصالح طرف مستفيد آخر، أو حـين تكـون السلطة راغبة في تصفية أحد أجنحتها أو أحد عناصرها لسبب ما، فتتم محاسبات مفاجئة، وتسقط رؤوس.

ويضغط المستفيدون من السلطة القمعية على أصحاب الرأي للالتفات إلى الجانـب الإيجـابي من الواقع المعاش، وتدعوهم دومًا إلى أن يتخلصوا من سـلبيتهم التي تجعلهم لا يرون إلا السلبيات، "نصف الكوب الفارغ"، وإلا فإن الشك يتطرق إلى صدق انتمائهم الوطني أو قدرتهم على الرؤية أو الفهم أو التحليل.

وحـين تـتفاقم المشكلات وينفجر صبر الناس يكون الحل على طريقة دراكيولا.

إذ يروي الممثل كريستوفر لي في مقدمة كتاب ‹مجموعة الشر› كيف أن ممثلين عن قرية برازوف جاؤوا إليه لينقلوا شكوى أهل القرية الذين أرهقتهم الضرائب فلم يبق لديهم حتى ما يأكلونه، وأمر دراكيولا بجمع أهل القرية في الكنيسة ثم أحرق الكنيسة بمن فيها، وحين اضطرمت النيران قال: "هذا يحل مشكلة الفقر في برازوف".

ويكـــاد يكـــون من لوازم الحكم المستبد السخاء على الأتباع والمؤيدين والمتملقين، فحتى "السفاح" العباسي الأول، كما يقول السيوطي في «تاريخ الخلفاء» كان «سريعًا إلى سفك الدماء... وكان مع ذلك جوادًا بالمال».

ولذلك فإن أي حكم من هذا النوع، ومهما بلغ الفساد فيه وفي أجهزته وعناصـــره، ومهمـــا بلـــغ الأذى اللاحق بالناس منه، لن يعدم أن يجد من يدافعون عنه، فهؤلاء يدافعون عن فرصهم وغنائمهم ومكتسباتهم.

وهـــؤلاء يـــتجاهلون عـــامدين، ويفرضـــون على الناس تجاهل الفساد والـــتردي، وكأنهم لا يرون ما يحدث، ولأن رؤية ما يحدث، والحديث عنه، يشكلان تهديدًا لمصالح هؤلاء المستفيدين فإنهم – أي المستفيدين – يمعنون في الـــتجاهل والتجهيل ونكران كل ما يبدو للعيان من فساد، ولا يمكن لهم أن يســـتمروا في ذلـــك إلا إذا كانوا من العناصر المهيأة لقبول الفساد وتقديم التـــنازل الأخلاقـــي الدائم والتغاضي عن كل ما يمس بالكرامة الشخصية والوطنية.

إنها الحاشية التي تتشكل حول كل طاغية وكل حكم فاسد.

إن من لوازم الطغيان أن يكون عناصر هذه الحاشية على درجة من الضعة والخسة وانعدام الأخلاق والشخصية.

فإيـــريك فـــروم يقول عن حاشية ستالين: «لقد نجح ستالين باستخدامه لأســـاليب القهر النفسي والذهني في أن يجعل من الطاقم الحاكم، من حوله، حفـــنة مـــن الأشخاص المحبطين عديمي الكرامة والكبرياء، لأنه كان ممسكًا بمصـــائرهم، وكانـــت لـــه عليهم سلطة الحياة والموت، وهي سلطة الخالق المطلقـــة، وكان هاجسه أن يفهم الآخرون هذا الواقع حتى في الحالات التي كان يحجم فيها، لسبب أو لآخر، عن استخدام سلطته هذه».

ولعـــل الوصف الأمثل لهم هو ما قاله الدكتور إمام عبد الفتاح إمام في كتابه «الطاغية»: «يختار الطاغية الفاسدين من البشر في نظام حكمه ليكونوا

أصـــدقاء له، فهم عبيد النفاق والتملق، والطاغية تسره المداهنة، وينتشي من النفاق ويريد من يتملقه».

ويجـــب ألا يخطـــر على البال أن ذلك الحاكم، الذي يبدو مضحكًا في تصـــرفاته الهوجاء والرعناء، يصدر عن قلة عقل أو سوء تدبير، إنه لا يطلق العنان لمزاجياته إلا بعد أن يكون قد عمل طويلاً على تثبيت دعائم حكمه.

وبعـــد ذلـــك ينصـــرف إلى توفير الأتباع والمتملقين والمستفيدين الذين يضربون بسيفه ويلبون رغائبه ومزاجياته ويتناغمون مع كل نأمة في تفكيره.

ويصفهم إيتيان دي لا بوسي في ‹خطاب حول العبودية الطوعية›: «بمعنى أنهم لا يتعين عليهم، وحسب، أن يفعلوا ما يأمرهم به، بل عليهم أن يفكروا كمـــا يريدهم هو أن يفكروا. وفي أغلب الأحيان يكون من الواجب عليهم أن يستبقوا أفكاره، استجلابًا لمرضاته، هو لا يكفيه أن يطيعوه، بل عليهم أن يُفـــرحوه، أن يزعجوا أنفسهم، ويتعذبوا بل وأن يقتلوا أنفسهم في خدمته، ويـــتعين عليهم كذلك حتى أن يتخلوا عن مذاقهم الشخصي ليتبنوا مذاقه، عليهم أن يشددوا انحناءهم أمامه وأن يرموا جانبًا كل استعداداتهم الفطرية، إن علـــيهم أن يرصـــدوا، وبكل عناية، كلماته وصوته وعينيه، وأي إيماءة تصـــدر منه، هم لا ينبغي لهم أن تكون لهم عيون أو أقدام أو أيد، عليهم أن يمتلكوا فقط ما يمكّنهم من ترصد أوامره، وسبر رغباته واكتشاف أفكاره"، ثم يتساءل بما يشبه السذاجة: "فهل هذا ما يمكننا أن ندعوه بالعيش السعيد؟ هل يستحق هذا، حقيقة، اسم الحياة »؟.

كيف يتم تصنيع هؤلاء؟

ربما كان من المفيد هنا أن ننقل ما أورده جمال الغيطاني على لسان ‹الزيني بـــركات›: «إذا سخط إنسان لفقره بذرت له آمال الغنى والجاه، أذيقه نتفًا من حياة الرخاء، يتعود عليها، حينئذ أحيله مسخًا في عيون الخلق، لا يقدر على العودة إلى قومه، ولا يمكنه حتى التطلع إلى الأمام. وهكذا بدلاً من بتره

حيًا أحوله، وهو يمشي على قدميه ذاتهما ويحرك ذراعيه، ويتحدث بلسانه، يناديه الناس باسمه، لكنه في الحقيقة شخص آخر وإنسان ثان لا علاقة له بالوليد الذي انزلق يومًا من رحم أمه أو الفتى اليافع الذي اختال وزها بين أقرانه، حتى رجولته أقلبها أنوثة، أضيع معالم الشارب واللحية، لا أحلقهما، لا أثقب أذنيه وأعلق فيهما الأقراط، لا أبتر عضوه، كل ما فيه يبقى على حاله، لكنه لا يبقى».

هذا الشخص يتحول إلى خاتم في يد سيده، ولكنه يعرف هو الآخر كيف يستفيد من ذلك وخدمته الوضيعة، فخارج الدائرة التي يلبي فيها ما يخطر في بال سيده، يتحول هو الآخر إلى "سيد" له رغباته ومباذله ومكاسبه، يعمل على توفيرها بأية وسيلة متاحة أمام سطوته، وبعِلم سيده في معظم الأحوال.

كيف يسكت سيده عن مباذله؟ هذه لعبة أخرى.

فمباذل الحاشية فخ مستمر، وهو دومًا فخ على وشك الإطباق. ولذلك فبين الحين والآخر تشيع ظاهرة محاربة الفساد. وبما أن الفاسدين واضحون للعيان في كل مكان فليس هناك ما هو أسهل من تعرية هذا أو ذاك، والتشهير به ومعاقبته بعد فضحه، ومن خلال وثائق دامغة وحقيقية، وتنفع هذه "**الفضيحة**" بأن تجعل جمهرة المنتفعين يدركون أنهم كلهم مكشوفون، وأن الدور قد يأتي إلى أي منهم في أي لحظة، وبهذا يعيشون في خوف دائم ويزيدون من جرعات ولائهم للحاكم لكي يطمئنوه إلى أنه يستطيع الاعتماد عليهم في كل أمر؛ لأنهم يعرفون أن رقابهم في يده.

ولكن الناس يشعرون، عندما يتم إشهار فضائح من هذا النوع، بأن الإصلاح قائم ومستمر، ومحاربة الفساد جارية على قدم وساق، ولكن الفاجعة الحقيقية أن الفساد لا ينتهي ولا يتغير ولا يقل ولا ينحسر. يستمر الفاسدون المفسدون ويستمر الفساد، وتزداد سطوة الحاشية التي تأكل من

طـبق السلطان وتضرب بسيفه، وتكون قد أظهرت ما يلزم من الشراسة في تصفية زميلهم الذي جاء دوره.

ولهـذا السـيف امتيازات تجعل الحاشية لا تقيم وزنًا لقانون أو اعتبارًا لدستور، وهنا تتأكد هوية النظام. وكما يقول جون لوك في ‹الحكم المدني›: «يبدأ الطغيان عندما تنتهي سلطة القانون»، ويفصّل الأمر فيقول: «الشرطي الذي يتجاوز حدود سلطته يتحول إلى لص أو قاطع طريق، وكذلك كل من يـتجاوز حدود السلطة المشروعة سواء كان موظفًا رفيعًا أو وضيعًا، ملكًا أم شرطيًا، بل إن جرمه يكون أعظم إذا صدر عمن عظمت الأمانة التي عهد بها إليه».

وتقـول حـنا أرندت في مقالها: ‹إيديولوجيا وإرهاب الشكل الروائي للحكومة›: «إن السلطة الاعتباطية، والتي لا يقيدها أي قانون، والمستسلمة لمصـالح الحـاكم، المصالح المعادية للمحكوم من جهة، والمتخذة من الخوف دليل عمل، وبالتحديد خوف الحاكم من الناس، وخوف الناس من الحاكم، مـن جهة أخرى، ذلك كله كان على امتداد تقاليدنا، الدمغة (السمة) التي ميزت حكم الطغيان».

ومـع الغبن الفظيع الذي يعيش فيه المواطنون فإن الحاشية تريد أن توهم الناس أنفسهم أنهم يحبون حكمهم وحاكمهم بالإعلام الزائف، أو ما سميناه سابقًا "اغتصاب الجماهير بالدعاية السياسية". إن هذا الإعلام يريد تكريس صـورة الحاكم كما يرى هذا الحاكم نفسه، ولذا تكثر في المواد الإعلامية صور الحاكم الذي يداعب الأطفال أو يتبسط مع عامة الناس في بيوتهم وربما على موائدهم ويمنح هذا أو ذاك منحة أو بيتًا أو فرصة للعلاج.

ومـاذا يـريد الناس أكثر من هذه المكاسب الشخصية المؤقتة؟ إن نيل المكاسب هو القيمة التي تسود، ويعمل على شيوعها وتعميمها أولئك الذين قدموا الولاء فكان بديلاً من الخبرة والمعرفة والإخلاص للوطن. ومع أن هذا

الـــولاء قـــد يرتدي قناع الاقتناع بالحزب وشعاراته – الحزب الذي صنّعه الحـــاكم، أو استخدمه الحاكم لتصنيع نفسه – إلا أن تحويلاً آخر يحدث في الحـــياة، إذ يتبدل الحزب ليتجسد في أمينه العام، مثلما تتبدل المؤسسات – الـــتي تـــأخذ شـــكلاً دستوريًاوشرعيًا – لكي تصبح أجهزة لتعميم الولاء، فالوصـــول إلى مقـــاعد المؤسســـات – وحتى التشريعية أو التي تحتاج إلى انـــتخابات – يقتضـــي إظهار الولاء، الذي يتشممه أو يراه بالعين المجردة القـــيمون على الأجهزة، فيسهلون الوصول والنجاح لأصحابه، يسهلون لهم اســـتلام المناصب، أو " النجاح " في الانتخابات، أو النجاح في المسابقات الوظيفية.

ولـــيس مـــن المســـتغرب، والحالة هذه، أن يرى الحاكم أن القرابة هي الضـــمان الأول للولاء، ولهذا يكون أبناؤه وأقرباؤه أول المستفيدين، ويتعلم عناصر الحاشية هذا الدرس بسرعة فيعتمدون على أولادهم أقربائهم.

ولذلك لم تثر فضيحة حول دكتاتور أو حول أحد من رجال حاشيته إلا وكـــان أول المفضـــوحين معـــه من حلقة الأقرباء، هذا ما رأيناه في حالة إندونيســـيا وتونس وكوريا، وقد نقلت الأسوشييتد بريس خبرًا من كوريا عـــلى الشكل التالي: «حكم على ابن الرئيس كيم داي يونغ بالسجن ثلاث سنوات ونصف السنة لأخذه الرشوة من رجال أعمال. وكيم هونغ أب هو الابن الثاني من أبناء كيم الثلاثة، وقد غرم بمبلغ (408) آلاف دولار، وسيغرم أيضًـــا بمـــبلغ (457) ألف دولار. كما يخضع كيم هونغ غول الابن الأصغر للرئـــيس لمحاكمة أخرى بتهمة الرشوة، ويصل المبلغ الذي يحاكم من أجله إلى (1,2) ملـــيون دولار»، ولاشـــك في أن هذه الأرقام تبدو مضحكة إذا ما قورنت بأرقام الفضائح في بلدان أخرى.

ثم تنـــتقل الحاشية إلى إيهام الحاكم نفسه أنه محبوب من الجماهير وذلك مـــن خـــلال الحشود المسخرة بفعل الإرهاب المنظم لمظاهرات التأييد ومن

خــلال البرقيات ورسائل التأييد المفتعلة، وينطلق الحاكم، إجمالاً، من مقولة كرومويل الشهيرة: «تسعة مواطنين من أصل عشرة يكرهونني... ولكن ما أهمية ذلك إن كان العاشر وحده مسلحًا».

/16/

الدين والحكم

لـــيس هـــناك قـــدر محتوم على البشر أن يتحولوا إلى جلادين وضحايا (وحوش مفترسة وأرانب أو فئران)، ولكن أنظمة القمع والاستغلال هي التي تريد إبقاء البشر عند مرحلة الحيوانية الغريزية الأولى، وحين يحاولون الخروج مـــن هذه الشروط تثبتهم فيها أو تترلهم إلى ما هو أحط من الحيوانات من خـــلال القســـر، وبأدوات بشرية تتحول هي الأخرى إلى ما هو أحط من الحـــيوانات، فتثبـــت نظرتها العرقية الفوقية إلى العنف الوحشي لهؤلاء الناس الذين "لم يتجاوزوا مرحلة الحيوانية"، والإنسان هو أكرم المخلوقات بما حباه الله، ولهذا يأخذ القمع أيضًا مسوغًا دينيًا.

ولعله قد ثبت لدينا ما قاله لينين من أن هذه «الطبقات الحاكمة كلها تحتاج من أجل الحفاظ على سيطرتها إلى وظيفتين اجتماعيتين هما الجلاد والكاهن».

لا بد من تخدير المظلومين الذين لم يستطيعوا رفع الظلم عن أنفسهم، ومن أجل التعلق بتعويض نفسي يساعدهم على تقبل عيشهم، وهذا التعويض هو ما ينتظرونه في الآخرة.

الدين يعلمهم ذلك، وهم يتشبثون بالفكرة لأنها عزاؤهم الوحيد.

ولكن يجب أن يتم تخليصهم من اعتقادهم بأنهم مظلومون، يجب أن يقتنعوا أنها مشيئة الله، ليس في ما يتعلق بأوضاعهم وحدها، بل في طريقة تسييره لشؤون الكون.

وأود في بداية هذا الجزء من الموضوع أن أورد فقرة مطولة من كتاب روز وايلدر «اكتشاف الحرية: صراع الإنسان ضد السلطة»، وهو كتاب يتحدث عن تأثير العرب والمسلمين، الذين كان اسمهم في أوربا "الساراسين"، وسأقف فقط عند حديثها عن نظرة المسلمين إلى مسألة الخلق والخالق، وتأثيرها السياسي والديني.

تقول الكاتبة: «وبعيدًا عن هذه التفاصيل اليومية هناك المسألة الخطيرة التي تمس علاقة الإنسان بالكون والمجتمع من خلال طريقة تفكيره بالخلق والخالق، وهنا نقطة الاحتكاك المتوهجة التي أثر فيها العربي المسلم، الساراسين، في العالم.

"كان الإيمان في العالم القديم يقول إن السلطة المسيطرة تقوم على الاعتقاد بأنه ما من شيء آخر يمكن أن يخلق، فقد تم خلق كل شيء وانتهى الأمر، وخلال ستة أيام خلق الله الأرض وكل الموجودات، وبعدها، كما يؤمن القدماء، توقف الخلق إلى الأبد، لم تعد هناك قوة خالقة، وفي اليوم السابع تحول الخالق إلى سلطة تسيطر على ما تم خلقه".

"وفكرة السلطة المسيطرة على الكون والإنسان كلها تقوم على رؤية الكون كاملاً منتهيًا ساكنًا ثابتًا، لأنه إذا لم يكن الكون كاملاً وساكنًا، وإذا كانت الطاقة الديناميكية لا تزال تعمل بنهجها الخلاق بدلاً من ذلك، فإن

هـــذا يعني أن ما يبدو في هذه اللحظة مستحيلاً سيكون من الممكن وجوده في الـــلحظة التالـــية، وهذا يعني، أيضًا، أن الأشياء كلها تتغير لتصير أشياء جديـــدة غير متكهن بها، ومن ثم فالغد لا يمكن معرفته اليوم، وما من شيء موجود اليوم يمكن أن يتحكم بالغد، وما من عقل في العالم القديم يتجرأ على الاعتراف بالفكرة الرهيبة القائلة إن الحقيقة، الواقع، طاقة خلاقة، وأن التغيير من طبيعة الأشياء".

"ولاشـــك أن الفكرة العظيمة التي التقطها أوربيو العصور الوسطى هي تلك التي رأت أن الطاقة العاملة في الكون يمكن أن تكون خلاقة دومًا، فإن كانت هناك طاقة خلاقة، وإذا كان الله مستمرًا في الخلق، فهذا يعني أن هذا الكون غير منته وأنه ليس منتهيًا أو ساكنًا، وإن كان الأمر كذلك فهذا يعني أن السلطة الموجودة ليست هي التي تسيطر عليه أو ستظل تسيطر عليه. فقد كـــان عالم الأوربيين كله يقوم على الاعتقاد الوثني بأن السلطة تسيطر على كـــل شيء بما في ذلك البشر، وحين سمعوا أن هذه الأرض تدور في الفضاء ارتعدت عقولهم وأرواحهم رعبًا، وهذا هو سر كراهيتهم للساراسين الذين كانوا يرون فيه " الأنتي كرايست، عدو المسيح، المسيح الدجال "، والشيطان عـــلى الأرض، الذي يتمرد على سلطة الله، وهذا هو سر الحقد الذي كان يحملـــه بعض الأوربيين على الساراسين، إنهم كانوا يخافون من هذه الفكرة الـــتي يحمـــلها عن العالم ومن ثم عن السلطة، وقد تجلى هذا الحقد في أقسى صوره في نهاية التجربة الأندلسية».

وهنا أقتطف بتوسع من تركي علي الربيعو في كتابه: «المحاكمة والإرهاب»:

يقـــول كلود ليفي ستروس (شتراوس): " لاشيء يشبه الفكر الأسطوري أكـــثر مـــن الإيديولوجـــيا السياســـية، وقد تكون الأخيرة حلت محل الأول فحســـب، ضمن مجتمعاتنا المعاصرة "، وكتب ريجيس دوبريه في نقده للعقل السياســـي، مشبهًا السياسي المعاصر بالساحر، فالساحر بقدرته العجيبة على امـــتلاك الكلام يسيطر على الأشياء ويوجهها، وهكذا الفعل السياسي الذي

يمتلك القدرة على تحريك الجماهير والسيطرة عليها، من خلال امتلاكه الكلمة أو وهم امتلاكه لها. ويذهب دوبريه إلى أن سحر القول في السياسة يدعو إلى تفكير سحري في الأمر السياسي، وليس هناك في هذا الصدد من انفصال بين السحر والدين والإيديولوجيا، فالآلهة قوى، والأقوياء يتميزون بطابع إلهي لأنهم يفعلون أمورًا خارقة، ومن هنا يبدو السحر والدين والإيديولوجيا، وكأنها ثلاثة تنوعات متتالية، ولكن لا انفصال بينها لموضوع واحد: سلطان الكلمات. هكذا يظهر أن هدف الساحر والسياسي واحد، ويجد تعبيره في التحكم بسلوك الطرف الآخر، إذ إن السياسة كما يراها ميشيل فوكو.. هي القدرة على تحديد سلوك الآخرين والتحكم به، لكن أين يكمن وجه الشبه بين رجل الدين والساحر والداعية السياسي، الذين يجمعهم هدف واحد هو السيطرة على الآخر، المخاطَب وإعادة توجيهه والتحكم بسلوكه؟. الجواب الذي قدمه ستروس يكمن في كتابه المعنون «**الفكر البري**».. شبه عمل المفكر الأسطوري بالمحرتق.... السياسي وارث الديني.. ثمة علاقة وطيدة بين الديني والسياسي تتجاوز كونها علاقة جوار، إن صح التعبير، علاقة إرث مشترك، علاقة الوارث بالموروث، في المضمون كما في الشكل، فالمضمون يظهر تماثلاً وتطابقًا بين البنية السياسية للمجتمعات المعاصرة وبين البنى الدينية السابقة لها والمتعايشة معها، وكذلك الشكل، فتجليات السلطة السياسية على مسرح الأحداث (الاحتفالات بظهور الزعيم، وما يرافقها من طقوس) هي الوجه الآخر للاحتفالات الميثولوجية كما تعبر عنها الاحتفالات الدينية.

.. فالأدب المسيحي في بنائه النظري وفي أشكال ممارساته يرسم صورة جديدة لعلاقة الراعي بالرعية، يتحول فيها الحاكم السياسي إلى راع للبشر (وفي الإسلام: كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)، فالسياسي في هذا الموروث يتحدد بوجود طرفين: الراعي والقطيع، والرعوية، هذه، كما يرى فوكو، تنفي الحاجة إلى دستور سياسي، فالراعي مفوض، بناء على نص، بقيادة القطيع إلى المرعى، والقطيع مطالب بالطاعة والخضوع.

وينقل عن محمد عابد الجابري: "فكلا الخطابين، الديني والسياسي، يميل إلى خلــق هذه الصيغة اللغوية ذات الطبيعة الأمرية، فالخطاب الديني، كما يقــول أحدهم، لا يهدف إلى إقناعنا بل إلى إخضاعنا، وإذا لم نخضع فنحن عصـــاة، كذلـــك وريثه السياسي، إنه يمتح من بئر السلطة " المؤسسة على السكوت، لا على الحوار. فكل نظام سلطوي مؤسس على بنيات اجتماعية وسياســية ذات معــنى واحد، أي أنها تتحدث من الأعلى إلى الأسفل، ولا تسمح بأي حركة في الاتجاه المعاكس".

ويقــول فرانســوا لوجاندر: "في الواقع إن الدولة هي التي تحتكر مبدئيًا السلطة المادية على ممارسة الضغط والتي تقضي وتعاقب، تحظر القتل وتفرض النظام – نظامها هي أكثر منه النظام الذي يريده مجموع المواطنين... ".

ثم يتساءل: "أليست هذه الازدواجية الأخيرة هي التي تسوغ التضامن بين السياســي والقدســي؟ فكما أن القدسي يمارس قمعًا على التصور الخيالي ويضــمن الامتــثال لنظام ما، كذلك يظهر ما هو سياسي بمظهر القدسية بالذات حتى إن المساس بسلطة الدولة يميل إلى أن يعد كفرًا".ونستطيع القول بــثقة إنــه ليس هناك حكم مؤمن وحكم غير مؤمن، ولكن إصرار بعض الأنظمة على التظاهر بالتشدد الديني لا يعني إلا أنها تعتمد على الدين بوصفه قوة تنظيمية للمجتمع (لمصلحتها)، أي أنها تستخدم الدين لتستفيد من قوته الزجــرية ومــن ســطوة ممثليه لدى العامة، وما مراعاة الطقوس الدينية في الاحتفالات إلا وسيلة للضحك على الناس، مع أنه لم يبق إنسان في الدنيا إلا وعرف أنها مسألة تظاهر وحسب، ولكن رجال الدين يسعدهم (حتى وهم يعــرفون التمثيل والرياء في مشاركة الزعماء في الاحتفالات الدينية) أن يروا رمــوز الســلطة مضــطرة لمجاملتهم والتظاهر بالتدين لإرضائهم، فهم هنا يــزدادون ثقــة في مركــزهم وتأثيرهم وقوتهم بما يعني حمايتهم من تقلبات السلطة، كما يعني قدرتهم على تسيير السلطة وفق رغائبهم.

ولكن السلطة نفسها تنظر إلى الأمر بطريقة مختلفة، وكما يقول الدكتور حسن حنفي: "ويأتي تنصيب الدولة نفسها للدفاع عن الدين والشريعة والآداب العامة من نظرة أن الدين وسيلة للضبط الاجتماعي والسيطرة على المعارضة السياسية، فهو مثل الشرطة والجيش وأجهزة الأمن والمخابرات العامة أداة يهدف استعمالها إلى تحقيق الأمن في ربوع البلاد".

كأنما يقول كل طرف للآخر: سنرى من منا يمثل على آخر، ومن منا سيسير الآخر.

السلطة تريد التأكيد على شرعيتها، وهي تريد هذا التأكيد بسبب تشككها في مشروعيتها أو بسبب معرفتها الأكيدة أن مشروعيتها موضع شك.

إن العاملين في أجهزة الإعلام، أو الأمن، يستمدون مناصبهم وترقياتهم ومكاسبهم ومكافآتهم من السلطة ذاتها، التي يخدموها، والتي بسبب ذلك يكيلون لها تلك المدائح، فيرون أنفسهم مضطرين دومًا إلى تأكيد الولاء لمعرفتهم بقدرة السلطة على الاستغناء عنهم واستبدالهم في أي وقت، فهم يعرفون أن إمكانياتهم ومواهبهم هي آخر ما أوصلهم إلى ما هم فيه وآخر ما دعا السلطة إلى الاهتمام بهم.

ولكن رجال الدين يعرفون أنهم قادرون على التمايز والانتفاع بممالأة السلطة (وخاصة في مراحل المجابهة حيث ترتفع أسعار الضمائر) إلا أنهم يعرفون أيضًا أن الدولة تحتاج إليهم أكثر من حاجتهم إليها، وهم هنا مثل رجال الإعلام يعرفون أن الدولة غير معنية بإمكانياتهم الحقيقية بل هي معنية بمكانتهم عند العامة وقدرتهم على التأثير في هذه العامة الجاهلة، ولذلك فالدولة أو رجالاتها معنية بتجنيد الأسماء المعروفة والتي لها سمعة حسنة لكي تصبح موالية أو على الأقل غير معارضة أو للتباهي بالإنجاز المتمثل في إغرائها أو تشغيلها، ولذلك فهي تريد أن تجند الدين ورجاله ضمن أجهزة إعلامها أو ضمن وظائفها الإعلامية، أي أنها تريد الوظيفة الإعلامية لرجل الدين.

وإن المـــرء ليتساءل عن الكيفية التي نشط فيها رجال الدين في ظل دول تدعـــي العلمانية فصاروا أقوياء يهددون أنظمة واستقرارًا ويستفحلون حتى يسيطروا على الحياة العامة من دون أن يستلموا مقاليد الحكم.

فهم من مواقعهم التحتية يوجهون السلطات لكي تفعل ما يريدون إرضاء لهـــم، ويستعْدون هذه السلطات على العقول النيرة وعلى القوانين الإنسانية وعـــلى الكـــتابات العقلانية، ومن هذه المواقع التحتية يضعون المعايير باسم الديـــن لكل ما في الحياة، وتسعى الدولة إلى تبني هذه المعايير والدفاع عنها، حتى وهي مستمرة في ادعاء العلمانية، تحت ستار عدم إثارة رجال الدين أو الرأي العام الديني.

وتصبح العلاقة بين السلطة وهؤلاء مضحكة ومخزية في آن، فرجال الدين يـــبقون على مسافة بينهم وبين السلطة مهما استفادوا منها، أي أنهم يظلون حيث يبدون وكأنهم في موقع المعارضة التي يمكن استرضاؤها، والدولة تظل ساعية إلى هذا الاسترضاء بحيث تصبح إجراءاتها مستمدة من هذه الرغبة في المراضـــاة، أكثر مما هي مستمدة من الصالح الوطني، وهنا يجب ألا يثير الأمر الكـــثير مـــن استغرابنا، فشعارات العلمانية هي للاستهلاك الإعلامي، أما مراضاة رجال الدين فهي من أجل تثبيت دعائم الحكم.

ولا شك في أن ما يحدث في منطقتنا غريب، لكنه ليس استثنائيًا، فتاريخ الفكـــر قد عرف مثل هذا الاستعداء للعامة على العلماء والأئمة، وكان هذا الاستعداء يهدف إلى تقديم التسويغات للقمع المنظم أو الانتقائي الذي تقدم علـــيه السلطات ضد هذا العالم أو ذاك، وراح ضحية هذا الاستعداء شهداء أكثر من أن يُعدّوا، ولكنه لم يعرف بعد هذا التوظيف اليومي المتعمد للحس الديني ضد كل ما هو نيّر وعلمي إلا حين يكون المنغلقون من رجال الدين ممســـكين بتلابيـــب الســـلطة السياسية ذاتها، بحيث إنهم يكونون هم الذين يصـــدرون الأوامر ويسنون التشريعات حتى وهم في موقع المعارضة، وبحيث

يكونون مستشاري السلطة ودعاهّا، ومن ذلك ما حدث أيام محاكم التفتيش في أوربا.

أما أن يحققوا هذا كله وهم محسوبون على المعارضة فذلك من إنجازات القرن العشرين.

فمن الملاحظ أنه في الوقت الذي تتم فيه مجابهة "كسر العظم" بين التيار الديـــني والســـلطة السياسية في ميادين العنف المسلح في أكثر من قطر عربي كانت لعبة عض الأصابع المستورة بين السلطات والمعارضة الدينية تحدث في ميادين أخرى لعل أهمها ميادين الإبداع والإعلام والتربية.

السلطة تريد التأكيد على شرعيتها، وهي تريد هذا التأكيد بسبب تشككها في مشروعيتها أو بسبب معرفتها الأكيدة أن مشروعيتها موضع شك.

ولذلك فإنها تريد من خلال رجال الدين أن تؤكد الإيحاء بالعمق الشعبي لسلطتها وبمباركة الدين لهذه السلطة، ففي المجتمعات الإسلامية هناك تراث عريق من ربط الحكم بالدين والخليفة بالإمام، فإذا لم يكن الخليفة هو الإمام لابد له من أن يضمن بيعة الإمام والتأكد من أن الخليفة، الإمام يُخطب باسمه في المساجد.

ويـــبدأ رجـــال الدين بابتزاز السلطة ذات الضحالة الجماهيرية من نقطة ضعفها هذه، فبقدر ما تريد السلطة أن توحي بعلمانيتها ومدنيتها أمام الناس والعصر (والأجانب)؛ فإنها تزيد من التمسك الظاهري بالأمور الدينية، ترفع ميزانية وزارة الأوقاف وتقدم الأموال أو المعونات لبناء المساجد، وتزيد من الـــبرامج الدينية في وزارة الإعلام وتزيد من التأكيد على الدروس الدينية في المناهج التعليمية، وتزيد من تشددها في المناسبات الدينية، مثل مظاهر الصيام في رمضـــان، والتأكد من إحياء الشعائر الدينية إعلاميًا في المناسبات الخاصة كليلة القدر والنصف من شعبان والمولد النبوي، وإصرار الزعماء السياسيين عـــلى الأداء الإعلامـــي، أمام شاشات التلفزيون، للصلوات ذات المناسبات

الهامة مثل صلاة العيد، وبالمقابل فهي تقصر مطالبها من الوسط الديني حتى الدرجة الدنيا: الاكتفاء غالبًا بأن يقرأ خطيب الجمعة الخطبة التي ترسلها إليه أجهــزة الأمن، أو مراعاة بعض النقاط التي تريد السلطة التركيز عليها، ولا تعدم الدولة بعض رجال الدين الذين يكيلون لها المدائح، مثلهم مثل موظفي أجهزة الإعلام.

والــرقابة الإعلامــية لا تعترض على الخرافات التي يشيعها بعض رجال الدين بحيث يفترون بذلك على الدين ويظهرونه بالمظهر المتخلف، (كأن يأتي مــن يــتحدث في التلفزيون نفسه عن ضرورة تحريم التلفزيون نفسه والغناء والموسيقى وتعليق الصور، هذا غير الحديث عن الجن الذي يلطأ تحت الأظافر ويدخل الفم عند التثاؤب)، ولكنها تعترض على الفكرة العلمية التي يمكن أن يتحدث بها مثقف (كأن تدعو إلى المجتمع المدني أو إلى السفور) بحجة مراعاة رجال الدين.

لماذا يراعى رجال الدين وتحترم أحاسيسهم تجاه المسائل العلمية ولا يحترم العلم والعلماء والعقل والمنطق تجاه الخرافة والتخلف؟.

/17/

الأنتي - يوتوبيا

من أجمل العبارات التي تلخص وضع الإنسان المعاصر في ظل أنظمة القمع قول ريتشارد لوينثال في كتاب: ‹ثلاث مقالات في الدولة التوتاليتارية› (ترجمة صخر الحاج حسين): «تنتهي محاولة الإنسان للتمرد على الله في عبودية كاملة للدولة، فقد أثمرت محاولته لخلق جنة على الأرض في إيجاد جهنم بدلاً منها».

ولوينثال كاتب ألماني نشط في الحركة الاجتماعية الديموقراطية الألمانية، والعبارة مأخوذة من مقال له بعنوان ‹الجحيم›.

ولمزيد من التفصيل والتوضيح نأخذ منه أيضًا: «جهنم الفريدة والحديثة التي جلبها إنسان القرن العشرين هي ديكتاتورية الحزب الواحد، وهي الـ

"جهـــنم" التي لا يسكنها أي قانون أو أي اعتبارات أخلاقية أثناء ممارستها لســـلطاها، والتي تنكر على الفرد ملاذه الخاص وتجهد لاختراق كل مجالات الحياة، وتجعل كل الموضوعات تخدم أغراضها».

تخـــلى الكتاب عن حلمهم باليوتوبيا وراحوا يكتبون عن الأنتي يوتوبيا (المدينة غير الفاضلة، أو عكس المدينة المثالية)، فاليوتوبيا تعني اللامكان، وهي إلدورادو، وهي المدينة الفاضلة.

لقـــد تـــأكد لبعض الكتاب أن المكان المثالي للإنسان ليس موجودًا على ســـطح الأرض، ليس موجودًا في هذه الدنيا، ولما كانوا غير مؤمنين بالمعنى الديني، فإنهم لم يتطرقوا إلى الجنة التي ستكون بعد الموت، ولذلك رأوا وضع الإنســـان مأساويًا، وراحوا يكتبون ما تقدمه لهم مخيلتهم المذعورة عن مصير هذا الإنسان.

ومـــن هـــذه الكتابات تتميز روايتا جورج أورويل: ‹مزرعة الحيوانات› و‹1984›، ورواية ‹نحن› ليفغيني زامياتين.

روايـــة زامـــياتين وهي قصة هجائية عن تحول الإنسان إلى آلة، قال عنه الـــناقد الفرنســـي فريدريك ليفيفير في مجلة ‹لو نوفيل ليتيرير›: «لم ير النقاد قصـــيرو الـــنظر في هذه الرواية أكثر من أهمية سياسية، وهذا غير صحيح، فهـــذه الـــرواية نذير بالخطر الذي يتهدد الإنسان والإنسانية جراء السلطة المتزايدة المتضخمة للآلة وللدولة أيا كانت هذه الدولة».

ولكن الحرب الإيديولوجية هي التي قلصت وظيفتها الإنذارية إلى وظيفة هجائية لنظام بعينه (هو النظام الشيوعي)، وبذلك تحول أثر الأعمال الأدبية من رسالة إنسانية إلى هجاء في خدمة حرب إيديولوجية وسياسية.

وهذا ما حدث أيضًا لكتابات جورج أورويل، وضمن حاجات الدعاية الإيديولوجـــية ذاتهـــا يـــتم تقزيم كاتب مبدع، مثل جاك لندن، من خلال الاكتفاء من إبداعه كله برواية ‹العقب الحديدية› الدعائية الرديئة.

يتحول الناس في جزيرة زامياتين إلى أرقام وأحرف، والمدينة مقسمة إلى شوارع بأرقام، والأبنية والقاعات كذلك .. حتى الانفعالات والعواطف.

وكأنما الكاتب يعيد صورة «الأزمنة الحديثة» لشارلي شابلن حول مكننة الإنســان: ففي «كل صباح، وبدقة سداسية العجلات، وفي ساعة واحدة ودقــيقة واحدة ننهض، نحن الملايين، كرجل واحد، وفي ساعة واحدة نبدأ نحن الملايين عملنا كرجل واحد، وفي ساعة واحدة كرجل واحد ننهيه، وفي ثانــية واحدة يحددها اللوح نرفع، وقد انصهرنا في جسم واحد ذي ملايين الأيدي، الملاعق إلى أفواهنا، وفي ثانية واحدة نخرج إلى النزهة، ونذهب إلى قاعة تمارين تيلور، ونمضي إلى النوم».

كــيف هو الجنس إذًا في حالة كهذه؟، «شرعتنا التاريخية حول الجنس: لكل من الأرقام الحق في أي رقم آخر بوصفه منتوجًا جنسيًا، ويأتي بعد هذا دور التقنــية، يعايــنونك ويفحصــونك بدقة في مختبرات مكتب الجنس، ويحددون لك بدقة تركيب الهرمونات الجنسية في الدم، ويضعون لك جدولاً مناسبًا بأيام الجنس، ثم تتقدم بتصريح برغبتك في أن تفيد في الأيام المخصصة لــك من الرقم كذا أو الرقم كذا فتستلم دفتر القسائم المقرر — الوردي — وهذا كل شيء».

مرتين في اليوم، من الساعة (16 إلى 17)، ومن (21 إلى 22)، يتفكك الجســم الواحد الجبار إلى خلايا متفرقة، إنهما الساعتان الشخصيتان اللتان حددهما اللوح، في هاتين الساعتين يمكنكم أن تروا الستائر في غرف البعض مسدلة بحشمة.... طال الوقت أم قصر سنجد في وقت مــا هــاتين الســاعتين أيضًا مكانًا في الصيغة العامة، وستدخل هذه الــثواني الــ (864000) كلها في لوح الساعة.. كيف كان بإمكان الدولة.. أن ترضى بأن يعيش الناس من دون أي شيء يشبه لوحنا، مــن دون نــزهات إلزامــية، من دون تنظيم أوقات الطعام، وبأن يستيقظوا ويناموا حين يحلو لهم.... وأن تدع الحياة الجنسية من دون مراقبة: من يشاء وفي أي وقت يشاء وقدر ما يشاء.

ومـــن الواضـــح أن الرعب الذي يسكن هؤلاء الكتاب هو توقع مكننة المجـــتمع وتحويـــل الإنســـان فيه إلى آلة، وهذا ما يهدد العواطف والمشاعر الإنســـانية، وكل ما يميز الإنسان ويفتح أمامه آفاق الخيال والاستمرار، إنه الرعـــب مـــن انقطـــاع الصلة بين الإنسان وبين الطبيعة في داخله وحوله، فالإنســـان لا يـــريد الـــبقاء في حالة كونه آلة للتكاثر، ومقابل ذلك هناك الأنظمة التي تقوم على اعتبار أن الإنسان يمكن تحويله إلى آلة.

ومـــن المؤسف أن أعمالاً كهذه عن المصير الأسود المتوقع للإنسان عامة يـــتم حرفها وتوظيفها لتصبح هجائية للمجتمع الاشتراكي وحده، وهذا ما كان أورويل نفسه قد احتج عليه في حياته وبعيد إصدار الكتاب.

ففي كتاب سيرة حياة أورويل: «وقد حزن أورويل حزنًا كبيرًا.. لسوء الفهـــم أو التشويه المتعمد»، وقد شرح بنفسه ما كان يهدف إليه في كتابه: «أرى، بعد السماح للكتاب أن يكون محاكاة، أن شيئًا مثل ‹1984› يمكن أن يحـــدث، هـــذا هو الاتجاه الذي يسير فيه العالم في الوقت الحاضر، والتيار موجود بعمق في الأسس السياسية والاجتماعية والاقتصادية للوضع في العالم المعاصر.

والـــدرس الـــذي يمكن استخلاصه من هذه الحالة الكابوسية الخطرة هو درس سهل: «لا تدعوا ذلك يحدث، الأمر متوقف عليكم»، وفي مكان آخر يقـــول: «ليســـت روايتي الجديدة موجهة كهجوم على الاشتراكية أو على حـــزب العمل البريطاني، الذي أنا من مؤيديه، بل هي فضح للانحرافات التي يتعرض لها الاقتصاد المركزي، والذي قد تتحقق جزئيًا في الشيوعية والفاشية، ولا أعتقد أن نوع المجتمع الذي أصفه سوف يقوم بالضرورة، ولكنني أعتقد، ربما بالطبع مع قبول أن الكتاب هجاء، بأن شيئًا ما مشابهًا له يمكن أن يقوم، وأعـــتقد بأن الأفكار الشمولية قد مدت جذورها في عقول المثقفين في كل مكـــان، ولقد حاولت أن أمد هذه الأفكار إلى نتائجها المنطقية، إن المشهد

الذي تدور الرواية فيه مرسوم في بريطانيا من أجل التأكيد على أن الشعوب الناطقة بالإنكليزية ليست جوهريًا أفضل من أي شعب آخر، وأن الشمولية، إن لم تقاوَم، يمكن أن تنتصر في أي مكان».

إن الصــرخات الإنذارية تنطلق في كل مكان: لا تدعوا هذا يحدث، لا تدعوا السلطة تغير بنية الإنسان.

وفي مســرحية «الكلاب» لنيقولاي خايتوف بعد التصميم الحكومي على قــتل الكــلاب الــتي لا حاجة لها، وعلى وضع جهاز يبث تسجيلاً لنباح الكلاب وتسييج أمكنة الرعي بأسلاك كهربائية، يقول البطل ناتشو: «سينبح الحــاكي مــن الآن فصاعدًا، الأسلاك سترقص، لن يكون ثمة قضيب ولا عصا.. "لأغنام تثغو" فلتثغي الآن ما دام هناك أوان الثغاء، فقد تطرح في ما بعد مسألة الثغاء: "ماذا الثغاء والقفز من دون جدوى؟ يجب أن يحدث الثغاء حــين تكون ثمة ضرورة لذلك"، بعد ذلك قد تطرح مسألة كهذه، ولماذا لا تطرح ما دامت قد طرحت مسألة: "وما حاجتك لنباح الكلاب؟»

/18/

الحاشية

لقد ركز كثير من الباحثين على رصد الظواهر التي تتفشى في مجتمع المقموعين، ويبين كتاب «المقاومة بالحيلة – كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم» لجيمس سكوت، وهو واحد من أجمل الكتب التي قرأتها عن هذا الموضوع، كيف يلجأ الشعب المقموع إلى لغة جانبية يعبر فيها عن خطابه الحقيقي، وهو غير الخطاب المعلن الذي ينم عن الرضوخ.

«إن الرقيق والأقنان لا يتجاسرون عادة على مقاومة أحكام رضوخهم علنًا، إلا أنهم على ما يحتمل ينشئون سرًا مجالاً اجتماعيًا، يمكن فيه أن يعلنوا معارضتهم خارج المسرح للتراث الشعبي الرسمي القائم على علاقات القوة، وأن يدافعوا عنه، والأنماط المحدودة (من توريات لغوية ورموز طقوسية وحانات ومعارض ومخابئ دين الرقيق المظللة على سبيل المثال) كما يتخذها

هذا المجال الاجتماعي أو المحتوى المحدد لمعارضته (كتوقع عودة نبي، وعدوان طقوســي عبر السحر، والاحتفال بأبطال العصابات وشهداء المقاومة مثلاً) هي فريدة بمقدار ما تتطلب ذلك من ثقافة وتاريخ الفاعلين المعنيين.

«.. إن كــل جماعــة محكومة تخلق من محنتها "موروثًا خفيًا" يمثل نقدًا للسلطة يقال وراء ظهر صاحب السلطة».

ولذلك فإن «انتهاك الحرمات والاختلاس والنفاق والهروب — تلك التي عدهــا الكواكبي من ترسبات أنظمة الاستبداد - هي أنماط من التمرد يمكن أن نطلق عليها عبارة السياسة التحتية لمن لا سلطة لهم».

ولكـــن ما لم يدرس كفاية هو سلوكية رجل الحاشية في الحكم القمعي هذا الذي يخفي خطابه حتى عن نفسه.

ولعل كلام ماري في مسرحية ‹ماري ستيوارت› لفريديك شيلر يقربنا من توصيف هذه الجماعة وسلوكياتها:

ماري:... ولكن هذه الأسماء كلها التي امتدحتها بهذا القدر
والتي ستسحقني بثقلها — يا سيدي
أرى حامليها يلعبون دورًا مختلفًا في تاريخ إنكلترا.
أرى نبلاءك السامين، ومجلس شيوخك المعظم في مملكتك
يتملقون نزوات عمنا العظيم الملك هنري الثامن
مثلما يوصوص الخصيان عند سيد الحريم.
وأرى مجلس اللوردات هذا
لا يقل خنوعًا عن مجلس العموم المرتشي.
يسنون القوانين ثم يلغونها، يعقدون زواجًا
ثم يفكّونه — مثلما يريد سيدهم.
وتراهم يصمون الأميرات الإنكليزيات بأنهن بنات حرام
أو يلغون ميراثهن —وفي الغد يتوجوهن ملكات.

وأرى هؤلاء الشرفاء المبجلين صادقين مع قناعاتهم
إلى درجة أنهم، لكي يتلاءموا مع حكوماتهم،
يغيرون دينهم أربع مرات.

هـــذه الصورة متكررة في كل مكان وفي كل زمان، ففي رسائل فارسية يقول مونتسكيو: «وهناك تكلمت لغة لم تكن مألوفة حتى ذلك الحين: لقد زلزلـــت أركان الملق وبثت الرعب في العابدين والمعبود، وعندما تبين لي أن صـــراحتي كونت لي أعداء، وأثارت ضغينة الوزراء، ولم أحصل على رضا الأمـــير، وعندما وجدت نفسي وسط حاشية فاسدة لا اعتماد فيها إلا على فضيلة لا تقوى على مواجهة الفساد قررت أن أغادر البلاط».

إن شخصية الرجل – الحاشية (رجل البلاط) تبدو جديرة بالدراسة، فهو يعرف أنه يجب أن يكون، كما وصف شكسبير أحدهم في مسرحية هملت، "الرجل – نعم"، يطيع ويوافق من دون تفكير، ومن دون اهتمام بملاحظة أنه قد يوافق على الأمر ونقيضه.

هملت: ضع قبعتك في مكانها الطبيعي، فهي للرأس.
أوزريك: شكرًا يا سيدي، فالطقس حار.
هملت: لا، صدقني، فالبرد شديد، والريح شمالية.
أوزريك: بارد قليلاً بالفعل يا سيدي.
هملت: ولكنني أظن أن الطقس حار وشديد الرطوبة بالنسبة لبنيتي الجسدية.
أوزريـــك: جـــدًا يـــا سيدي، الرطوبة شديدة جدًا، كما لو أنها.. لا أعرف بم أشبهها.

وفي الوقـــت نفسه هو يعرف كيف ينظر إليه مولاه وكم يحتقره هذا المولى الذي يحتقر الناس كلهم، ومع ذلك يظل حاشية مطواعة مستجيبة في خدمته.

لماذا؟.

الجواب السهل هو: لأنه يستفيد، وأحيانًا لأنه يخاف.

ولكن الأمر يستدعي وقفة أطول.

فالحاشية التي تُسأل لاحقًا عن الأذى الذي سبق لها أن ألحقته بالناس تتذرع عادة بأنها كانت تنفذ الأوامر، وهي تلقي بالمسؤولية كما أشرنا سابقًا على رؤسائها الذين ينتهي سلم المسؤولية التراتبي عندهم بالحاكم نفسه. ويزداد تشبثها بهذه الذريعة إذا ضبطت عارية من سلطتها، (مثل أولئك الذين استنفذوا خدمتهم في ظل الطغيان ومارسوا القتل والنهب والسلب والسجن والتعذيب ثم أحيلوا إلى التقاعد أو أنهيت خدمتهم بفعل إحدى التصفيات المألوفة في تلك الأنظمة، أو الذين يبقون بعد زوال الطاغية بفعل انقلابي، فيتحولون في هذه الحالة إلى "**معارضة**"، إنهم قد استفادوا من السلطة حتى الدرجة القصوى، ثم هاهم الآن يريدون أن يسرقوا سمعة المعارضة، وإذا وجد من يسألهم عما كانوا يفعلونه يوم كانوا في السلطة أجابوك بأنهم كانوا بلا حول ولا قوة، وإنهم كانوا لا يفعلون أكثر من تنفيذ الأوامر).

والحقيقة هي أن الحاشية تنفذ الأوامر فعلاً، ولكن لها أيضًا قوتها الذاتية ومصالحها الخاصة في النظام وسطوته، وهم يتسلحون بسطوة النظام أو بالسطوة التي يمنحهم إياها النظام لكي يتحللوا من كل رادع أو وازع أخلاقي ليحققوا مكاسبهم وليحموا هذه المكاسب، وتلك الحماية لا يمكن أن تتم إلا بإكمال خدمة النظام على أتم وجه، بما يعني تجاوز القوانين والاستهتار بها والتجاوز على حياة الناس ومصالحهم وكراماتهم وتحطيم المعارضة وإسكات كل أصوات الاحتجاج ولجم الإرادة الشعبية وتزويرها وتحويل الناس إلى قطيع مطيع.

وقد تكون الحاشية جماعة من المتنفعين وقد يكونون أبناء منطقة أو طائفة أو عناصر حزب ما وقياداته، ولكنها في الأحوال كلها تريد أن توهم الناس أنها تمثلهم وتمثل مصالحهم، ومن أجل ذلك فإنها تحتاج إلى مناسبات دائمة للاحتفال بما تنجزه "**من أجل**" الجماهير.

ولكـــن لقلـــة إنجازات هذه القيادات فإنها تسعى إلى تضخيم ما تنجزه، وهـــذا التضـــخيم يفترض سلفًا أن الجماهير معزولة عن العالم لا تعرف بما يجـــري فيه، وبما أن هذه الجماهير ليست معزولة فعليًا فإن التغطية الإعلامية نفســـها توحي بعزلة السلطة عن العالم، ومن ثم، ولكي لا تتضح هذه العزلة المعروفة ضمنًا لدى كل مواطن والتي ينكرها خوفًا، ولدى السلطة ذاتها والتي تنكرها خوفًا أيضًا، فإن السلطة تعاند وتصر على الاحتفال ليس بالإنجاز، بل وبالذكرى السنوية لهذا الإنجاز.

ومـــع تكـــرار هذه الاحتفالات من دون توفر معطيات جديدة أو مادة جديـــدة يكـــون لا بد من اللجوء إلى الاجترار الإنشائي والخطاب الفارغ، ويتورط في هذا إعلاميون وشعراء وخطباء وسياسيون وأحزاب مشاركة في الحكـــم ليـــتفرغ الجميع ويتسخّفوا أمام الناس الذين يجبرون على الاحتفال وعلى التصفيق لما يرونه مقززًا في تفاهته.

ويعلـــق الدكـــتور أحمـــد برقاوي على إعلام الاستبداد بالقول في مجلة ‹النقاد›: «إعلام الدولة المستبدة إعلام إخفاء، تزييف، تخريف، اقتصاد منهار وإعـــلام نمو، جريمة متفشية وإعلام أمن، تعليم متدنٍ وإعلام نهضة وتقدم، فســـاد ورشـــوة وإعلام نظافة ومسؤولية، فقر وجوع وإعلام رفاه ووفرة، استســـلام وخنوع وإعلام عقلانية وواقعية، سياسة تابعة وإعلام استقلال، سلطة أبوية أوتوقراطية بامتياز وإعلام حداثة، قمع وسجون وإعلام حرية».

هـــذا يوصـــلنا إلى ظاهرة أسميتها ظاهرة "المفوهين"، والمفوهون ظاهرة سياسية واجتماعية وثقافية ودينية.

فـــالعذاب الأكبر الذي تتعرض له هو أن تضطر للجلوس ساعات، وربما لأقل من ساعة، ولكنك تحس بها أطول من ساعات وأيام، وأنت تستمع إلى هـــؤلاء المفوهـــين، وأقصد الخطباء الذين نراهم ونسمعهم وهم "يحيّون" المناسبات المتنوعة، إعلامية أم سياسية أم اجتماعية.

قد تكون المناسبة تأبينًا حتى لفقيد عزيز عليك، وقد تكون حفلة تكريمية أو حفلـــة عرسٍ لمن يهمك أن تحتفل به أو تكرمه، وقد تكون مناسبة وطنية أنت مهتم بها فعلاً... تظل مصيبتك في الحالات كلها هي في هؤلاء المفوّهين الذين احترفوا وقفة المنابر، واحترفوا معها حرفة أن يتحدثوا مطولاً ولا يقولوا شيئًا.

إنهـــم محـــترفون بلا عواطف، لا يحزنون ولا يفرحون، لا يغضبون ولا يتحمســـون، يشـــبهون منظمي "العراضات" الاحتفالية، ومنظمي حفلات الأعـــراس أو الطهـــور أو النجاح، ويشبهون أيضًا في كلامهم وسلوكهم وتعبيراتهم عناصر مكتب دفن الموتى، يعرفون كيف يرددون عبارات التعزية، ويقدمون القهوة المرة، ويحفظون الأدعية والآيات القرآنية التي يجب أن تُتلى، ويقومون بذلك كله بحِرفية مغسولة من أي حس إنساني.

لا يخـــتلف أي من هؤلاء عن الخطباء السياسيين وغير السياسيين الذين احـــترفوا الخطابـــات في المناسـبات الوطنية والسياسية وغير السياسية، إذ يكـــررون الكلام ذاته حتى يجعلوا المستمع ينفر من الحفل أو المناسبة.. وحتى من الحدث الوطني ذاته، أو المناسبة غير الوطنية ذاتها، الاحتفالية أو التكريمية.

والمفوهون هم كل الذين يلفظون الكلام ولا يقولونه، ومن ثم فهم أيضًا رجال الدين في المناسبات الاجتماعية وخطباء المساجد الذين يكررون كلامًا قـــيل قبلهم ملايين المرات، ولكنهم هنا سلخوا أنفسهم نهائيًا وعدوا الحفظ قـــيمة، فهم يرددون أدعية محفوظة وتسابيح معروفة يوحون بها أنهم يقدمون خطابهم.

وهم بهذا يختلفون عن المقرئين المأجورين الذين يقرّون أنهم لا يقدمون من أنفســـهم إلا الصوت، ولكنهم يحاولون أن يجعلوا لهذا الصوت قيمة فنية من خلال كونه قيمة دينية.

إنهم الخطباء الذين لا يهمهم أن يسمعهم الجمهور، وهم الكتّاب الذين لا يهمهم أن يقرأهم القراء، ترى على وجوه هؤلاء جميعًا، وفي كلامهم، ذلك

الحياد السلبي الذي تراه في وجوه عارضات الأزياء مهما كانت أجسادهن أو ملابسهن جميلة.

والمثير للاهتمام هو أن هؤلاء المفوهين لا يجهلون انعدام تأثير كلامهم، هم يعرفون أنهم يقولون كلامًا مجترًا أو محفوظًا بلا معنى وبلا مشاعر، ويعرفون أنهم، ولا سيما في الحفل السياسي، ينافقون، والجمهور يعرف، لا أحد يخفي عن الآخر شيئًا، والمحاسبة هي على درجة إتقان التفاهة المفرغة بإتقان، والتي لا تقول شيئًا.

فالخطيب في هذه الحالة هو من لا رأي له، ولا عاطفة. وهو معني فقط بقول ما يُرضي المناسبة والقيمين عليها، وما "يلائم" المقام، فهو لا يذهب لكي يقول رأيًا، بل يذهب لكي يقول **"ما يجب أن يقال"**.

وبعض المستمعين والمشاركين يتواطؤون معه، كل منهم يصفق للخطيب، وكأن الكلام مفاجئ، أو كأنه يسمعه لأول مرة، وكذلك كل خطيب يعرف أنه يقول **"ما يجب أن يقال"** فقط لا غير، وكل منهم يستعد لأن يفعل ذلك، ويقول ما يجب أن يقال لو أتيحت له الفرصة.

والمفوه لا يهمه أن يقف أحيانًا ساعات وراء مفوه آخر من دون أن يفعل شيئًا، أو من دون أن يكون مطلوبًا منه أن يفعل شيئًا، إنه لا يراقب القاعة أو الجمهور أو الخطيب، هو جزء من الخطيب ومن القاعة في آن، وهو أيضًا لا شيء، وهو يعرف أنه لا شيء، وقد قَبِل أن يكون هذا الـ "لا شيء"، إنه جزء من الصمم والعته والبكم، وحين يقبل أن يكون كذلك يعرف كيف يجد مفخرته في أنه كذلك، ومن ثم فهو يطلب من الآخرين أن يكونوا كذلك، حين يأتي دوره لكي يكون الخطيب، ليصبح الواقفون بالدور بعده، هم أيضًا، لا أشياء.

فالحالة التي تقوم على إلغاء عقل المتكلم تسلم سلفًا بإلغاء عقل المستمع، والحالة التي تقوم على إلغاء عقل الكاتب تسلم سلفًا بإلغاء عقل القارئ.

ووسط هذه الحالة الاحترارية الإدمانية غير المفهومة تمامًا تستغرب كيف لا يوجد بين أصحاب القرار (من الدولة الراعية للاحتفال أو الإعلام إلى أصحاب العرس أو المأتم) من يقول: لا ضرورة لإضاعة الوقت وتكرار هذا الكلام الببغائي، ثم يأتي الإعلام و "يغطي" المناسبة، وبما أنه إعلام السلطة، والمفوهون رجالها فإن الحدث الأهم لهذا الإعلام هو كلمات خطباء الحفل وليس حتى المناسبة ذاتها في كثير من الأحيان. فتصدر الصفحات المعبأة بذلك الكلام المجتر، مع تقديم وتنويه وتكريم وربما تعليق أكثر احترارًا. (ولنا أن نذكّر بأكثر من مناسبة تم فيها تكريم أطراف معينة ثقافية أو أدبية أو علمية، ثم نشرت الصحف في اليوم التالي كلمات المسؤولين وخطاباتهم وأغفلت أسماء المكرمين).

وماذا يهم المحرر إذا قُرئت الصحيفة أم لم تُقرأ، المهم أن يرى المفوهون صورهم وكلامهم منشورًا فيرتاحون، ومن راحتهم يستمد المحرر راحته، وهم يرتاحون لأنهم يتخيلون أن من هم أعلى منهم سيرون هذا الكلام، ولن يقرؤوه، وهم يعرفون ذلك، ويرتاحون فيرتاح الجميع.

ولكن لا أحد يفكر في القارئ أو المواطن.

وقد حدث ذات يوم أن دعت نقابة الفنانين لحفل تكريم للفنانين والأعمال الفنية التي برزت في موسم معين، وجاء أحد المسؤولين فألقى خطابًا، وفي اليوم التالي نشرت الصحف خطاب المسؤول وخطاب نقيب الفنانين واكتفت بهما، ولم تر أن من الضروري حتى ذكر أسماء الفنانين المكرمين أو الأعمال الفنية التي يقام حفل التكريم لأجلها.

إن الإعلام في حالة كهذه يستدعي وقفة خاصة، القائمون عليه يعرفون أنهم يكتبون كلامًا لا يُقرأ، والمسؤولون عنهم يعرفون ذلك أيضًا، والكتّاب المرغمون بحكم وظائفهم أو استرزاقهم يعرفون ذلك أيضًا، ومع ذلك فهناك إصرار على إعلام من هذا النوع.

ويبدو الحاكم الأعلى المطل على المشهد محيّرًا، إذ يبدو عليه مثل أهل ميت عزيز، يريدون أن يجمعوا كل ما قيل عنه في تأبينه، ويودون لو يطبعونه في كتاب، وهو كتاب لن يقرأه إلا أهل الميت، ولذلك فالعائلات القادرة تفعل ذلك على حسابها وللذكرى، يرى الحاكم، لأيام ولأشهر، صفحات مطولة من الكلام الإنشائي الذي يمتدحه، وهو يعرف أن هذا الكلام غير مقروء، ولكنه يظل راضيًا.

يبدو صحيحًا أن هناك اعتقادًا لدى رجال الإعلام، بتوجيهات من السلطة العليا، أو باجتهاد خلوم يستخدم الثقافة والخبرة، ومفاده هو أنك إذا تابعت الكذب لابد من أن يصدقك الناس، ولعلنا نضيف: فلا بد من أن تصدق نفسك.

والكذب، كما نعرف، نوعان: هناك الكذب الذي يقال فيه ما يغاير الحقيقة، والكذب الذي لا يقال فيه إلا نصف الحقيقة، ويتم إخفاء النصف الآخر أو تجاهله.

وهذا الإخفاء يسوغ نفسه بأنه من "ضرورات المرحلة"، أو أننا يجب أن لا ننشر غسيلنا الوسخ أمام الناس.

ويقول حسن حنفي: «وعادة ما يتصور النظام السياسي في بلادنا أن أوضاعنا هي من قبيل الأسرار التي لا يعلمها أحد، كما أن المواطنين كذلك لا يعرفون عنها شيئًا، فأي اتصال بينهم وبين علماء في الخارج فضح للأسرار وكشف للمستور، مع أن الخارج يعلم عنا أكثر مما نعلمه عن أنفسنا، وأن الغرض من منع المؤتمرات الدولية هو الخوف من تقوية الرأي العام الداخلي استنادًا إلى الرأي العام الخارجي، والنظام السياسي يخشى من الخارج أكثر مما يخشى من الداخل».

ولكن كيف ينظر رجال الحاشية أحدهم إلى الآخر؟، وكيف ينظر إليهم سيدهم؟.

ذات يوم دعي شخص متنفذ ومرهوب الجانب وله جيشه وحرسه وأتباعه لكي يحضر مناسبة ما في الجامعة، وارتبك لأنهم أساتذة وأكاديميون وهو جاهل وشبه أمي، وراح يسأل للمقربين منه إذا كان من الممكن ألا يذهب لكي "لا يتبهدل"، وكان يتساءل: هؤلاء أكاديميون وأساتذة جامعة، ماذا سأقول لهم؟، وفي النهاية ذهب، وقد قرر أن يحتفظ بصمته الذي يناسبه كمسؤول.

لكن حجم التملق الذي التقى به في الخطابات الترحيبية، والإطناب بمواصفاته العظيمة إبداعيًا وأكاديميًا، وتقديم دكتوراه فخرية له حل عقدة لسانه، فصار ينظّر لهم حول ما يجب أن يفعلوه.

ومنذ ذلك اليوم لم يعد أحد من الأكاديميين يفعل شيئًا إلا بعد استشارته، وبما أنه صغير وتافه، فقد صغّرهم وتفّههم، وصارت المهام الموكولة إليهم تصغر وتصغّرهم حتى تحولوا إلى مجموعة مرتزقة ومخبرين، وصار سقف طموحهم رضاه، وانحصرت مطالبهم في البيت والسيارة والمهمة خارج القطر، وتسلم دائرة في حلقة دوائره التي اخترعها من دون شرعية دستورية.

وما فعله هذا الرجل يفعله كثير من المديرين والوزراء الذين يعينون في مناصب لا أهلية لديهم لها، فقوة منصبهم وتكالب المنافقين والمرتزقة تجعلهم ينظّرون في كل شيء مما يفهمونه وما لا يفهمونه.

ولنا أن نتصور وضعًا كهذا في ميدان تخصصيّ، كأن يتورط أحدهم للتنظير في الشعر والموسيقى أو عن الكومبيوتر أو الهندسة أو الطب.

بعقلية "الشبيح" ذاتها يتعامل المدير والوزير والمسؤول والمشرف وراعي المهرجان أو ممثله، وهؤلاء كلهم يتمترسون وراء الشعارات التي يطلقها الحكم، ويعدون أن الاعتراض على أهليتهم تشكيك في النظام نفسه، وموقف يهدف إلى عرقلة مسيرة التقدم التي يقودها الحكم.

وبعد أن تتعزز مراكزهم تزداد ثقتهم في أنفسهم، فيعملون، وبقدر ما لديهم من سطحية ثقافية وهواجس أمنية ورغبة في إثبات الولاء للحكم،

علـى قسر إرادة الناس وأحلامهم وإبداعهم، لكي يجعلوا الحياة كلها على مقاس عقولهم الضيقة وقدرتها على الفهم.

ولنتأمل محنة الثقافة، ومحنة الشاعرة أنا أحمدوفا، مع جدانوف كما وردت في كتاب ‹ظاهرة ستالين› لجان إيلينشتاين مع شواهد من (جدانوف - حول الأدب والموسيقى والفلسفة).

> أصدر الحزب حكمه على كل شيء، وكان حكمه حكم ستالين " القائد العظيم للعلم "، كما وصفه أحد المتحمسين، ووصلت هجمات جدانوف على " تفسخ " الموسيقى ذرا الجمود العقائدي والغباء، لأنها كانت موجهة إلى شوستاكوفتش، بروكييف، موراديلي، خاتشودريان، وكابالفسكي، وذهب جدانوف إلى درجة انتقاد الموسيقيين لإفراطهم في استخدام صوت الطبل والصنوج، وانتقد الرسم التجريدي بأنه " مخبول على نحو مطلق، فعلى سبيل المثال يرسمون رأسًا على أربعين رجلاً، عين تنظر في هذا الاتجاه والأخرى تنظر إلى البعيد.

... وقال جدانوف عن شاعرة لينينغراد الكبيرة أنا أحمدوفا: «إنه لمن العسير القول فيما إذا كانت راهبة أم ساقطة، ومن الأفضل القول إنها من هذه وتلك، فرغباتها وصلواتها تداخلت»، ويقتبس جدانوف القصيدة التالية ليفسروا رأيه:

> ولكنني أقسم بحديقة الملائكة
>
> وبالإيقونة المعجزة أقسم
>
> إنني أقسم بطفل عاطفتنا ...
>
> هذه هي أحمدوفا، بحياتها الشخصية التافهة والضيقة، بتجاربها الرخيصة ونزعتها الشبقة ذات الطابع الديني الصوفي.

ولكي لا نترك المجال للشماتة بالاشتراكية وحدها لا بد من أن نضيف أن المسألة ليست، و لم تكن، وقفًا على النظم التوتالتارية.

فقد صدرت مؤخرًا ترجمة كتاب «الحرب الباردة الثقافية» لفرانسيس سوندرز، وهو يتحدث عن الدور الثقافي الذي لعبته المخابرات الأمريكية في فترة الحرب الباردة، ومما جاء في هذا الكتاب:

> يتفرج هاري ترومان على أعمال هولبين ورامبرانت ثم يقول: 'متعة كبيرة أن تنظر إلى مثل هذا الكمال الفني، ثم تفكر بعد ذلك في أمر المحدثين الكسالى المختلين عقليًا'. ويعلن دونديرو نائب ميسوري في الكونغرس: 'الحداثة ليست سوى جزء من مؤامرة عالمية لإضعاف قوة أمريكا، الفن الحديث كله شيوعي'.
>
> وتتلو هذه التصريحات هجمة في الصحف تدعي أن الفنانين المغرقين في الحداثة يتم استخدامهم بشكل غير مباشر كأدوات في يد الكريملين، كما راحوا يؤكدون أن اللوحات التجريدية ليست سوى خرائط سرية تحدد مواقع الدفاعات الاستراتيجية الحصينة للولايات المتحدة، كما صرح أحد الخصوم بأن الفن الحديث في حقيقته وسيلة من وسائل التجسس، وأنك إذا عرفت كيف تقرأ تلك الأعمال فسوف تكشف لك لوحات الفن الحديث عن نقاط الضعف في تحصينات الولايات المتحدة وعن مواقع المنشآت الحيوية مثل سد بولدر.
>
> وفي عام (1947 م) حقق المحافظون انتصارًا باكرًا عندما أجبروا الوزارة على سحب معرض أمريكي متجول بعنوان «تطور الفن الأمريكي»، بعد أن كان قد وصل إلى باريس وبراغ، وقد قال أحد أعضاء الكونغرس: 'هذا فن يريد أن يبلغ الأجانب أن الشعب الأمريكي قانط ومحطم وبشع وغير راض عن قدره ويتوق لتغيير نظام الحكم'، وقال آخر: 'إذا كان أحد في هذا المجلس من يرى أن هذا النوع من التفاهة يمكن أن يحقق فهمًا أفضل عن الحياة الأمريكية فلا بد من إرساله إلى المصحة العقلية ذاتها التي جاء منها من قاموا برسم تلك الأشياء'.

هؤلاء العتاة الذين يتبوأون أعلى المناصب ويقيمون الجحيم الذي يلائمهم ويضمن استقرارهم هم رجال في خدمة الحكم، والحكم يتمثل في أمين عام الحزب الحاكم أو في الديكتاتور أو، اختصارًا، الطاغية.

وسـأنقل الآن مقطعًـا من رواية «مقتل الرجل الكبير» لابراهيم عيسى (والحـوار بالعامـية المصرية)، وكنت أريد تأجيل هذا المقطع لإيراده عند الحديث عن الطاغية وتصرفاته،لكنه هنا يقدم دليلاً إبداعيًا على نظرة الحاكم إلى هذه الحاشية التي تقوم على خدمته:

اسـتقبَل (الرئـيسُ، الريّس) رئيسَ الوزراء في هذا المكان حتى يستقرا على التغيير الوزاري الشامل بعد أن امتلأت البلد بشائعات حول قرب حلوله ودنو حدثه.

وضـع رئـيس الـوزراء الورق وقال للريس وهو يرتعش من الوجل والفرحة: تحب سيادتك نبدا بمن؟

رد الـريس في صحة وعافية لا تشي أبدًا بسن الثمانين الذي تجاوزه: بالزراعة؟

قـال رئيس الوزراء: سيادتك أنا رشحت لتولي هذا المنصب الوزاري المهم..

عقب الرئيس: مهم ليه؟.

- نعم؟.

*** بقول لك مهم ليه؟.**

حـاول أن يجد أي حروف تشكل أي كلمات ترضى أن تجيبه بسرعة: إنتاجنا الزراعي انخفض في السنوات الأخيرة.

- في حسم: وانت كنت فين؟.

ضعف وتحلل رئيس الوزراء تمامًا: سعادتك الأرقام بدأت في الانخفاض قبل أن تشرفني بتكليفي تولي رئاسة الوزارة.

في براءة قال الرئيس: ومتى توليت أنت رئاسة الوزارة؟

- من ثلاث سنوات.. آه..

ثم صمت الرئيس قليلاً وقال: يعني إنت عاوز تغير رئيس وزير الزراعة؟

- يـا أفـندم أنا مش عايز أغير حد خالص، سيادتك اللي أمرت بتغيير وزاري.

* فيه وزير الزراعة؟.

– سعادتك قلت شامل (يقصد تغيير شامل).

* وشامل يعني فيه وزير الزراعة؟.

في أسـى واستئناس قال رئيس الوزراء: ليس شرطًا يا سيادة الرئيس. ممكن يبقى شامل ولا يشتمل وزير الزراعة.

في سرعة سأله: ويبقى ساعتها شامل ازاي؟.

– يعني فيه استثناءات بالتأكيد.

.. قول لي إنت رشحت مين؟.

استعاد رئيس الوزراء ريقه الغائب: رقم واحد أستاذ بكلية الزراعة اسمه..

حدق فيه الرئيس مستفهمًا وناقمًا: اشمعنى كلية الزراعة؟.

ارتبك رئيس الوزراء: يا أفندم دا عشان وزارة الزراعة.

علا صوت الرئيس ولقنه درسًا: وهو يعني وزير الزراعة لازم يبقى أستاذ في كلية الزراعة؟.

تراجع رئيس الوزراء فورًا: لأ. مش لازم.

فتراجع الرئيس غاضبًا: مش لازم ازاي؟، يعني أجيب أستاذ في كلية الآداب أجعله وزيرًا للزراعة؟.

لم يعرف ماذا يقول رئيس الوزراء فانكتم، فصاح فيه الرئيس: انكتمت ليه؟ ما تقول رأيك.

في استكانة: الرأي رأيك يا افندم.

.. طيب ح اقول لك حاجة، إحنا نأجل تحديد اسم وزير الزراعة لغاية ما نستقر: هو لازم يبقى أستاذ زراعة والا لأ.

– أوامرك يا سيادة الرئيس؟.

* طيب نتوكل على الله كده ونختار وزير إيه.

– اللي تشوفه سيادتك.

شاخطًا فيه: إنت شايف إيه؟ إنت رئيس الوزراء.

بسرعة: نتكلم عن وزير الداخلية.

بحسم: خلاص نتكلم عن وزير الثقافة.

استسلم رئيس الوزراء كمصارع سقط تحت جسد خصمه: بالنسبة لوزير الثقافة أنا رشحت ثلاثة أسماء.

في لهجة الناصح قال الرئيس هامسًا في رقة أبوية: إسمع كلامي، العالم المثقفة دي محتاجة وزير حاسم حازم، محتاجين راجل بجد..... آه، زي الوزير اللي موجود دلوقت، هو صحيح خوَل، لكن بستين راجل.

- أنا مرشح لسيادتك اسمًا لمثقف كبير.

* خول برضه؟.

بتردد وفقدان بوصلة التكهن: هو سيادتك تؤمر بإيه؟.

* في إيه؟.

- في وزير الثقافة.

* مش فاهم.

- يعني عايزه سيادتك خول والا مش خول.

* وهي تفرق؟.

- الحقيقة..

.. حل الرئيس الموقف بتدخله في الصمت: طيب أنا ح أقول لك حاجة، إحنا نأجل الكلام في وزير الثقافة لحد ما نعرف إحنا عاوزينه خول والا مش خول... من الوزير التالي؟.

- كما ترى سعادتك.

* نتكلم عن وزير الصحة؟.

- سيادتك عايزه إيه؟.

* هو مين؟.

- وزير الصحة.

* يعني ح اعوزه إيه؟.

- سيادتك عاوزه دكتور ولا مش دكتور.

* إنـــت بتســـتهبل؟. وزير الصحة عايزه دكتور والا مش دكتور. طبعًا دكـــتور... لكـــن والله فكرة وجيهة، ليه ضروري وزير الصحة يبقى دكـــتور؟، هو يعني ح يكشف على الشعب في مكتبه بالوزارة والا ح يضـــرب حقن لوكلاء الوزارة والموظفين.... لكن شوف، أنا كل يوم قـــاعد أقرا في الجرايد عن الإهمال في المستشفيات والناس اللي بتموت فـــيها، إسمع، هيه الناس فاكرة إيه؟، قال يعني عشان دخل مستشفى ما يموتش؟، ليه يعني هو شعب بيستهبل وعينه فارغة، أنا عارف، فاكر إنه مـــادام عنا مستشفيات ما حدش يموت؟، ليه يعني؟، ناس ما عندهاش ريحة العقل ولا الدم، عشان كده أنا عايز وزير الصحة اللي جاي حتى لو كان كمساري يكتب على مدخل كل مستشفى الآية الكريمة " كل نفس ذائقة الموت "، أما نشوف بأه مين ح يعترض على إرادة ربنا.

ولنا أن نتصور أن شخصية رئيس الوزراء الممحوة هنا هي ذاتها شخصية رئيس الوزراء الذي يتحرك مصحوبًا بحاشية أخرى تخافه وتهابه ويعاملها كما عامله "الريس".

/19/

قلت للطاغية

«قلت للطاغية:
أنت لا الحاشية
سبب المحنة الدامية».

«شاهدة على قبر طاغية»

«حين كان يضحك كان أعضاء مجلس الشيوخ الموقرون ينفجرون بالضحك. وحين كان يبكي كان الأطفال يموتون في الشوارع».

أودن

ذات يوم عملت على تجميع مادة كبيرة عن عقائد الشعوب تجاه حكامها لاستخدامها في عمل مسرحي، وفي ما يلي موجز لأهم تلك العقائد:

- الحاكم مثل الصنم، يستمد سلطته من رضوخ الناس، والناس يرضخون لمن ينظم أمورهم ويوفر طعامهم وسلامتهم، بالتدريج يهابونه، ثم يقدسونه، وبعض الحكام غرتهم هذه الهيبة فادعوا أنهم آلهة.

- فالحاكم بيده الحياة والموت.

- يرزق من يشاء.

- هو الذي يخصب التربة... والبشر.

- ويساعد القطعان على التكاثر، ويساعد البحار على أن تمتلئ بالأسماك.

- والأشجار على أن تحمل الثمار.

- يشفي المرضى.

- يحرك الرياح.

- يتحكم بظهور الشمس وغيابها.

- وينزل المطر ويحجبه.

- أحد الحكام حين نزل المحل بقومه طلب من السماء أن تنزل المطر، وحين لم تفعل قضى النهار كله وهو يطلق سهامه على السماء.

- كان يصدق أنه إله.

- والناس كانوا يصدقون، ولذلك حين ينعدم الخير ويحل القحط وتحدث المجاعة كانوا يجيئون إلى الحاكم ويطالبونه بكشف الغم عنهم.

- وبما أنه صانع المطر...

- فهو المسؤول عن انحباس المطر.

- في بعض أنحاء غرب أفريقية حين تخفق الصلوات والقرابين للحاكم من أجل المطر فإنهم ينقلبون عليه فيقيدونه بالحبال ويسحبونه بالقوة إلى قبور أسلافه لكي يحصل منهم على المطر (أي على القوة التي تجلب المطر).

- وحين يخفق يقتلونه.

- في جزيرة في جنوب المحيط الهادي كان الناس يعدون حكامهم مسؤولين عن حالة الطعام في الجزيرة، ولذلك كانوا يقتلون الحاكم كلما حدثت مجاعة، وبعد مقتل هؤلاء الحكام واحدًا بعد الآخر لم يعد هناك من يجرؤ على تسلم الحكم.

وفي أمكنة أخرى كانت الكوارث تأتي، حسب العقائد السائدة، بسبب الإساءة التي لحقت بهذا الحاكم أو ذاك، وكان الاعتقاد السائد أن موت الحاكم أو مقتله يوقع الكوارث والأوبئة، فغيابه يغير نظام الكون.

ولنا أن نتذكر أن مسرحية أوديب لسوفوكليس تبدأ بالوباء الذي يشكو الناس منه، ثم يتبين أن سبب هذا الوباء هو السكوت عن مقتل الملك، وأن الوباء لا يزول إلا بالعثور على القاتل والاقتصاص منه.

وجميل بعد هذه الفقرات المأخوذة من عقائد الشعوب أن نقتطف فقرات من مقابلة مع الكاتب الشهير ألبرتو مورافيا عن موسوليني، وهي مقابلة صحفية منشورة في كتابه «الملك عاريًا»، يقول عن أيام موسوليني:

> **كان البلد كله بلا حراك، عهد الإيطاليون بكامل السلطة إلى الدوتشي، فكانوا يقتصرون على التصفيق له حين يلقي خطبًا، كانوا يثقون بموسوليني ونظامه ثقة صبي وارث لا يفقه من الأمور شيئًا فيترك لمدير أعماله أن يتكفل بكل شيء، فإذا بالوارث يكتشف ذات صباح وقد انتابته دهشة سيئة أن مديره قد دمره تمامًا... هذا بالضبط ما حدث في إيطاليا.... موسوليني، هذا الذي كان يُحيّا كمنقذ، والذي جعلت منه الهالة الأسطورية كائنًا استثنائيًا يعرف كل شيء ويُقرُّ على كل شيء، حتى أن صحيفة صقلية، حين ثار بركان «إيتنا» في صقلية، كتبت تقول: "كنا نعلم أن الدوتشي سيأتي ليوقفه بنظرة منه"، وقد جاء موسوليني ليقود البلد إلى كارثة لا سابق لها، ولم يدرك الشعب ذلك إلا في اللحظة الأخيرة.**

أي أننا منذ الثقافات البدائية حتى ديكتاتوريات القرن العشرين لا نزال حيث نحن، لا نزال وثنيين في تعاملنا مع الحاكم ومازلنا نراه إلهًا أو ابن إله أو

ظل إله أو ذا صلة ما بإله ما، أو على الأقل ما زال هو راغبًا في أن يقدم نفسه لنا على أنه إله أو من سلالة الآلهة.

ونحن قد ورثنا هذا، كما هو واضح من الاقتطافات السابقة، من تراثنا (الإنساني).

ويبدو أن مسألة أن يكون الحاكم إلهًا لم تعد، منذ زمن طويل، مقبولة كثيرًا، فكان أن جاءت فكرة زواج الآلهة بالبشر لإنجاب المخلوقات الاستثنائية، وهذا الإله الأب، المتزوج من الأنثى البشرية، يأتي في هيئة طير أو أفعى أو ما شاءت المخيلة البشرية أن تنسج، والولادة دومًا تتم بمعجزة، ودومًا هناك علائم ودلائل على استثنائية هذا المولود وعلى كونه مقدسًا أو ذا مستقبل خطير.

فليس المسيح وحده ابن عذراء اتصلت بالروح القدس؛ بل إن بوذا أيضًا كذلك، وبوذا لقب وليس اسمًا، والكلمة تعني المستنير أو المتيقظ، «رأت أمه حلمًا عن فيل جميل أبيض كالفضة دخل إلى رحمها من خاصرتها، وسئل الحكماء عن تفسير الحلم فقالوا إنها ستلد ولدًا يصبح بوذا أو ملكًا عظيمًا ... وبعد عشرة أشهر من حملها ذهبت ... وفي حديقة ... ولدت، وحالما سمع الحكيم أسيتا ... جاء ليرى الولد، ومن العلامات التي رآها على جسد الطفل عرف أنه سيكون بوذا.. وبكى لأنه لن يعيش إلى ذلك اليوم، وماتت أمه في اليوم السابع بعد ولادته».

وهرقل ابن زيوس (كبير الآلهة)، وألكمين حفيدة بيرسوس، وأفروديت ولدت من الرغوة الصادرة عن الأعضاء التناسلية للإله أورانوس (السماء) بعد أن قام ابنه كرونوس بإلقائها في البحر.

ومثلما كانت لبوذا والمسيح والنبي محمد علامات تدل منذ الطفولة على ما سيكونونه فإن الحاكم يجد من يعيد له صياغة تاريخه ليقربه من هذا الوضع، فيكتشفون له أنه كان في طفولته طفلاً معجزة خارقًا.

وكل حاكم يجب أن تكون في طفولته معجزة خارقة تقربه من الأنبياء والآلهة، فهو المتفوق الاستثنائي في الدراسة، والمناضل منذ نعومة أظفاره، والقدوة في شبابه، أو أيام الكلية، وهذا ما يسخر منه الكاتب البرتغالي خوزيه كاردوسو بيريس في رواية ‹صاحب الفخامة الديناصور›، إذ يقول عنه: «وهو لا يزال طفلاً كان يحمل وسم الزعيم الذي لا تخطئه العين، الزعيم الذي صاره بعد ذلك والذي يتزين باسمه كل مكان في المملكة».

وهذا الطموح الألوهي مستمر منذ فجر التاريخ.

فالحاكم كان إلهًا، ثم صار وريث الإله، ثم صار يكتفي بالقدسية في شخصه، والتي تشبهه بالإله.

والزعيم في العالم الثالث يلفت النظر، بوصفه الظاهرة الأكثر انتشارًا، ومشكلة أي زعيم في العالم الثالث هي أنه لا يقبل أن يكون إنسانًا مثل بقية البشر، ولا يقبل أن يعامل إلا كإله.

كل زعيم يريد بعدًا دينيًا لشخصه، وهذا البعد يمنحه قدسية، فإما أن يكون ظل الله على الأرض أو يكون أمير المؤمنين، أو سليل الأنبياء أو الأئمة، كما يأخذ صفات الله من الديمومة.

وفي حياتنا المعاصرة لم يعد من الممكن أن يدعي الحاكم أنه إله، لكنه يظل شبيهًا بالإله الذي لا يموت، وهو الذي يحتكر منح الأرزاق وقطع الأعناق، وهو الذي يحتكر القرار لأنه يحتكر الحكمة، ويتصرف مع الآخرين الذين ينتظرون قراره مثلما كان المسلمون الأوائل ينتظرون هبوط الوحي على الرسول.

وفي حياتنا المعاصرة، أيضًا، ومع ترويج الأجهزة عن معجزات الحاكم الخارقة، فقد ظل شيء من الخجل يمنعهم من الادعاء بالألوهية أو القدسية.

ولكن تلك الأجهزة تسرق الصفات القدسية من الأنبياء والآلهة لتلصقها بزعمائها، أي أنها تفرض على الزعماء المعاصرين العلاقة ذاتها التي كانت مع الأنبياء والقديسين.

علـــى الشعب، مثلاً، أن ينفجر بالتصفيق كلما ذكر اسم الزعيم في أي خطـــاب أو مناسبة، أو ينطلق بالهتاف: "يعيش، يعيش" عند ظهوره أو ذكر اسمه.

وهذه العادة موروثة من الماضي الذي كان على الناس فيه كلما ذكر اسم الخلـــيفة أن يقولوا: أطال الله عمره، وبعدها،كلما ذكر اسم الميت العزيز أن يقـــول الجمـــيع: "رحمه الله"، وهؤلاء ورثوها أيضًا عن علاقة الناس بالنبي الكريم الذي يجب أن يقول الجميع، كلما ذكر اسمه، "صلى الله عليه وسلم" أو "عليه الصلاة والسلام".

وقـــد ورثـــنا ضمن الموروث الإسلامي، تحديدًا، مسألة امتزاج الحاكم بالمقدس، فالرسول الكريم هو النبي صاحب الدعوة وهو "رئيس الدولة"، لأن الإســـلام تشريع دين ودنيا، وبعد وفاة الرسول صار "خليفة" رسول الله هو الحاكم، أي أنه خليفة المقدس أولاً، ومن مواصفات الخليفة أنه يؤم المسلمين في الصـــلاة، فصـــار "الإمام" والحاكم واحدًا، وصارت مواصفات الحاكم "الخليفة" هي مواصفات الإمام أولاً.

وحين برزت حركات المعارضة للخلافة القائمة (أموية أم عباسية) كان الجـــدل في شـــكله الظاهري حول صلاحية الخليفة (أو الشخص المعارض) لـــلحكم، وهـــذه الصلاحية تقررها مجموعة من المواصفات هي من سمات الإمام، والقائم على رأس المعارضة لا يطرح نفسه بديلاً من الحاكم علنًا بل يطرح نفسه على أنه المؤهل أكثر من الخليفة للإمامة.

وكانت ماكينة الإعلام (القائمة على الفتاوى والشعر أساسًا) تعمل على الـــترويج لمواصـــفات الخليفة (سلوكًا ونسبًا) بحيث تثبت حقه، وحق أهله وسلفه وخلفه لهذا الحكم، وفي الوقت ذاته كانت ماكينة الفتاوى الإعلامية تعمـــل على ارتجال أحاديث نبوية وانتحالها وفبركتها مع ارتجال تفسيرات قرآنية تساعد على تثبيت ادعاء الحاكم بالحكم، أو نزع الصلاحية عنه.

وحتى حين كانت سلوكيات بعض الخلفاء مما لا يمكن الدفاع عنه من فسق وفجور وسكر وتجاوز لحدود الله، فإن "الإعلام" المفتي كان يسعى لتثبيت الحكم على أسس دينية، وكان "الفقهاء" يثيرون عدم جواز إثارة الفتنة مستندين إلى الحديث الذي نقل، أو لُفّق، عن لسان النبي، واستخدمه الأمويون طويلاً في مرحلة القضاء على المعارضين لحكمهم، كما استخدمه المتسلطون على العرش العباسي بعد عصره الذهبي الذي انتهى عند المعتصم، وهو: "إنه سيكون هناك هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائنًا من كان"، ومن ذلك قول ابن كثير: «إن الإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه، بل ولا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك من إثارة الفتنة ووقوع الهرج وسفك الدماء الحرام.... وغير ذلك مما كل واحدة فيها من الفساد أضعاف فسقه، وقد شاع هذا المنطق وتسويغاته على النحو التالي: "جور السلطان مائة سنة ولا جور الرعية بعضها على بعض سنة واحدة، وإذا جار الرعية سلط الله عليهم سلطانًا جائرًا وملكًا قاهرًا".

وحين تقدم العلم وتطورت العقول صارت المسألة أكثر تعقيدًا بالنسبة للحكام وزبانيتهم، فالميل لدى فئات كثيرة من الأجيال الجديدة هو التخلي عن الالتزامات الدينية حتى بالنسبة للأديان السماوية التي يقولون إنها لا يرقى إليها أو إلى أنبيائها الشك، فكيف سيتم إقناع الناس بقدسية الحاكم؟ وكيف يتبنى الطاغية فكرة قدسيته؟

وهنا أسمح لنفسي باقتباس من كتاباتي السابقة، وهو مشهد من مسرحية ‹الغول› التي تتحدث عن فترة حكم جمال باشا، والمشهد حول الموجة الثالثة من الاعتقالات التي قام بها جمال باشا في سورية، وكان قد أعدم في الموجتين السابقتين عددًا من الزعماء الوطنيين الذين ما نزال نحتفل بذكراهم في السادس من أيار من كل عام، ولكن المساجين، هؤلاء، كانوا يتعرضون لتعذيب شنيع في خان أسعد باشا.

مراسل: " يدخل " يا باشا، يا باشا

جمال: " يلتفت إليه غاضبًا " ما بك تدخل إليّ كالمجنون؟

مراسل: يا باشا، لقد انتحر أحد المساجين في خان أسعد باشا.

جمال: " من دون اهتمام " فلينتحر، أنا أصلاً كنت سأعدمه، من هو هذا المستعجل؟.

مراسل: شكري بك القوتلي يا باشا.

جمال: مجنون. كان يستطيع أن يعيش عدة أيام أخرى، هل انتحر لأنه لم يتحمل التعذيب؟.

مراسل: بل انتحر لكي يتجنب التعذيب، أفاد الدكتور أحمد قدري المسجون معهم أن القوتلي قال له إنه سيموت قبل أن يسمح للسجان بسماع صراخه وهو يتألم.

جمال: " يضحك " ولِمَ يبخل علينا بسماع صوته؟، قد يكون صوته جميلاً، " لبهاء " ألم يكن صوت شكري العسلي جميلاً يا بهاء؟.

بهاء: جميل يا باشا.

جمال: خاصة وهو يركض في صحن الخان تحت الكرباج، ولكنه لم ينتحر، وشكري الأيوبي تحمل التعذيب في خان البطيخ، الذي انتحر هو شكري القوتلي، لماذا؟ كان يجب أن أستمتع بسماع صوته وهو يتعذب، " تعلو حدة صوته تدريجيًا "، من سمح له بالانتحار؟، كيف ينتحر؟، ما هذه الفوضى؟، هل نحن في بلد منظم أم في خان دواب؟، حتى في خان أسعد باشا يجب أن يكون هناك نظام، وأن لا يحدث شيء إلا بإذني.

مراسل: مفهوم يا باشا.

جمال: من المسؤول عن المساجين في الخان؟، أريد أن أراه اليوم على الخازوق، مفهوم؟ يجب وضع حد لهذه الفوضى، تصور ماذا يحدث لو أن الجميع يفعلون مثل شكري القوتلي، أن يقرر أي إنسان منهم أن يموت ساعة يشاء، ماذا أشتغل أنا إذًا؟، أفهمني، أتعرف ماذا يعني انتحار شكري القوتلي؟، يعني أنه يقول لي طز، نعم، طز، طز في عظمتك ودولتك، هأنذا أموت ساعة أشاء ولا تظل لك سلطة علي، إسمع، لا تقولوا لأحد إن القوتلي قد انتحر، علقوه على المشنقة حتى وهو ميت.

مراسل:ولكن شكري القوتلي لم يمت يا باشا.

جمال: لم يمت؟، أما كنت تقول قبل قليل إنه انتحر؟.

مراســـل: قلت يا باشا. ولكن عظمتكم لم تتركوا لي الفرصة لكي أقول إنهم نقلوه إلى الإسعاف.

جمـــال: و لمــاذا يسعفونه؟، شخص يخالف أوامري، يجب ألا يساعده أحد، يموت مثل الكلب.

مراسل: يا باشا، قال المسؤول عن المساجين في الخان إننا يجب أن ننقذ حياته.

جمال: الحيوان، بهاء، لا تنس أن تخوزق لي هذا المسؤول لكي لا يتفلسف مرة أخـــرى و يخـــترع القوانين كما يشاء، أنا أصدر القوانين، و أنا أحيي وأميت.

جوقة: أستغفر الله العظيم.

جمال: أقصد: أنا أصدر الأوامر بالموت و الحياة.

مراسل: هو قال ذلك يا باشا.

جمال: من قال ذلك؟.

مراسل: مسؤول السجن يا باشا.

جمال: ماذا قال؟.

مراسل: قال إن قرار الموت و الحياة بيد جمال باشا و حده، لذلك يجب إنقاذ حياة شكري بيك القوتلي لكي لا يموت إلا بإذن الباشا.

جمـــال: " مــرتاحًا " يفهـــم، هذا المسؤول يفهم، بهاء، ذكرني لكي آمر له بمكافـــأة، كلام جميل، لا أحد يموت أو يعيش إلا بإذني، أنا أقرر الموت والحـــياة، أنـــا، ولا أحد غيري، يجب إنقاذ القوتلي لكي لا يموت إلا بـــإذني، أنا أنقذه لكي أعدمه حين أريد، حتى الانتحار يجب أن يكون بأمري، حين أريد لشخص ما أن ينتحر أنا أعطيه أمرًا بذلك، أنا حاكم هـــذا الشعب، ولذلك يجب أن يكون مصيره في يدي، في يدي أنا، أنا أحيي وأميت، أنا أطعم وأحرم، أنا أُسكن وأشرد.

ولكـــي تكـــتمل الصورة فإن الحاكم يلجأ إلى ادعاء نسب يوصله إلى الرسول الكريم، أو إلى واحد من الصحابة، ويكون هذا بطلب مباشر منه، أو

تلبـية غريـزية مـن الحاشية التي تعرف أنه راغب في ذلك، فتفبرك له هذا النسب، وقد بلغ شعور جمال باشا بالعظمة أن كان يرتاح إلى تلقيبه بالغول، لأن هذا يعزز صورته المخيفة التي يرتاح إليها.

وحـين تـرد الفكرة إلى ذهن جمال باشا يقول: «ولم لا يكون فيّ فعلاً جانب قدسي؟ تصوري كم سيكون هذا الشعب مسرورًا حين يعرف، مثلاً، أنـني من سلالة النبي، سيحس بالفخر»، ثم يستدعي المفتي ويدّعي أمامه أنه رأى الخضـر في مـنامه، وأن الخضر قال له: «اكشف عن نسبك، لا تترك الجواهر مخبأة»، وبعد الحوار مع المفتي حول تفسير المنام:

جمال: والآن من مِن نساء النبي كانت تركية؟.

أسعد: لا أعرف يا باشا.

جمال: لا تعرف؟، ماذا تعرف إذًا؟، نبيكم ولا تعرف زوجاته؟.

أسعد: يا باشا، لا تعذبني الله يخليك، قل لي ماذا تريد وأنا أخدمكم بعيوني.

جمال: ألا تعرف ماذا أريد؟، أريد زوجة أو جارية تركية كانت عند رسول الله.

أسعد: لماذا يا باشا؟.

جمال: لأنها أمي يا شيخنا، أمي. فهمتها الآن.

ومـا يدعـو إلى الخجل المقرف هو أن أولئك الطغاة، بعد أن يصدقوا تمـيزهم عـن البشر، ويصدقوا حاجة المجتمع والحياة إلى وجودهم "الدائم"، يتورطون في التشبث بالكرسي والسلطة والحياة حتى بعد أن يصلوا إلى أرذل مـراحل العمـر والشيخوخة، فهم لا يموتون، أو يتوهمون أنهم لا يموتون، ويظلـون يحكمون إلى أن يغدر بهم الموت الحقير، وإلا كيف تفسر استمرار حكم يلتسين، وقبله فرانكو، ثم بريجينيف حتى العجز والخرف المطلق؟، ولن نحكي عن بو رقيبة.

فـيحكمون وهـم في مـرحلة الخرف، وتصبح سيرهم المخجلة وسيرة نـزواتهم، التي كثيرًا ما تكون منحطة، على لسان الناس كلهم، وفي الوقت

الـــذي يتحولون فيه إلى أضحوكة يكون الإعلام غارقًا في ما تعود عليه من تعظـــيم وتأليه لهم، والذين يتذكرون الأيام (السنوات الأخيرة من حكم بو رقيبة لا يحتاجون إلى أدلة على ذلك، ويكفي أن أنقل ما سمعته ذات يوم في الـــتلفزيون التونسي حين كان بورقيبة يطمئن الجمهور (الشعب) إلى وضعه الصحي بعد عملية دوالي في الخصية، إذ راح يجسد الخصية بيديه ويشرح لهم أين هو الشريان المتضرر، وكيف أجريت العملية له، وهو ما دفع شاعرًا مثل المنصف المزغني لكتابة ديوان كامل في توصيفه، باسم مستعار طبعًا، إذ سماه ‹قابور›، وقد كتب في ‹قوس الرياح›:

> **قصـــة الطفلـــين جعلت قابور مؤمنًا بأن الخروج إلى الشوارع يعني: تفكـــيك البراغي وخلع الأصنام وتمزيق الصور، لذلك أمر بالاكتفاء بتشييد تمثاله في جبل أرض "نعم" و "ياجبل مايهزك ريح" ودفعًا لكل خطـــر فقد أمر بتشييد مدينة قائمة الكيان داخل هذا الجبل، جبارة هـــي الجهـــود التي تطلبها بناء التمثال الجبلي، بالمثال تتضح أحوال الطـــلاب في أكاديمـــية الهندسة والفنون الجميلة الذين قضوا في بناء منخاره الأيسر خمس سنوات تعرفت خلالها طالبة على طالب سرعان مـــا تزوجا وأودعا ابنهما الأول لدى "دار الحضانة" التي يقع مقرها تحـــت طـــبلة أذن التمثال القابوري، ثم صرحا للصحافة العالمية إثر موت رضيعهما: لا يمكن للأجيال أن تحيا في تمثال.**

ويكفـــي أن تقـــرأ رواية ‹خريف البطريرك› لماركيز لترى إلى أي درجة يصل ابتذال الحاكم الخرف، وهو في السلطة ويتمتع بالسطوة التي لا تناقش، ويصـــل به الأمر إلى الذهاب إلى أمام مدرسة البنات الصغيرات لينتقي منهن من تعجبه.

/20/

الديكتاتور

كان يعيش متقشفًا في شقة في وزارة الدفاع، ولم يكن يشرب أو يدخن، وليست لديه رغبة في تملك أي شيء، كما لم تكن هناك امرأة في حياته، ولا حب من أي نوع... كان حالمًا ووحيدًا، وكانوا يسمونه الأوحد...«وبعد محاولة اغتياله» أغلقت عليه دائرة عزلة السلطة، نوافذ شقته مزودة بزجاج واق من الرصاص، وفي باب غرفة نومه ثقب تلصص يطل على مكتبه، لم يعد الآن قادرًا على أن يثق بأحد وبخاصة أولئك الذين يشتغلون معه.

قد يكون من المفيد تكرار هذه العبارة: «لم يعد الآن قادرًا على أن يثق بأحد وخاصة أولئك الذين يشتغلون معه».

المقطع المثبت أعلاه كتبته الكاتبة الإنكليزية (الإيرلندية الأصل) إيثيل مانين في كتاب يحمل عنوان ‹**العزلة/ Loneliness**›، وربما كان بيننا من لا

يـــزال يـــتذكر هذه الكاتبة، فهي صاحبة أول كتاب "أوربي" متعاطف مع الفلســـطينيين ومؤيـــد للقضية الفلسطينية، وذلك في رواية «الطريق إلى بئر السبع»، كما أصدرت بعد ذلك رواية «الليل والعودة» التي ترجمت ونشرت في دمشق عام (1966 م).

والمقطـــع المأخوذ من هذا الكتاب «العزلة» هو من فصل عن عبد الكريم قاســـم الذي التقته وكتبت عنه وهو في السلطة، وقد أخذته الكاتبة نموذجًا لعزلة الإنسان وهو في القمة، فهي ترى أن الإنسان يسعى للتفوق، في الجاه أو المـــال أو السلطة أو الشهرة الأدبية أو أي شهرة كانت، وحين يصل إلى قمة مسعاه يكتشف أنه صار وحيدًا، ووحدته لا تنبع من أن أحدًا لم يستطع الـــلحاق بـــه، بل تنبع، أساسًا، من عدم ثقته بأن مواقف الآخرين منه هي مواقف صادقة، إنه يراها مواقف نفعية أو مواقف تقية، بفعل الخوف.

وتتســـاءل الكاتبة: كيف يثق المليونير أو الحاكم أو النجم السينمائي أن محبة النساء له، مثلاً، هي محبة حقيقية وليست محبة مصلحة ومنفعة وارتزاق أو ســـعي للنجومـــية. (ونحن نضيف الخوف من الزعيم أو السعي لتحقيق مأرب منه)؟.

ألـــيس من أجل ذلك كان محمد علي كلاي **"الأعظم"** يقول: أنا الأكثر عزلة ووحشة بين شعراء الملاكمة المكللين بالغار؟.

وفي مســـرحية «**الحصـــان**» عن كاليغولا وهي من تأليف يوليوس هاي، تـــرجمة علي كنعان، نوع خاص من الوحدة عند كاليغولا: العزلة، أتعرف العـــزلة؟، هل هي عزلة الشعراء والعاجزين، العزلة ولكن أي عزلة؟، أنت لا تعرف أن المرء لا يمكن أن يكون في عزلة أبدًا، وأننا أينما حللنا يلاحقنا ثقل المستقبل وثقل الماضي، والمخلوقات التي قتلناها تظل معنا... آه بدلاً من هذه الوحدة التي يسممها وجود الآخرين ليتني على الأقل أستطيع أن أتذوق طعم الوحدة الحقيقية، الهدوء وحفيف الشجر.

وربما كان ما جاء في الوصف السابق لعبد الكريم قاسم ينطبق على غالبية زعماء العالم أو ذلك النمط من الحكام الذين اتفق على تسميته **"الديكتاتور"**، فالوصول إلى قمة السلطة، وبخاصة في دول العالم الثالث، هو وصول غير مشروع يتم، غالبًا، بانقلاب عسكري أبيض أو دموي، ولذلك فالحاكم يظل قلقًا وخائفًا، فما فعله هو بغيره قد يفعله غيره به، والإجراءات الوقائية التي يلجأ إليها تدخل حتمًا في باب الإرهاب القمعي الذي تمارسه الحكومة.

وابتداء بقمع الفكر وحتى التصفية الجسدية للمعارضين يراكم الديكتاتور في نفوس أبناء شعبه كراهية مستترة، أو معلنة أحيانًا، تتغذى على الخوف الذي يشيعه الحكم كل يوم (وهو ما فصل فيه طويلاً كتاب **«المقاومة بالحيلة»** الذي ذكرناه آنفًا).

ولذلك فإن السمة البارزة في حياة أي زعيم سياسي هي طريقة توفير حمايته، فالخوف الذي يشيعه هو من نوع الخوف ذاته الذي يشعر به ويعاني منه.

إن الزعيم المتروي والخائف يمارس أقسى أنواع البطش لكي لا يسمح لأي نأمة من خوفه الكامن فيه بالتسرب إلى الناس، وهو يمارس سلطته عبر زمرة من الأتباع يكون عناصرها محشوين بالخوف منه وبالرغبة في خدمته في آن؛ وذلك لأنهم من خلاله يؤمّنون مصالحهم وسطوتهم، وبمقدار ما يبدو عليهم أنهم جبابرة في إطلالتهم على الآخرين فإنهم يكونون ظلالاً باهتة وتافهة أمامه.

إن الحاكم يريد استمرارية حكمه، ولذلك فهو يحتاج إلى إرساء دعائم الخوف والإرهاب، وقد حدد أرسطو، كما أورد الدكتور إمام عبد الفتاح إمام في كتاب «الطاغية»، كيفية محافظة الطاغية على حكمه وسلطته:

1) **تدمير روح المواطنين وزرع الشك وانعدام الثقة في ما بينهم، وجعلهم عاجزين عن عمل أي شيء. وبذلك تعويد للناس على الخسة والضعة والعيش بلا كرامة بحيث يسهل عليهم أن يعتادوا الذل والهوان.**

2) **القضاء على البارزين من الرجال.**

3) **منع التجمعات.**

4) **حظر التعليم.**

5) **إغراء المواطنين بأن يشي بعضهم ببعض.**

6) **إفقـار رعايـاه (بـرفع الضـرائب وتقليل الدخل مثلاً) حتى ينشغل المواطـنون بالبحث عن قوت يومهم فلا يجدون عندهم من الوقت ما يتمكنون فيه من التآمر عليه.**

وهذه "الحاشية" من المظاهر اللازمة لكل ديكتاتور، فعناصرها هم مانعة الصواعق التي تحميه ثم تحمي سمعته، وعلاقة الحاشية بالديكتاتور علاقة ذات طبيعة خاصة.

ولقـد سبق للدكتور فؤاد زكريا أن نشر دراسة قيمة عن هذه الحاشية، وتتـلخص آراؤه فـيها بـأن هذه الحاشية المستفيدة، مع قدراتها على الحل والربط، هذه القدرات التي تتيح لها الاستفادة والإثراء والسطوة، تشيع دومًا بأنها لا تحل ولا تربط، وأن كل ما يجري في البلد يستند أولاً وأخيرًا إلى قرار الحـاكم المطلـق، ومن ثم فهم يحمّلونه حتى جريرة مباذلهم واحتيالهم على القـانون وتجاوزاتهم له من أجل مصالحهم وسرقاتهم للأموال العامة؛ وعلى أساس أن الفساد ناجم عن قرارات الحاكم وليس عن تصرفاتهم.

وبالمقـابل فإن شريحة أخرى من الحاشية المستفيدة تروج مقولة معاكسة لهذه المقولة، ومفادها أن الحاكم عنصر طيب وخيّر، ولكن ماذا يستطيع هذا الحـاكم وحده أن يفعل طالما أنه محاط بهذه الحاشية الفاسدة؟ إن الشر، كل الشر، ناجم عن هذه الحاشية التي تشوه سمعة الحاكم، وتريد هذه المقولة أن تصـور الحـاكم شخصًا مغلوبًا على أمره مستسلمًا لحاشية تفعل ما تشاء، وباسمه، ومن دون علمه.

وكـثيرًا مـا تركز هذه الدعاية على شخص محدد، أو أشخاص محددين بالأسماء، وهم في أعلى المراتب ليتحملوا وزر النظام كله.

ومـن الطريف أن هذه اللعبة قديمة، ففي ‹**ألف ليلة وليلة**›، مثلاً، هناك الحجـاج بـن يوسـف الثقفي، الذي تلصق الموبقات كلها به، والذي لا

يســـتطيع أحـــد أن يدافع عنه، مقابل الخليفة عبد الملك بن مروان الذي لا يعـــرف بكـــثير من الأمور التي يفعلها هذا الوالي، ولذلك فإن المظالم كلها تنتهي عند وصول الأمر إلى الخليفة الذي يحلها حلا عادلاً، وتنتهي القصص دومًا، وهذا ما يلفت النظر، بعودة الأمور إلى نصابها – سواء كانت عشقًا أم تجـــارة أم تعديًـــا على الأملاك أو الحرمات – من دون أية إشارة إلى أن الخلـــيفة قد عاقب واليه على ما فعله. وهذا يتسجم مع الواقع التاريخي ذاته، فالحجـــاج استمر في بغيه وظلمه طوال فترة خلافة عبد الملك بن مروان من دون أيـــة إشارة إلى أن الخليفة قد لامه أو قلص من صلاحياته، فالحجاج، أولاً وأخـــيرًا، هو جنرال الخليفة الذي أخضع له البلاد والعصاة ولو بضرب الكعبة بالمنجنيق.

ويـــرى الدكتور فؤاد زكريا أن الأمرين مثيران للسخرية، فهذه الحاشية الـــتي تحـــيط بالحـــاكم هي من صنعه هو، فمن هذه الحاشية ينتقي وزراءه ومديـــريه ومريديه وضباطه وحاميته، وإليها يوكل المهام الصعبة والحساسة والتي فيها المنافع والمصالح وتثبيت دعائم الحكم، وهو يعرف عن مباذلها أكثر ممـــا يعرف عامة الناس، ويبدو جليًا أنه يطعم الحاشية لكي تعرف ما الذي تدافـــع عنه، فهي لا تدافع عن الحاكم بل عن فرصتها الذهبية في ظله، وهو يحتفظ لها بجميل ولائها، فحتى حين يخفق شخص ما من عناصر هذه الحاشية في موقـــع معـــين، أو يرتكـــب خطأ تجعل الرضا عنه مشوشًا، فإنه لا يتم الاستغناء عن خدماته، بل يتم نقله إلى موقع مسؤولية آخر مع جلب عنصر ثـــان من الحاشية نفسها، وكثيرًا ما يتم تبادل المناصب، فيحل هذا محل ذاك لـــيحل الآخر محل الأول، وفي خاتمة المطاف قد يتم تعيين الشخص المعني في الســـلك الدبلوماسي أو في بعض المؤسسات الدولية ممثلاً للبلد، وهذا يعني إبعـــاده عن دائرة الضوء ووضعه في مكان يستفيد منه، وفي الأحوال كلها يجب أن يكون هذا الشخص راضيًا ومطواعًا رافعًا شعار: أنا مخلص لسيادته أو جلالته وسأظل أعمل حيث يضعني.

لقد نجح ستالين باستخدامه لأساليب القهر النفسي والذهني في أن يجعل من الطاقم الحاكم، من حوله، حفنة من الأشخاص المحبطين عديمي الكرامة والكبرياء، لأنه كان ممسكًا بمصائرهم، وكانت له عليهم سلطة الحياة والموت، وهي سلطة الخالق المطلقة، وكان هاجسه أن يفهم الآخرون هذا الواقع حتى في الحالات التي كان يحجم فيها، لسبب أو لآخر، عن استخدام سلطته هذه.

«وكلما تقدم به، بستالين، العمر أصبح أكثر شكًا باطراد، ولم يعد يثق بأي أحد إطلاقًا، وكانت تُرفض أي مقترحات لم يقدمها هو بنفسه، كان مقدم الاقتراح غالبًا ما يعاقب، وهكذا اعتاد مستشاروه أن لا يقدموا أي مقترح».

ولضمان استمرار هذه الفرصة الذهبية تتضاءل شخصية الحاشية أمام الحاكم بالتدريج حتى تَمحي نهائيًا، ولكن أمامه وحده، لأنها تظل ضمن دائرة الحركة التي تمكنها من التسلط والاستفادة خارج دائرة وجود الحاكم.

واللعبة المزدوجة هنا هي أن الحاكم يعرف أن عنصر الحاشية يكذب، والعنصر يعرف أن الحاكم يعرف، ولكنه يسكت لأن هذا الكذب في مصلحته، ومن ثم فبمقدار ما يكون الحاشية ممحوًا، بمقدار ما يعرف أن نفوذه قائم وقوي باسم سيده.

والحلقة ذاتها في دوائر الاستفادة، فالعنصر الصغير يسرق، ولكنه يعرف أن مديره يسرق أكثر منه، والرئيس الأعلى (الوزير أو المدير العام أو مدير الدائرة) يسرق أكثر من الجميع، ولهذا فإن مظاهر الخوف تحمل في طياتها معرفة كل طرف بالآخر.

ولعل قصة مروان بن الحكم مع وكيله في غوطة دمشق تلخص هذه اللعبة، يروي ابن عبد ربه عن مروان بن الحكم أنه زار ضيعة له في الغوطة فأنكر منها شيئًا، فقال لوكيله: ويحك، إني لأظنك تخونني، قال: أفتظن ذلك ولا تستيقنه؟، قال: أو تفعل؟. قال: نعم، والله إني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله، فلعن الله شر الثلاثة.

وقد كتب الكثير عن هذه الضعة والامحاء في شخصية الحاشية (الرجل – نعـــم)، فهـــي التي تتبوأ المراكز، وهي التي تشيع عن الديكتاتور مواصفاته الاستثنائية، فتعممها على الإعلام، لكي يتم تعميمها على الناس، ولكنها هي أيضًـــا الـــتي تشـــيع المواصفات الاستثنائية للديكتاتور، وهي التي تقمع أية معارضة وتخرس أي تساؤل.

وفي مســـرحية «الشلال» لطاغور يسوغ الوزير اختيار هذه الحاشية كما يلي:

راناجيت: معلمك هذا لا شيء في رأسه سوى الزبدة، الزبدة البقرية.

الوزيــر: إنه يشبه البقرة إلى درجة كبيرة، ولكن يا مولاي هذا الصنف من الـــناس هـــم فوائدهم، فهم يرددون، يومًا بعد يوم، وبدقة متناهية، ما تلقنوه، وما كانت الأمور ستسير على ما يرام لو أنهم كانوا أكثر ذكاء.

ولكـــن أول من يعرف بكذب هذه الادعاءات هو الحاكم نفسه، وإنه ليسكت عنها لأنها تروج لأسطورته، ولكن الذين يفبركونها ويروجونها هم عناصر الحاشية المحيطة به، إن شغلهم الحقيقي هو الكذب، وهو يعرف ذلك معرفة أكيدة، ولذلك هو لا يمكن أن يثق بهم ثقة حقيقية، كما أنه يحتاج إلى بقائهم إلى جانبه، فيقربهم ويستبعد المنطقيين والمناقشين وأصحاب الرأي غير المتملق، وبهذا يحكم الحصار حول نفسه بيده.

في عـــام (2002 م) نشرت وكالة الأنباء الرسمية في إحدى الدول العربية الخـــبر التالي: «بتوجيه من السيد الرئيس.... قام السيد.... وزير الأوقاف بتوجيه الشكر لله على الأمطار التي..».

ولتأكـــيد الصـــمت المفروض على كل رغبة غير مبرمجة أو أي احتجاج محـــرج لابد من إيهام الناس (أو إجبارهم على التظاهر بقبول ذلك الإيهام) بـــأن هـــناك من يقدر الأمور ويسيرها ببصيرة استثنائية، وذلك الذي يقدّر ويســـيّر هـــو الـــذي ســـيقدم الحل السحري للمشكلة الوطنية والغذائية والاقتصادية والأخلاقية في المجتمع والدولة.

ويميل الإعلام إلى تصوير أن الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كلها وبكل ما فيها ملك للحاكم الآمر، ومن ثم فإن كل ما يتحقق في هذه الحياة هو بفضل الحاكم، إن القوانين الصادرة "منحة" منه، والميزانية "هبة"، والخطط الاقتصادية "بصيرة" استثنائية، وإذا كانت هناك بعض الثغرات هنا أو هناك فيجب أن لا يتطرق إلى البال أي شك بأن ذلك غائب عن بصيرته، ولكنه، مثله مثل الخالق، يمهل ولا يهمل.

ولأن الطاغية لا يقيم علاقات إنسانية مع من هم حوله فإنه يصبح وحيدًا وحدة كاملة، لا يثق بأحد، ولا علاقات حقيقية تجمعه بأحد، ولأنه لا يحب الناس فإنه يريد أن يرسم لنفسه صورة إعلامية مناقضة يبالغ فيها بإظهار حبه للناس.

لقد كان الصديق الوحيد لهتلر هو كوبيزيك، لأنه كان، كما يصفه إيريك فروم، يمثل لهتلر «جمهوره المتفرج عليه والمعجب به والمرافق له»، أما ألبرت سبير فقد كان بالنسبة لهتلر «الوسيلة التي سيعيد بها هندسة العالم»، لأن سبير هذا كان مهندسًا معماريًا، أي أن هذين الرجلين، اللذين كانا يبدوان الصديقين الوحيدين لهتلر، لم يكونا إلا من ضمن أدواته التي تعزز له رأيه في نفسه، ولم يكونا بالنسبة له أصدقاء أو بشرًا.

وقد قال سبير في محاكمات نورمبورغ: «لو كان لهتلر أصدقاء لكنت صديقه.. ولكن المخلوق الوحيد الذي كان يثير فيه القدر الأدنى من المشاعر هو كلبه».

ومن شهادات سبير الأخرى يتبين أن هتلر كان ينظر إلى الناس نظرة الزوج الغيور غيرة سخيفة على زوجته، فهو يخشى مما ستفعله بعد أن يموت، هل ستتزوج من رجل آخر؟.

ألم يقل ديك الجن الحمصي وهو يقتل جاريته:

فــوحق نعلـيـهـا وما وطــئ الـثرى
شــيء أعــز علــي مــن نعليها
مــا كــان قتـليـهـا لأنــي لــم أكن
أبكـــي إذا ســقط الذبــاب علــيها
لكــن ضــننت عــلى العــيون بحسـنها
وأنفــت مــن نظــر الحســود إلــيها

إنه يتمنى أن يضمن الخلود، بل يظن أحيانًا أنه ضمنه، ألم تسمعوا بنكتة فــرانكو وهو على فراش الموت؟ إذ سمع جلبة فسأل: ما الأمر؟ فقيل له إن الشــعب الأســباني يودعــك، فقال: وإلى أين ينوي الشعب الأسباني أن يذهب؟.

ولكنه حين يعرف أن هذا الخلود مستحيل فقد يخطر له أن يفعل بالشعب ما فعله ذلك الذي صار يشيع عن نفسه أنه مريض بالإيدز لكي يضمن أن لا يتزوج أحد من امرأته من بعد موته، ولو كان يستطيع لفكر في قتل الشعب لكــي لا يتركه لأحد كما فعل ديك الجن بجاريته التي قتلها لكي لا يقترب منها أحد بعد موته.

ويذكــر سبير في كتابه ‹داخل الرايخ الثالث› أن هتلر كان يعيش كابوسًا دومًــا هو أن «الناس سوف يتحولون إلى خلفه حالما يتضح لهم أن السلطة لم تعد في هاتين اليدين... كل إنسان سيتخلى عنه»، وينقل عن لسان هتلر قوله إنــه لــو أزيــح عن السلطة واضطر إلى الاعتزال «ربما أن أحدًا من مرافقي الســابقين ســيزورني بين حين وآخر، ولكنني لا أعول على هذا، فإضافة إلى فرولين براون لن آخذ معي أحدًا، فرولين وكلبي، سأكون وحيدًا ومهجورًا».

ومــن المفارقات المعاصرة المثيرة أنه كان للرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب) الرأي ذاته، فهو القائل: «إذا أردت أن يكون لك صديق في واشنطن فاشتر كلبًا».

ومــن الأقــوال التي تشاع عن الحاكم لتميزه من غيره مسألة الزهد في الدنــيا، فهــو "لا يملك شيئًا"، وهو غير مستفيد ماديًا، وأن أي واحد من الحاشية لديه ثروة تفوق ثروته بأضعاف مضاعفة، أو أنه لا يملك شيئًا على الإطــلاق من "حطام الدنيا"، ويكادون يصورونه على أنه نسخة أخرى من الخلــيفة الفاروق عمر بن الخطاب في تعففه وزهده وإعراضه عن متع الدنيا وامتيازات الحكم.

وإضــافة إلى أنه ليس من السهل حصر ثروة هذا الحاكم أو ذاك فإن من يملك البلاد كلها ويتصرف بميزانيتها كما يشاء لا يُنظر إليه من باب الإثراء الشخصي الذي ينظر منه إلى بقية الحاشية أو العامة. ونضيف أيضًا ما يقوله الدكــتور إمــام في كتاب «الطاغية»: «مفهوم الطاغية قد يتسع، ليس من الضــروري أن يكون طغيانه من أجل الشراب أو النساء أو المتع الحسية، بل قــد يكون له أهداف أخرى: بناء إمبراطورية، السيطرة على شعوب العالم، نشر فكره بالقوة، التفرد بالحكم، التشبه بالله (لا يُسأل عما يفعل)».

وتكمــل الحاشية إنجازاتها في خدمته باختراع الألقاب له، فيصبح القائد والمعــلم والهادي والمهدي والمهيب والأخ (الأكبر طبعًا) والأب، فكان من ألقــاب الإمبراطور هيلاسيلاسي "أسد الله الخارج من سبط يهوذا"، وكان لقــب كــيم إيل سونغ "القائد المحبوب من أربعين مليون كوري"، ويسخر الكاتــب الــبرتغالي خوزيــه كاردوسو بيريس في رواية ‹صاحب الفخامة الديناصــور› مــن الأمــر بقولــه: «عندما انتُبه إليه كان يحمل اسمًا آخر: الحاكم، الديناصور الأول الحاكم والمعلم، تصفيق».

هكــذا تتأكد مقولة الحاكم - الإله الذي "يمهل ولا يهمل" والذي هو "بكــل شيء عليم"، ويصبح بإمكان الحاكم أن ينفذ ما قاله عنه الكواكبي: «مــا من مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة مقدسة يشارك بها الله أو تعطيه مقامًــا ذا علاقة بالله»، وهذا يلتقي مع لينين الذي يقول إن هذه «الطبقات

الحاكمة كلها تحتاج من أجل الحفاظ على سيطرتها إلى وظيفتين اجتماعيتين هما الجلاد والكاهن».

فالسلطان عبد الحميد مثلاً كان يسمى في خطب المساجد: «الخليفة المعظم ظل الله في العالم إمام المشرقين والمغربين وخادم الحرمين الشريفين».

وحين أرسل أبو الهدى الصيداوي للسلطان عبد الحميد رسالة خاطبه على النحو التالي: «الخليفة المعظم، ظل الله في العالم، وارث سرير خلافة سيد المخلوقين نبينا وسيدنا محمد (ص)، ناصر الشريعة الغراء، وناشر ألوية الطريقة السمحاء، خادم الحرمين الشريفين، إمام المشرقين والمغربين».

ويبدو أن الإنكليز في بدء مراسلاتهم مع الشريف حسين للتهيئة للثورة العربية ضد العثمانيين كانوا يدركون حاجة الزعيم العربي إلى هذه الألقاب، فقد بدأت إحدى رسائل مكماهون إلى الشريف حسين على النحو التالي: «إلى السيد الحسيب النسيب، سلالة الأشراف، وتاج الفخار، وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية، السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين، سيد الجميع أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين».

ولنا أن نتوقع أن شخصًا يحيط به التملقُ والمديح والاستحسان والإعجاب في كل ما يفعله سيداخله الزهو والغرور، وقد يصل ذات يوم إلى تصديق ما يقال عنه والدخول في الثوب الذي فصله له الآخرون، وحين لا يجد ما، أو من، يردعه أو ينبهه، أو من يقبل التنبيه منه، تصل نرجسيته إلى تخوم الجنون، ومن التقاط بعض أقوال الحكام والطغاة قد نصل إلى قاسم مشترك.

كان الخليفة المنصور يقول: أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه.

وإذ يستمرئ الطاغية وضعه فإنه يكره من يضع أيًا من العراقيل في طريقه، ولن نستغرب أن يعتبر تذكيره بالدستور أو بالآخرة من بين هذه

العراقيل، ولذلك كان عبد الملك بن مروان يقول: والله لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه.

ولكن الفكرة ليست وقفًا على بلدان الشرق وحضاراته، كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، فالملوك الأوربيون سوغوها في القرنين السادس عشر والسابع عشر لتسويغ سلطتهم المطلقة وأخذوا مباركة الكنيسة ثم ازدوجت السلطة بينهم وبين الكنيسة.

ولقد عرفت كل الشعوب، في الشرق والغرب، ظاهرة تقديس الحكام أو تأليههم، وترابطت السلطة بالمقدس عند كافة الشعوب، وظلت هذه العلاقة حتى الآن في بعض بلدان الشرق الأقصى.

فجيمس الأول يقول: إننا نحن الملوك نجلس على عرش الله على الأرض.

ولويس الخامس عشر يقول يوم تتويجه: إننا لم نتلق التاج إلا من الله، فسلطة سن القوانين هي من اختصاصنا نحن بلا تبعة ولا شراكة.

فالطاغية «في التقويم اليولياني الأول، المأخوذ به من أيام يوليوس قيصر، كانت الأشهر الفردية تعد واحدًا وثلاثين يومًا، أما الزوجية فكانت تعد ثلاثين يومًا فيما عدا شباط الذي كان تسعة وعشرين يومًا، وبعد مجيء أوغسطس قيصر إلى الحكم أضيف يوم إلى الشهر الثامن ليصبح واحدًا وثلاثين يومًا، وسمي شهر أغسطس تكريمًا له، بحيث أصبح شباط ثمانية وعشرين يومًا عدا السنة الكبيسة التي يكون فيها تسعة وعشرين يومًا».

وجاء في سيرة ستالين لتروتسكي: «الدولة أنا، هي صيغة ليبرالية تقريبًا بالمقارنة مع حقائق نظام ستالين الشمولي، فقد عدّ لويس الرابع عشر بأنه والدولة شيء واحد، بينما اعتبر بابوات روما أنفسهم والدولة شيئًا واحدًا ولكن خلال فترة السلطة الزمنية، لكن الدولة التوتاليتارية تذهب إلى أبعد من القيصرية البابوية، فهي إضافة إلى هذا وذاك طوقت اقتصاد البلاد بشكل

كامل، عندها يستطيع ستالين أن يقول، وخلافًا لملك الشمس (لويس الرابع عشر): "أنا المجتمع".

و«كان شخص ستالين مقدسًا بالنسبة لمعظم المواطنين السوفيات، وكان هذا نقلاً من المستوى الديني إلى المستوى العلماني، ذلك النقل الذي عبر عن حاجة قديمة إلى إعادة الطمأنينة، ألم نجد عبادة مشابهة لماوتسي تونغ في الصين الشيوعية، حيث كان "قائد الدفة العظيم " الذي نورت كلماته العالم؟ ألم نلاحظ ذلك في العديد من البلدان الاشتراكية، وفي بلدان أفريقيا وآسيا غير الاشتراكية،إنه أسلوب في الحكم قديم قدم العالم، وبعيد عن أن يكون باليًا بالمرة، وبعد كل شيء فإن ظاهرة هتلر حدثت في واحد من أكثر البلدان ثقافة في العالم، بلد غوته وماركس وبيتهوفن وفاغنر ونيتشه».

والطريقة التي تبتكر لكيفية السلام على الحاكم وطريقة الدخول عليه تزيد في تكريس الهيبة الغامضة التي تحيط به.

فابتداء من مجريات التبليغ باستعداده للاستقبال، مرورًا بالحراسات والأروقة والرسميات والملابس التي يرتديها الحرس والمرافقون، حتى الوصول إليه، مع التبليغات الزجرية الهامسة بالوقت المتاح، هذا كله يعمل على تهيئة نفسية للزائر بحيث يشعر أنه سيدخل إلى مكان مقدس، وعند الوصول إلى مكان وجود الحاكم تختلف أساليب السلام عليه: بانحناء؟، بتقبيل الكتف؟، أو الأنف؟، أو الذقن؟، بتقبيل اليد؟، بتقبيل الأرض؟، بالركوع؟، بالسجود؟.

لقد درجت العادة على أن يسجد الداخل إلى الحاكم، وأن لا يرفع نظره إليه أثناء الحديث، وما تزال عادة تقبيل اليد منتشرة في بعض الدول.

وإذا عدنا إلى الوضعيات التي يأخذها الحيوان المستسلم أمام خصمه نجد أن الداخل إلى الحاكم يقوم بحركات مشابهة توحي أنه يسلم أمره وحياته لحاكمه.

فالسجود، الذي لم يعد معمولاً به كثيرًا، هو التسليم المطلق لمن نسجد له، وهو مد العنق حتى للقطع ومد الجسد حتى للدوس، والمرحلة السابقة لذلك هي الركوع، وحجم المذلة في عمليتي الركوع والسجود هو الذي يحددهما الله وحده، ولكن تحية الزعيم بهذه الطريقة تعني أن لهذا الزعيم صفة إلهية، وأنه بالنسبة لمن يسجد له مانح الرزق والحياة، وصاحب القرار فيهما.

ولطريقة الجلوس والمسافة التي يبقيها الحاكم بينه وبين الناس دلائل أخرى، وأحيل القارئ إلى كتب عديدة ترجمت حول "لغة الجسد"، وفيها، باختصار، أن المسافة القائمة بين اثنين هي المسافة المانعة لقيام أي شيء حقيقي وحميمي بينهما، ومن ثم فإن الحاكم يخاطب الجماهير من فوق منصة عالية "لكي يستطيع أن يكذب، وأن يقول ما لا يعنيه"، ولذلك فالشعارات كلها تنطلق عن منصات الخطابة ومنابرها، وحين يقوم الخطيب بمخاطبة مجموعة من الناس معًا فإنه يقلص حتى العدم إمكانية قيام حوار بينه وبينهم، هنا أيضًا لا يُراجع في ما يقول، مثلما كان لا يُسأل عما يفعل.

ويفسر الكواكبي الأمر بقوله: ما من مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقامًا ذا علاقة بالله.

ولكي يحقق الطاغية ذلك، أو تحققه له الحاشية، يتم إلغاء كافة أنواع الفرح والاحتفال ذات الطابع الشعبي التلقائي، كأن في استمرار ممارسة الشعب لهما تأكيد على أن الشعب كان موجودًا قبله، وهو مستمر بعده.

يلغي ذلك كله ليقيم أفراحًا واحتفالات مرتبطة بشخصه ليقول إن التاريخ يبدأ به هو، وينتهي به هو. التاريخ بما هو مآثر وأفراح وأمجاد. ولكن لا مكان للشعائر المرتبطة بالأحزان. فالأحزان هي الأخرى تؤكد أن وجوده لم يغسل التاريخ تمامًا. لهذا يلغي الطغاة الاحتفالات الشعبية بالمناسبات كلها، حتى الوطنية والدينية. ولهذا مثلاً ألغيت الاحتفالات بعيد الرابع وعيد عاشوراء في بعض البلدان..

ولنتصفح بعض صفحات الأدب لكي نرى كيف صور الأدباء هذا النوع من الحكام، وعلاقتهم بأنفسهم وبمن حولهم وبشعوبهم.

وقد ركز كثير من الكتاب على شخصيتي نيرون وكاليغولا كنموذجين للحكم المطلق، ومن خلالهما تعمقا في محاولة سبر أغوار شخصيات كهذه.

ففي مسرحية «الحصان» مقاطع عن كاليغولا ذات دلالة واضحة:

أنا إمبراطور، أنا إله، إنني أعبد نفسي، أتمرغ بالتراب أمام قدمي.

إنـــني أســتحق هذه العبادة المقدسة، ولكن الألوهية الوحيدة التي لا جـــدال فيها هي أنا، نعم أنا، وأنا وحدي أستحق عبادة نفسي، ومن جهة أخرى فأنا الجدير وحدي بأن أعطي نفسي العبادة.

أنــا لســت أنــا لكوني أنا، أنا وحدي أستحق نفسي... إنني كائن مــزدوج، إنني أنا ذاتي شقّي التوأم... لقد ولدت مع نفسي في وقت واحد.

هــا أنذا متروك وحدي لأكون العابد والمعبود كليهما، ألا يوجد في مملكتي اللامحدودة واحد يستحق أن يتمرغ في التراب أمامي؟.

لقــد وجدت مرة أخرى أن لا شيء ولا أحد يستحق أن يصلي من أجلي.

أنــا أكرهكم لأنكم غير أحرار، وفي الإمبراطورية الرومانية بأسرها هــأنذا الحر الوحيد، ابتهجوا، فقد جاءكم أخيرًا إمبراطور يعلمكم الحرية.

ويصل به الأمر، من حيث غروره بقراراته، واحتقاره لمن حوله، ألا يرى في حاشـــيته كـــلها مـــن يستحق أن يعينه قنصلاً، فيقرر تنصيب حصانه إنستياتوس في هذا المنصب:

إنني أعين قنصلاً للإمبراطورية الرومانية ذلك الذي حلت فيه شرارة من عظمتي الإلهية اللامحدودة، إنني أعين القنصل الجديد للإمبراطورية الرومانية وصاحب السيادة القوي الوسيم المظفر الذي لا يقهر، ذلك الذي فاق الجنس البشري سيادته إنستياتوس الشهب الفحل.

وبدلاً من أن يثير قرار كهذا الاستهجان أو السخرية فإن ماكينة الحاشية التقليدية تبدأ عملها، فتصور هذا القرار على أنه الأكثر حكمة، وأنه الاختيار الذي لا يناقش لأنه لا يضاهى، ونموذج عن هذه الحاشية لوليا التي تقول لكاليغولا: «ليس لأي قنصل من العقل إلا بمقدار ما تضع في رأسه من حكمتك الإلهية الواسعة».

ولذلك نرى تهافت الأشراف الذين يريدون أن يتشرفوا بتلقيح أفراسهم من القنصل، والفتيات اللواتي يسرحن شعورهن تسريحة ذيل الحصان، صار الحصان معبود شباب روما، وعذارى روما وجدن ما يحلمن به، والذي يريد أن يغازل يدق الأرض بقدمه لكي يدعو فتاة إلى الرقص، واللعب لعبة الخيل.

ويصبح الغزل الشاعري على الشكل التالي: «لكم أتوق يا عزيزتي كلوديا إلى أن أسند عنقي إلى عنقك ونحن نقضم القش بنشوة رومانسية».

و«كوني لطيفة معي يا توليا، انظري كيف أصهل وأدق الأرض بقلق».

و«من الآن فصاعدًا على كل واحد في روما أن يلوك لجامه.. فالإنسان القلق سيلوك لجامه ! إها إها إها، والإنسان القانع سيلوك لجامه، ومن يحلم سيلعق لجامه، الشجاع والحازم سيعض على لجامه».

حتى بدأ كاليغولا يشعر بالغيرة من الحصان: «بودي لو أن لروما عنقًا واحدًا إذن لقطعته بضربة واحدة.. نادرًا ما أسمعهم يهتفون في هذه الأيام: يعيش كاليغولا، كل روما تهتف: يعيش لذلك البهيمة».

روى الطبري عن أبي بكر الهذلي أنه قال: إني لواقف بباب المنصور إذ خرج، فقال رجل إلى جانبي: هذا رب العزة، هذا الذي يطعمنا ويسقينا... فلما رجع الخليفة دخلت عليه فقلت له: سمعت اليوم عجبًا، وحدثته بحديث الرجل، فنكث الأرض وقال: يا هذلي، يدخلهم الله النار في طاعتنا أحب إلي من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا.

إلا أن الحـــاكم، في النهاية، يتورط في الصورة التي رسمها لنفسه، أو التي قـــام الإعلام برسمها له وعنه، فيبدأ في رؤية نفسه على أنه متميز فعلاً وأنه صاحب قدرات استثنائية، ولنا أن نتصور حاكمًا في عالمنا المعاصر يصل إلى السـلطة وهو في سن الشباب ثم يقضي حياته في حصار السلطة فلا يتمكن مـــن قراءة كتاب أو دراسة أو تحليل، ومع ذلك تجهد ماكينة الإعلام على تصويره كنزًا من كنوز المعرفة، ثم يؤمن هو بأنه كذلك فعلاً، وهذه الورطة مـــع نفسه هي التي تشرح قول لورد أكتون: «كل سلطة مفسدة، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة».

إذ مـــن أيـــن للحاكم هذه المعرفة من دون توفر الفرصة للاطلاع في عالم تـــتزاحم فيه المعارف والاختصاصات والمعلومات؟ فحتى المبدعون في مجالات الفـــنون والآداب لم يعـــودوا يعولون كثيرًا على مسألة الموهبة في عالمنا هذا، فكيف نعول على الموهبة وحدها عند من سيرسم سياسة بلد ويخطط لاقتصاده ومســـتقبله؟ لايمكـــن أن يـــتحقق ذلك إلا إذا عدنا إلى الإيمان بأنه "المللهم" بشكل دائم، وهذا الإلهام هو الذي يجعله يتصور أن فيه جانبًا قدسيًا أو إلهيًا.

ويجب أن لا ننسى أن هناك تراثًا كبيرًا يعمم علينا فكرة أن النبي صاحب أعظم رسالة وأعظم كتاب، والذي سيرته وكلامه وسلوكه سنة يقتدى بها، هـــذا النبي يقدم إلينا على أنه أمي ضمن موروث سخيف يحول الأميين – الأغيار، أي غير اليهود، أو غير أصحاب الكتب السماوية – إلى أميين بالمعنى المعاصر الذي يتضمن الجهل بالقراءة والكتابة، فهو "أمي"، ولكنه يتلقى وحيًا سماويًا، وقد اختير، وكان "المصطفى" لهذا الوحي وتلك الرسالة لأنه يتصف بمزايا أفردته أمام خالقه الذي اختاره.

فمـــا الذي يمنع أن يكون كل حاكم ملهَمًا، فيعرف كل شيء عن كل شـــيء من دون دراسة أو مرجعية، وحتى وهو أمي أو شبه أمي، في عصر الاختصاص والمعلوماتية؟.

ولكي يظل الحاكم مختلفًا عن البشر، فوقهم أو من طينة غير طينتهم، فإن الإعلام يتجنب ذكر أي شيء يمت بصلة إلى حياته الشخصية، هو لا يجوع ولا يأكل ولا يذهب إلى المرحاض ولا يحب ولا يتزوج ولا يطلق ولا يمرض ولا يضحك ولا يبكي ولا يرقص، إنه ليس بشرًا، هو شيء آخر ومن طينة أخرى.

وفي روايـــة ‹مقـــتل الرجل الكبير› لإبراهيم عيسى مشهد مشابه لمشهد حصان كاليغولا:

«كان الرئيس في زيارة لافتتاح المعرض الزراعي السنوي حين توقف مع مرافقـــيه عـــند جناح مزرعة بط ودواجن، وبينما مال وأمسك بطة يقيسها ويتحسسها كان ينغمس في حوار مع أحد الوزراء أو المسؤولين في المعرض واســـتغرقه الحديـــث حتى مشى وهو يمسك البطة ينتقل من جناح إلى آخر والكل من حولـــه خائف ووجل من لفت انتباهه لضرورة ترك البطة بينما انـــتهز المصورون ذلك والتقطوا له عشرات الصور ممسكًا بالبطة في يده من جانبي جناحيها وهي مستكينة كأحد رعاياه تمامًا.

ثاني يوم الصبح كانت صحف العالم كلها تنشر صورة الرئيس مع البطة، فمـــا كان من إعلامنا سوى أن تعامل مع البط بقداسة مريعة و أرجع ذلك لعوامـــل تاريخية و ظهرت مقالة في الصحيفة الرسمية الأولى عن "العلاقة بين الإنسان و البطة.. اختلافات و تشابهات".

وجـــاء الموضوع على دماغ وزير الداخلية حين اقتحمت ثلاث سيارات نقل مبنى الحزب المركزي الذي كان الرئيس يلتقي فيه مع بعض أعضاء هيئته التنفيذية، لقد كان صاحب السيارات الثلاث أحد أعضاء البرلمان من أرياف البلد، جاء للرئيس بهدية حوالي ثلاثة آلاف بطة أنزلها من السيارات النقل في أفـــواج منتظمة و مزدحمة كأنها صفوف مظاهرة عسكرية حتى امتلأت بهم الساحة المحيطة بمبنى الحزب وصعدت البطات على ظهور السيارات وأسقفها

ودرجات سلالم المدخل الرئيسي مع أصواتها المختلطة و "كاكات" لا تحصى ولا تعد. ولما بلغ الأمر الرئيس ضحك و أمر بإرسال البط إلى وزارة الزراعة للتصرف و قد أصابت النائب خيبة أمل من تحويل هديته للزراعة فتساهل في قـيادة رجاله الذين جلبوا البط فتمردت مئات البطات و دخلت إلى الميدان الرئيسـي، فانهار المرور تمامًا وتعطل ساعات طويلة حتى أن الأمن فضل أن يرحل الرئيس من مبنى الحزب في طائرة هليوكوبتر لأن البط صعد الكباري وعطل سيرها و تكدست السيارات كأنه يوم الحشر.

«لكـن البط لم يشأ أن يرحل عن الساحة السياسية إلا بعد ضيق صدر الرئـيس بالـبط، حيـث فوجيء يوم إلقاء خطبة عيد العمال، أن العمال الحاضرين للاحتفال قد جلبوا معهم مئات البطات، كل واحد جالس ممسك بطة على حجره، فاستفز الرئيس المشهد، فتوقف قبل إلقاء خطبته وفي منصة الإحتفال صرخ فيهم:

-تعرفوا أنا لو بأربي بط كان أحسن من تربية شعب زيكم.

وزاد احمرار وجهه و انفلات صوته وارتجاج يده واهتزاز ميكرفونه.

كله يخرج بره القاعة، و سيبوا البط على الكراسي.. أنا ح أخطب للبط يا رعاع.»

هناك الكثير من هذه الكتابات، ولكنني سأكتفي هنا بفقرات من ‹خطب الديكتاتور الموزونة› لمحمود درويش:

سأختار شعبي

سأختار أفراد شعبي

سأختاركم كي تكونوا جديرين بي وبحبي

إذن أوقفوا الآن تصفيقكم كي تكونوا

جديرين بي وبحبي

سأختار شعبي سياجًا لمملكتي ورصيفًا لدربي

.. سأختاركم وفق دستور قلبي
فمن كان بلا علة، فهو حارس كلبي
ومن كان منكم طبيبًا أعينه سائسًا لحصاني الجديد
ومن كان منكم أديبًا أعينه حاملاً لاتجاه النشيد
.. سأمنحكم حق أن تخدموني
وأن ترفعوا صوري فوق جدرانكم
وأن تشكروني لأني رضيت بكم أمة لي
.. فسيروا إلى خدمتي آمنين
أذنت لكم أن تخرّوا على قدمي ساجدين
.. سنأذن للغاضبين بأن يستقيلوا من الشعب فالشعب حر
ومن ليس مني ومن دولتي فهو حر
سأختار أفراد شعبي
سأختاركم واحدًا واحدًا مرة كل خمس سنين
وأنتم تزكّونني مرة كل عشرين عامًا إذا لزم الأمر،
أو مرة للأبدْ

أنا سيد الحلم لا تحلموا حول قصري بغير الطعام
فمن لغتي تأخذون ملامح أحلامكم مرة كل عام

إذا جف ماء البحيرات فلتعصروا لفظة من خطاب السحاب
وإن مات عشب الحقول كلوا مقطعًا من خطاب الطعام
وإن قصت الحرب أرضيَ فلتشهروا مقطعًا من خطاب الحسام

/21/

الهوامش

هوامش الفصل الثاني

1) مـــن الـــتأثيرات الخطـــيرة للعنف المهيمن على الحياة ووسائل الإعلام والترفيه المعاصـــرين هو التعود على هذا العنف الذي أشرنا إليه في المقدمة، وعدم قدرته عـــلى إثارة ردود الأفعال الإنسانية المعهودة، ومن ثم عدم الوقوف عنده طويلاً حتى حين نكون نحن ضحاياه. فأنا أتوقع أن يستغرب، وربما يستنكر، الكثيرون عـــودتي إلى هـــذا الموضوع لمناقشته أو الاستشهاد به، ولكن بما أن الحادث قد جـــرى قـــبل عشـــرين عامًا فإننا نفترض أن هناك أجيالاً لم "تتعود"، على هذا الحـــادث الفظـــيع عـــلى الأقل، ومن ثم فلا بأس من إطلاعها عليه بشيء من التفصيل.

هوامش الفصل الثالث

1) ومن المفيد التذكير هنا بمباريات المصارعة الحرة "الأمريكية" التي بثتها تلفزيوناتنا قبل عدة سنوات. فمن المعروف أن المباراة تنتهي بالتثبيت أو بالاستسلام. وذلك عندما تلامس كتفا الخصم أرض الحلبة حتى العد الثالث أو يعجز عن النهوض بعد العد العاشر. وقد حدث في إحدى المباريات أن تمكن المصارع من خصمه وراح ينهال عليه ضربًا "حقيقيًا" جعل الدماء تملأ جسم الخصم والحلبة. وحتى حين صار هذا الخصم عاجزًا عن النهوض لم يكن المصارع الخصم يحاول استغلال الوضع لتثبيته، بل يتركه ملقى على الأرض، ثم يرفعه بيده قبل الوصول إلى العد الذي يوقف المباراة، وحين كان الخصم يرتمي على ظهره لكي تلامس كتفاه الأرض باختياره لينهي المباراة كان المصارع الأول يرفع له كتفيه عن الأرض قبل الوصول إلى العد الثالث وذلك كله لكي "يشبع" منه ضربًا أمام الجمهور المستمتع، وسنشرح في مرة أخرى عن هذا الجمهور المستمتع بهذه الأفعال.

هوامش الفصل الرابع

1) كانت هذه مسألة مقبولة ومنتشرة في بلداننا أيام المجاعات، فالكثير من العائلات كان تسعى للخلاص من أولادها بسبب المجاعة، وقد عثرت على دلائل ووثائق وقصص كثيرة مشابهة حول هذه المسألة أثناء البحث الذي قمت به من أجل «سفر برلك».

2) إشارة إلى الكتاب الصادر عن دار قدمس للنشر والتوزيع تحت عنوان «الهامش الإيروتيكي»، تم تغيير الاسم إلى «الاستشراق جنسيًا». ففي هذا الكتاب رصد لطيف ومعمق لظاهرة الاستبدال التي يقوم بها المحتل، وذلك حين يرى ابن البلد مزدوج الشخصية. فهو الخمول المسالم حين يقبل كل شيء. وهو العدواني الذي يقدم المسوغات المطلوبة كلها التي تسوغ قتله وتصفيته. ولكن الموضوع يقف في ذلك الكتاب عند الجانب الجنسي من الموضوع.

3) بتجاهل تام لكل تاريخ الصراع العربي الصهيوني وأسبابه ومآسيه وحروبه ومجازره انعقد عام (1997 م) مؤتمر أمريكي شارك فيه مثقفون عرب وإسرائيليون

وأمريكـــيون لبحث «أسباب كره العرب، أو رفضهم، لإسرائيل»، وبتجاهل تام لكـــل ما فعلته الولايات المتحدة بشعوب الأرض كلها كان العنوان الذي وضعته محطـــة الســـي. إن. إن لتغطيـــتها أحداث (11 أيلول/ سبتمبر 2001 م) يتضمن استغرابًا مستغبيًا للبشر، فالعنوان هو «لِمَ أمريكا مكروهة؟».

هوامش الفصل السادس

1) أنوه لمرة واحدة وأخيرة أنني عند استشهادي بأقوال الآخرين أوردها كما هي، حتى بأخطائها اللغوية أو الإملائية.

أعني: إذا كان الأمر كذلك، فكم فقدنا من كرامتنا وتضامننا الإنساني وإحساسنا بإنسانيتنا حتى صرنا نتعود الإذلال المحيط بنا، لنا ولغيرنا؟.. وحتى صرنا نقبل هذا العنف والتعامل غير الإنساني الذي نعامل نحن به أو يُعامل به غيرنا على مرأى منا في الحياة أو حين نقرأ عنه أو نراه على شاشات التلفزيون. (وسنتجاهل أننا نحن نعامل غيرنا أحياناً بهذه الطريقة: أولادنا أو مرؤوسينا أو الذين يقعون بين أيدينا من أعدائنا مثلاً، أو السجناء الذين بين أيدينا، مفترضاً أن بعض من يقومون بهذه المهمات يمكن أن يقرؤوا ما أكتب). وينعكس تعودنا على هذا الإذلال في أننا صرنا نعد أن تعذيب السجين أمر مفروغ منه لم نعد نتساءل عن أثر ذلك التعذيب في السجين الضحية، حتى بعد خروجه من السجن، كما أننا لم نعد نتساءل عن أثر التعذيب في منفذه، وهل يستطيع بسهولة أن يعود إلى حياته اليومية العادية بعد خروجه من غرفة التعذيب، كما لو أنه خرج من المرحاض لكي يستأنف حياته. وهذه هي أول مرة أجمع بها أفكاري حول هذا الموضوع بعد محاولات عديدة ومقالات مبعثرة في كل مكان.

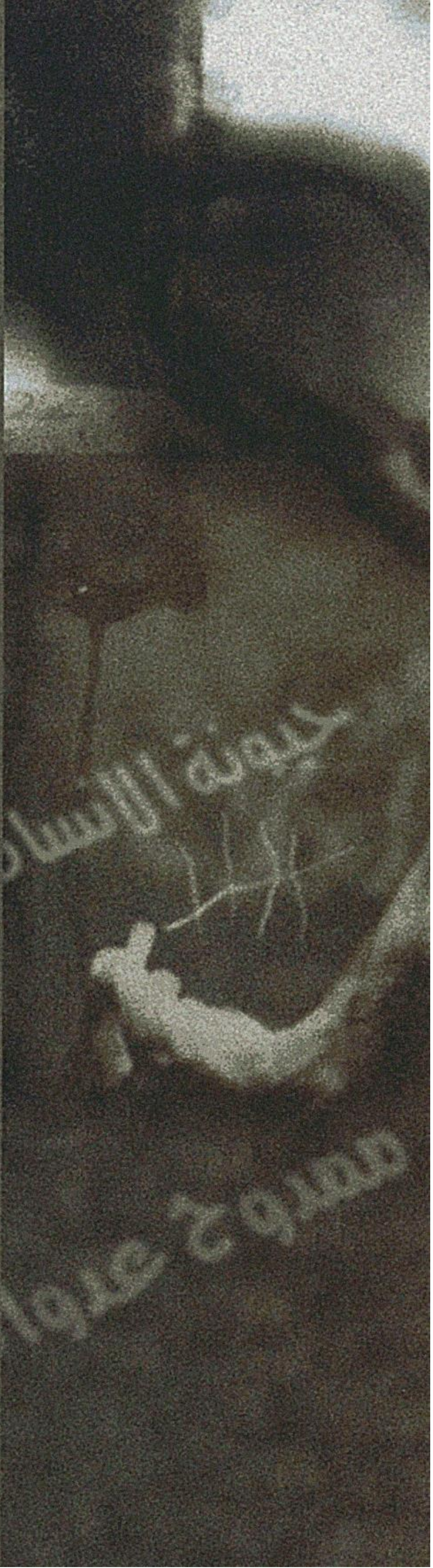

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع